



جامعة البحرين

كلية الآداب

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كتابة الذات وملاحُ صورة الآخر

في سيرة نقولا زيادة ورحلاته

رسالة أعدت لاستكمال متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إعداد الطالبة

حوراء غازي عبدالله العويناتي

الرقم الجامعي: 20133402

إشراف

أ. د. أحمد محمد ويس

أستاذ نظرية الأدب وعلم الأسلوب

جامعة البحرين

مملكة البحرين

2024-2023م

صفحة الاعتماد من قبل لجنة المناقشة

نموذج رقم (٢)

صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم



جامعة البحرين

كلية الآداب

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

برنامج الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية

ناقشت الطالبة حوراء غازي عبدالله العويناتي الرقم الجامعي 20133402 الأطروحة التي استكملت بها متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. والموسومة "كتابة الذات وملامح صورة الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته"، وذلك يوم الخميس الموافق ٢ مايو ٢٠٢٤
وتوصي اللجنة بمنحها درجة الماجستير بتقدير: A

(لجنة المناقشة)

التوقيع

الاسم

مشرفاً

أ.د. أحمد محمد ويس

ممتحناً خارجياً

أ.د. إبراهيم السعافين

ممتحناً داخلياً

د. ضياء عبدالله الكعبي

الملخص:

تناولت هذه الدراسة تجارب نقولا زيادة في سياق سيرته الذاتية ورحلاته حيث ركزت على صورة الذات لنقولا زيادة وكيفية تأثير تجاربه ورحلاته على تصويره للآخرين وتجسيدهم في سيرته الذاتية؛ إذ تعتبر سيرة نقولا زيادة ورحلاته مصدراً مهماً لفهم حياته وتجاربه الشخصية والثقافية، وقد وضح ذلك مدى تأثيرها على تفاعله مع الآخرين، وتسلط هذه الدراسة الضوء على هذه السيرة الذاتية بوصفها وسيلة للتعبير عن ذات نقولا زيادة في توثيق تجاربه الشخصية وتشكيل علاقاته مع الآخرين والمجتمع على نحو عام من خلال توضيح هويته ومكانته في المجتمع. وكذلك فقد ظهر تأثير صورة الآخر في هذه السيرة، حيث عكست كيف كان نقولا زيادة يتعامل مع الآخرين وكيف يصورهم، وأوضحت سيرته الذاتية ورحلاته رؤيةً شاملة عن كيفية تشكيل خبراته الشخصية والاجتماعية ورؤيته للآخرين.

وقد تضمنت هذه الدراسة تحليلاً لسيرة نقولا زيادة الذاتية ورحلاته، وأوضحت تأثير العوامل الثقافية والاجتماعية على رؤية نقولا زيادة للآخرين وكيفية تمثيلهم في سيرته، وكشفت الدراسة من خلال ذلك مفهوم كتابة الذات وتحليل ملامح صورة الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته، إذ إنها تبين كيفية تأثير تجارب نقولا زيادة وسفره على أسلوبه في كتابة سيرته الذاتية وكيف يتم تصوير الآخرين فيها.

وتكونت الدراسة من مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة، وهي كالآتي:

ففي التمهيد: تناولت المفاهيم المتعلقة بالذات وبالأخر والسيرة الذاتية والرحلة.

وفي الفصل الأول: بدأت بتقديم نقولا زيادة بوصفه شخصيةً عامةً مهمةً، وتسلط الضوء على حياته وتجاربه المختلفة لتسجيل الأحداث المهمة في حياته، مما يساهم في تشكيل صورةٍ شاملةٍ عنه في حياته وبعد وفاته.

والفصل الثاني: تطرقت فيه إلى تمثيلات الذات وأنماط الآخر في سيرة نقولا زيادة عن طريق اكتشافه لذاته واكتشافه للآخرين من خلال تجاربه المختلفة كتجاربه الاجتماعية والثقافية ومناقشته للقضايا المتعلقة بالمعتقدات والديانة والجنس من خلال توضيحه لتجاربه الآخرين، ومدى تأثير ذلك على بناء الهوية وتصويره للآخرين في توضيح كيفية بناء نقولا زيادة لهويته الشخصية في سيرته الذاتية وكيف يصور نفسه في ظل تجاربه ورحلاته مع التركيز على العلاقة بين الذات والآخر ونقده لنفسه وللآخرين في المواقف المختلفة.

وفي الفصل الثالث: تناولت الملامح التي كشفت عن ذات نقولا زيادة وأثرت على شخصيته وعلاقاته بالآخرين من خلال التجارب التي عاشها في طفولته وصباه وشبابه وكهولته، عن طريق تجارب السفر والاستكشاف، مبينة التحولات الحياتية المهمة التي مرّ بها.

في الفصل الرابع: تحدثت عن الرحلات التي قام بها نقولا زيادة متطرفة إلى العلاقات الشخصية والاجتماعية التي يواجهها نقولا زيادة خلال رحلاته وكيف يتم تصوير الشخصيات الأخرى كما يوضح هذا الفصل الأبعاد الجغرافية الموجودة في السيرة الذاتية لنقولا زيادة من خلال تناول مدى تأثير المناطق الجغرافية التي يواجهها نقولا زيادة خلال رحلاته على تصوره لذاته وتصويره للآخرين، مبينة ذلك في استكشاف المناظر الطبيعية والعلاقات المكانية وتأثير المكان على ذات نقولا زيادة وعلى الآخر في التعرف على الهويات الشخصية والثقافية إذ إن الأماكن والمناظر الطبيعية التي زارها والمشاهد التي رآها أدت إلى تشكيل هويته وتفكيره الثقافي واكتشافه للآخر.

في الفصل الخامس: تطرقت إلى تقنيات السرد التي استخدمها نقولا زيادة في سيرته الذاتية لتوضيح تلك التحولات التي مرّ بها نقولا زيادة وتأثيرها على ذاته وتفاعلاته مع الآخرين، كما تناولت في هذا الفصل اللغة وأسلوب الكتابة الذي استخدمه نقولا زيادة في سيرته الذاتية موضحة تأثير الاختيارات اللغوية على تمثيل الذات وتصوير الآخرين مبينة الدوافع والرغبات والصراعات الداخلية التي قد تكمن وراء كتابته الذاتية وتصويره للآخرين.

وكانت أبرز النتائج التي توصلت إليها حول ملامح الذات وكتابة صورة الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته كالاتي:

1. إن السيرة الذاتية تعد أداة مهمة للكشف عن صورة الذات في تشكيل تفاعلاته مع الآخرين.
2. إن كتابة الذات وصورة الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته تعكس تفاعلاً دقيقاً بين تجاربه الشخصية وتأثير العوامل الاجتماعية والثقافية.
3. إن حياة نقولا زيادة كانت مليئة بالتجارب التي ساعدت على اكتشاف ذاته واكتشاف الآخرين.
4. كُشِفَ نقولا زيادة عن الثقافة التي ينتمي إليها موضعاً أثر ذلك على تفاعلاته وتواصله مع الآخرين.

الإهداء:

إلى والديّ

(رَبِّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

شكر وتقدير:

تتقدم الباحثة بالشكر والتقدير لجامعة البحرين لما لمستته من التعاون البناء في تذليل الصعاب وأخص بالشكر الجزيل مع فائض الامتنان إلى أستاذي العزيز الأستاذ الدكتور أحمد محمد ويس أستاذ نظرية الأدب وعلم الأسلوب على الوقت المبذول وعلى الجهد والإخلاص في الإشراف على البحث، فهو الذي قام بإثارة طريقي في هذا البحث وتوجيهي إلى الصواب، ولولاه لما كنت حصلت على نتائج مُرضية في هذا البحث، فشكرًا من الأعماق أستاذي الفاضل، فأنت خير معلم..

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذتي العزيزة الدكتورة ضياء الكعبي أستاذة السرديات المشارك التي تعلمت منها الكثير في مرحلتي البكالوريوس والماجستير.

فهرس المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
2	اعتماد لجنة المناقشة
4-3	ملخص الدراسة
5	الإهداء
6	الشكر و التقدير
8-7	فهرس المحتوى
19-9	المقدمة
34-20	التمهيد
20	المفاهيم و المصطلحات
35	الفصل الأول
	حياة نقولا زيادة: ما كتبه عن نفسه وما كتبه الآخرون عنه
46-36	• ملخص حياته
	أصوله، نشأته. تعليمه. أعماله. وفاته
59-47	• نقولا زيادة في مراها الآخرين
47	ما رآه الآخرون في حياته. ما رآه الآخرون بعد وفاته
60	الفصل الثاني
	تمثلات الذات والآخر عند نيقولا زيادة
73-61	• تمثلات الذات
61	الذات حين تعرف
62	الذات حين تعترف
70	الذات حين تُموّه
77-74	• أنماط الآخر
74	الآخر المشابه
76	الآخر المغاير

84-78	• العلاقة بين الذات والآخر.....
91-85	• نقد الذات ونقد الآخر.....
99-92	الفصل الثالث..... ملاح فارقة من حياة نقولا زيادة في سيرته الذاتية في مراحلها المختلفة
113-100	• ملاح أيام الطفولة و الصِّبا.....
116-114	• ملاح أيام الشَّباب.....
118-117	• ملاح أيام الكِبَر.....
129-119	الفصل الرابع..... الرحلة امتداداتها ومشاهداتها
136-130	• دوافع الرحلة.....
138 -137	• الامتداد المكاني للرحلة ومسارها الزمني.....
145-139	• مشاهد الرحلات (العربية / الغربية).....
149-146	الفصل الخامس..... البنية السردية للسيرة والرحلة.....
166-150	• السرد وعناصره.....
150	التبئير
152	الحدث.....
155	المكان
159	الزمان.....
162	الشخص
170 -167	• الوصف.....
175 -171	• العنوان والعتبات النصية.....
182-176	• اللّغة.....
186 -183	الخاتمة.....
194 -187	المصادر و المراجع.....

المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن موضوع صورة الآخر يُعتبر أحد الموضوعات الرئيسة التي جرت مناقشتها في الأدب المقارن منذ بداياته في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تعمق هذا الموضوع مع ظهور علم جديد يسمى علم الصورة "الصورولوجيا" imagologie، والذي يعنى بدراسة صورة الآخر كما تظهر في أثرٍ ما أو أدبٍ ما، ويحظى هذا العلم اليوم بالاهتمام الكبير من قبل الباحثين في الغرب.

ومن يُنعم النظر في علم الصورة "الصورولوجيا" فسيُرى أنه يكشف عن وجود علاقة بين الأنا والآخر في ثناياه المختلفة، وذلك يتضح من كون الإنسان يشعر منذ تفتح وعيه بالاختلاف مع الآخر. وبحاجته إلى الآخر، ومنها تنشأ سلسلة من الثنائيات: الذات والآخر، الذكر والأنثى، الزوج والزوجة، الرجل والمرأة، الصديق والعدو، هنا وهناك.. إلخ. إذ أنّ هذه الثنائيات تحدّد من العلاقة بين الذات والآخر. والجدير بالذكر أنّ تشكّل صورة الآخر في ذهن الإنسان هو نتيجة ما يحيط به، فترتبط تلك الصورة بحصيلة الإنسان التكوينية نتاج ما يراه ويسمعه على مدار السنين، وقد تتغير هذه الصورة بمرور السنين وباختلاف الظروف.

إذًا، ينبغي الاعتراف بوجود علاقة بين الذات والآخر؛ إذ لا يستطيع الإنسان فهم ذاته من دون الآخر، حيث يصبح الآخر شرطاً لتحرّر الذات من ذاتيتها، ولا تتحقّق الذات في الواقع إلّا بالتفاعل مع الآخر، بمعنى أنّ الذات ليس باستطاعتها أن تتخلّص من الآخر، فينتج عن هذه الثنائية المتضادة ارتباط وثيق بين طرفيها.

ويمكن القول من دون مبالغة إن موضوع الذات والآخر هو أحد أصعب موضوعات البشرية وأكثرها تعقيدًا للتنوع والتفاوت في الآراء. إنه موضوع فلسفي ونفسي واجتماعي، وأيضًا موضوع أدبي يتجلى في مختلف أنواع الأدب. وربما يكون واضحًا أكثر في السيرة الذاتية والأدب الرحلي. وعندما قررنا دراسة هذا الموضوع، كان أمامنا الكثير من الأعمال التي يمكن استخدامها بعضها كمدونة للتطبيق لكنني ركنت إلى اختيار أستاذي لكاتب كبيرٍ ثريٍّ يجمع بين السيرة والرحلة. إنه شاهد حقيقيٌّ على القرن العشرين، الذي يعد أخطر القرون التي مرت في تاريخ البشرية.

ولهذا عمدتُ إلى اختيار مجال كتابة الذات وملامح صورة الآخر في الكشف عن جدليّة العلاقة القائمة بينهما من خلال بيان ملامح كلّ مِنْهُمَا على أنحاءٍ شتّى؛ لأن نقولا زيادة يصف في سيرته الذاتية الآخر بأنواعه المختلفة. والجدير بالذكر أن هذا البحث درس كتابة الذات وملامح صورة الآخر عن طريق استقراء السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته معتمداً على مبادئ الصورولوجيا في دراسة صور الذات والآخر.

و يهدف هذا البحث إلى تبيان الذات وملامح صورة الآخر في السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته، ليكون لبيان ثقافة كل منهما أعني: الذات والآخر، ومن ثم الوصول إلى فهم الهوية القومية فهماً متكاملًا في الفترة الزمنية التي عاشها نقولا زيادة، كما أنه يلقي الضوء على كيفية تفاعل الذات مع الآخر، ملتصًا الأفكار والقيم التي تتشكل من صورة الآخر، ولا تقتصر صورة الآخر عند نقولا زيادة وفقًا لصورة الشخص و إنما هو يرمي إلى أبعاد أخرى تنص على المكان و الثقافة، فنراه يعطي الآخر حقه كما يعطي لذاته حقها لأنه أراد فيما ظهر لنا أن يكشف ثنائية الذات والآخر والعلاقة بينهما في وصفه للآخر بأنواعه المختلفة، إذ اتضحت ذات نقولا زيادة من خلال تصويره لهذا الآخر، والجدير بالذكر أن اللقاء بين الذات والآخر في طيّات سيرته ورحلاته يشكل قيمة معرفية وثقافية يستنتجها القارئ وتدور في مخيلته و يتأثر بها.

وتعود أهميته إلى أن الصورولوجيا علم من العلوم الأدبيّة التي تدخل مواضيعها في صلب الأدب المقارن، فهي من الدراسات الثقافية الحديثة المطلوب التّوسع فيها باعتبارها تسهم في مقاربة الآخر واكتشافه، ومنها تستطيع الذات أن تكشف عن نفسها حيث يتم ذلك بصورة واضحة من خلال السعي إلى توضيح صورة ثقافة الذات في أدب الآخر، و اكتشاف صورة الآخر من ثقافة الذات فتري الأمم آدابها ومكانتها في الشعوب الأخرى، وسيركز بحثنا هذا على هذه الصورة؛ أي على صورة الذات والآخر لنتمكن من التعبير عن الآخر من حيث مظاهر ثقافته وتفكيره وآدابه، وطرائق حياة الشعوب وأنماط معيشتها، وعلاقاتها الاجتماعية، ومعتقداتها، وغير ذلك من أمور على نحو ما سعى الكاتب إلى تقديمه من وجهة نظره في سيرته الذاتية وفي رحلاته المختلفة.

وقد وقع الاختيار على نقولا زيادة لأنه كما وصفه محرر رحلاته الشاعر نوري الجراح: "علم من أعلام الثقافة العربية الحديثة، مثقف أكاديمي موسوعي عني بتقديم سرود تاريخية وقرارات للتاريخ العربي في محطات أساسية على مدار أكثر من نصف قرن من النشاط الفكري الخلاق"¹، وهو من الكتاب المؤرخين الذين عاشوا عمراً طويلاً قارب القرن من الزمان (1907-2006)، وأسهموا في معرفة الآخر بصورة واسعة من خلال العيش في حقبات زمنية مختلفة ومن خلال جولاته حول العالم وزياراته كثيراً من الأمكنة والبلدان مختلفاً بعادات هذه الشعوب المختلفة وتقاليدها.

وقد امتاز نقولا زيادة من بين سائر الكتاب والرحالة السابقين باعتباره صال وجال على نحو أكبر وعاش حقبات مختلفة أسهمت في تكوين صورة حية عن الاختلاف الثقافي الذي يشتمل عليه الآخر، فقد تضمنت سيرته الذاتية (أيامي) جزءاً من رحلاته، كما كانت رحلاته المسماة (حول العالم (76) عاماً؛ رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الإفريقي 1916-1992) جزءاً من سيرة حياته، فأردت الكشف عن سيرته الذاتية لاكتشاف ذاته على نحو أكبر ولفهم الآخر بصورة أوسع عبر رحلاته المتنوعة التي قام بها في أقطار مختلفة، وهو شخصية مرموقة شغل مكانة كبيرة في العصر الحديث بما قدمه من إنجازات على صعيد كتابة التاريخ القديم والمعاصر ووصف حياته بشكل دقيق.

والحق أن السيرة الذاتية تُعدُّ من الأجناس الأدبية التي تعبّر عن الحياة الواقعية التي عاشها الكاتب، فهي عبارة عن فن يجمع بين التاريخ والأدب²، فيكمن سرد السير الذاتية في كتابة الأديب لنفسه عن حياته الخاصة التي تنص عن الأحداث التي عاشها الأديب في مراحل حياته المختلفة ذاكرة طفولته وأعماله ومواقفه مع أهله وذويه، ومفصلاً فيها، فنرى الأحداث في مختلف السير الذاتية تُسرد بصيغة ضمير المتكلم فيتحقق التطابق بين الكاتب وهو السارد والبطل، إذ نرى الذات تعكس صورة الآخر بناء على رؤية الذات لها.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاماً رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الإفريقي 1916-1992، ط1، دار

السويدي للنشر و التوزيع الإمارات العربية المتحدة، 2007، ص 13 .

2 عبيد، محمد صابر: السيرة الذاتية الشعرية قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن 2008، ص1 - ص 10.

والجدير بالذكر أن أدب الرحلة يعد جنسًا أدبيًا متعالمًا مع أنواع الكتابة الذاتية كالمذكرات واليوميات، فهو يدخل في جانب السيرة الذاتية على اعتبار أن الرحلات تصف الشعوب مقدمة صورة حيّة واقعية عن الحياة اليومية في تلك الرحلة مشتملة على العادات والمعتقدات، ومتطلعة على مختلف الممارسات والأنشطة هناك، إذ إنها تجعل الذات ترى الآخر من مناظير ثقافية شتى، باعتبار الرحلة نافذة رئيسة في التعرف على ثقافة الشعوب المختلفة فهي باب للكشف عن صورة الآخر.

وتعد إشكالية الذات والآخر من المسائل التي تناولتها السير الذاتية المختلفة، وقد حاول نقولا زيادة أن يبين لنا الجانب المضيء للآخر بالإضافة إلى إبراز الصراعات والنزاعات بين الشرق والغرب مبينًا أن جزءًا من وعي الذات يكون بالتعرف على الآخر، ومن الملاحظ أن الصراعات تظهر دائمًا نتيجة الرغبة في السيطرة على شيء معين، فهذه الصراعات تمثلت في صورة البلدان، وقد كانت واضحة بشكل جليّ عندما سرّد نقولا زيادة رحلاته لمختلف البلدان.

" فلقد كانت الذاكرة الفردية ذاكرة الشاهد وهي الرحم الذي وُلِدَ منه التاريخ ، ثم سُجِلَت شهادة الشاهد ودخلت الأرشيف المخيف بحجمه وتنوّعه . وجاء المؤرخ كي يعيد إلى المجموعة تصورًا أو بالأحرى تمثيلًا حقيقيًا للماضي يضعه أمام الأمة كي تكون عندها ذاكرة جماعية جاءت من هذا الذي لم يعد قائمًا و لا نستطيع أن نستعيده وتتحقّق من صدق هذه الاستعادة " ¹ ونحن نعلم أن الإنسان حين يسرد قصة حياته ينتقي بعض الأحداث التي عاشها ويجري عليها بعض آليات الحذف والتكثيف والتحوير أحيانًا مستندًا إلى ما تسعفه به الذاكرة، ولا شكّ أنّ للشعور واللاشعور دورًا في ذلك فكل سرد " يحوي بالضرورة بعدًا انتقائيًا إننا نلامس هنا العلاقة الوثيقة بين الذاكرة الإخبارية والسردية والشهادة والتمثّل المجازي للماضي التاريخي. فإنّ أدلجة الذاكرة ممكنة بفضل التنوّع الذي يعطيه عمل التصوير السردى " ² فهناك كم ضخم من السير الذاتية تجعل الذات الكاتبة نفسها موضوع الكتابة لما ينطوي عليها من تبعات في التثقل والتأويل، فالكاتب يحكي ما يُفترض أنه كان من دون تدخل الخيال، والقارئ مبدئيًا سيصدق ما كتبه الكاتب، على اعتبار أن ما كتبه مرتبط بأحداث تلامس الواقع وهذا ما نراه في سيرة نقولا زيادة.

¹ ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ والنسيان، ترجمة: جورج زيناتي، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009، ص 18

² المرجع نفسه ، ص 648 .

ثمة أسئلة عديدة تُطرح في مثل هذا البحث، وقد اجتهدنا للوصول إلى إجابة عنها، وهي:

- ما ملامح صورة الذات والآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته ؟
- ما مدى تأثير الصور المتعددة للآخر في تكوين ذات نقولا زيادة ؟
- ما طبيعة الصراع بين الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته؟
- ما غرض نقولا زيادة من جمع رحلاته في كتاب خاص مع الإشارة إلى السنوات؟
- لماذا يفصل نقولا زيادة في سيرته الذاتية بشكل تاريخي ؟
- بم تختلف السيرة الذاتية لنقولا زيادة عن السير الأخرى ؟
- ما الدوافع التي دفعت نقولا زيادة إلى التنقل في البلدان ؟
- ما الذي أراد نقولا زيادة أن يضيفه في سيرته الذاتية ورحلاته ؟

ويثير هذا البحث قضايا التعرف على الهوية و ثقافة الاختلاف الناتجة عن كتابة الذات و صورة الآخر التي تشكلت عند نقولا زيادة، والتي تعبر عن النسق الثقافي الذي تمحور حول الرحلات للكشف عن صورة الآخر عن طريق أنا الكاتب، فمن خلال السيرة الذاتية ورحلات نقولا زيادة تبينت هوية الذات وعلاقتها بالآخر، باعتبار أن أزمة الهوية والاختلاف تجاه صورة الذات والآخر من الدراسات المهمة في عصرنا الحاضر، فكل هذا ساعدنا على تحقيق أهداف البحث.

فهناك فرضيتان للبحث، وهما:

- البحث عن الذات من خلال حضور الآخر بصور شتى.
- تتبع ملامح صورة الآخر في السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته للكشف عنها عن طريق الذات.

وقد تمّ تحقيق الفرضيتين من خلال:

1. التعمّق في مفهوم الذات ومفهوم الآخر.
2. التعمّق في مفهوم الصورولوجيا في الأدب المقارن.
3. القراءة الفاحصة للسيرة الذاتية لنقولا زيادة.

4. القراءة الفاحصة لرحلات نقولا زيادة.
 5. اكتشاف صورة الآخر من خلال صورة الذات.
 6. دراسة البنية بالاستعانة بمناهج متعدّدة.
 7. إعداد خطة تتضمن الوصول إلى نتائج مهمة.
- من هنا وصلنا إلى نتائج قادتنا إلى حلّ الإشكالية المطروحة.

اعتمدت في هذه الدراسة على عدّة مناهج كالمنهج الوصفي التحليلي و المنهج الموضوعي، واستعنت بدراسات علم الصورة للكشف عن صورة الآخر بالاستعانة بمنجزات كل من المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية على حدٍ سواء، كما استعنت بالدراسات الثقافية والدراسات النفسية والاجتماعية التي تبيّن معالم الذات ومعالم الآخر، إضافة إلى مفهوم التاريخانية الجديدة، ولن أنسى البعد الفني المتمثّل في كون السيرة والرحلة نوعين أدبيين ينطويان على جوانب وصفية وسردية، وهو ما تمّ دراسته بالاستعانة بمنجزات السرديات وبعض المناهج النقدية الحديثة للتطرق إلى الفروق الأجناسية بين السيرة الذاتية وأدب الرحلة.

وقد قسمت البحث إلى تمهيد - وخمسة فصول - وخاتمة:

أما التمهيد فاشتمل على المفاهيم والمصطلحات وهو عبارة عن جزء نظري يشكل دعامة البحث الأساسية في الوقوف على المصطلحات وتحديد ما هي الماهية المضمون بشكل أوسع، متمثلاً في الكلمات المفتاحية للموضوع.

وأما الفصل الأول فهو عبارة عن إضاءات من حياة نقولا زيادة و قد اشتمل على مبحثين المبحث الأول ملخص حياته، و المبحث الثاني نقولا زيادة في مرايا الآخرين، أما الفصل الثاني فقد عنوانته بعنوان تمثّلات الذات والآخر عند نقولا زيادة واحتوى على أربعة مباحث أما الفصل الثالث فهو بعنوان الملامح الفارقة في حياة نقولا زيادة و اشتمل على أبرز الملامح منذ طفولته وحتى كهولته، أما الفصل الرابع فيتحدث عن رحلات نقولا زيادة و الفصل الخامس والأخير يتحدث عن البنية السردية.

وأخيراً جاءت الخاتمة لتلخّص أهم النتائج والملاحظات التي توصلتُ إليها.

أما الأسباب التي جعلتنا نختار هذا البحث عن صورة الذات والآخر، فهي عديدة منها أسباب تخص الباحث و أسباب تخص المجتمع:

- أسباب تخص الباحث:

1. التفرّد في هذا البحث لعدم دراسة هذه السيرة الذاتية والرحلات، مما يمكن أن يعدّ إضافة في حقل الدراسات الثقافية العربية الحديثة، فعند البحث عن السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته لم أجد أحداً قام بدراستها على نحوٍ واسع، لذا أردت الكشف عن صورة الآخر ومعرفة من ذات الكاتب الذي عاش حقبةً زمنية ومكانية مختلفة وعاصر مختلف فترات القرن العشرين.
2. نحاول أن نبين كيفية تفاعل الذات مع الآخر واتفقهما معاً أو اختلافها في الصور المختلفة التي نريد أن نبث عنها كصور الذات المختلفة المطروحة في السيرة الذاتية والرحلات وارتباطها بصور الآخر المتنوعة.
3. إن هذه الدراسة تفتح لنا الآفاق لفهم صورة الآخرين واختلاف ثقافتهم، وهو ما يسهم في تعزيز القيم المشتركة بين الشعوب كالتسامح - الأخوة - التعاون - المحبة... إلخ، ويخلق روحاً إنسانية جديدة بعيداً عن التعصّب المفضي في كثير من الأحيان إلى نشوب الصراعات والتنازعات الداخلية والخارجية.

- أسباب تخص المجتمع:

1. إن الذات العربية تعاني من صراع من قبل الطرف الآخر المتشابه معها والمختلف معها أيضاً، وقد تكون هذه الصراعات في المعتقدات والديانة و الهوية إلخ، ونحن هنا نحاول أن يفهم كل منا الآخر بأسلوب حضاري خالياً من النزاعات، للارتقاء بالأمّة.
2. إن السير الذاتية وكتب الرحلات تعبّر عن حياة واقعية تاريخية؛ إذ إن السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته تبث روح الشغف لأبناء المجتمع في الاطلاع على التاريخ، حين يسرد نقولاً زيادة قصص الأمكنة بصورة تاريخية، مما يسهم في فهم قصص واقعية تاريخية ومعرفة الأحداث الحاصلة في المجتمع آنذاك لرؤية التطور في المجتمعات من قبل ومن بعد.
3. إن هذه السيرة الذاتية ورحلاته تجيب عن تساؤلات كثيرة قد يغفل عنها الإنسان الذي يعيش وسط مجتمع، لأنها تشكل الثقافة الحضارية في ذكر الأمكنة والتفصيل فيها وفق فترات زمنية مختلفة.

على أنه لا يفوتني أن أشير إلى أن هناك عدة دراسات سابقة درست موضوع صورة الذات والآخر في السيرة الذاتية و الرحلات وهي، كالآتي:

أولاً: دراسات في صورة الذات والآخر

تناولت العديد من الدراسات صورة الذات والآخر في المدونات المختلفة، وقد اعتمدت كل دراسة على مقارنة الصورة من رؤية خاصّة، ومن أبرز الدراسات التي وضعت حجر الأساس لهذا الموضوع:

1. "صورة الآخر في التراث العربي" لماجدة حمود، وهو كتاب صادر عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010م: اهتمت هذه الدراسة ببناء الصورة الصحيحة حول الذات والآخر وذلك من خلال الثقافة العربية الإسلامية و البعد عن الصورة المغلوطة في الأذهان حول الآخر من خلال عرض نماذج تطبيقية لصورة الفرس في كتاب "البخلاء" للجاحظ، وتقوم بدراسة الصراعات القائمة بين العرب والفرس وفي العراق.

2. "صورة الآخر في الشعر العربي". لسعد فهد الذويخ وهو كتاب صادر عن عالم الكتب الحديث، إربد 2009م: تناول الكاتب صورة الآخر في الشعر العربي منذ العصر الأموي إلى العصر العباسي إذ يبحث عن الآخر في الشعر العربي كالأخر الفارسي، التركي،... إلخ زمنياً مبيناً مسألة الهوية والاختلاف في حضور الآخر و ازدهاره في العصر العباسي و انحطاط الذات.

3. "صورة العربي ناظرًا ومنظورًا إليه"، وهو كتاب يضم في جنباته أعمال ندوتين عقدتا في مدينة الحمامات بتونس سنتي 1993 و 1996 وشارك فيهما مجموعة كبيرة من الباحثين عربًا وغربيين، وقام الطاهر لبيب بتحرير أعمال الندوتين وصدرت في مجلدٍ ضخّم عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1999م وقد احتوى على دراساتٍ عديدة بحثت عن مسألة الأخرية ونظرة العرب إلى الآخر، و نظرة الآخر إلى العرب والاختلاف الحاصل بينهما، للكشف عن مفهوم الآخر وإيضاح العلاقة بين الذات والآخر.

4. " الصورة.. الأنا، الآخر " لدانييل هنري باجو وجان مارك مورا، ترجمة عبد النبي ذاكر، منشورات الزمن، الرباط 2014 م: يرى مؤلفا الكتاب أن الصورولوجيا تقع في عمق الأدب المقارن ومن خلالها يتم التعرف على الآخر الأجنبي كونها تتمثل بالمقارنة، ولا يقتصر على ذلك فقط بل يتطرق المؤلفان إلى المفاهيم الصورولوجية... مؤكّدين على أنه ينبغي أن تتفتح الصورولوجيا وتتوسع بشكل أكبر..

5. "التجليات الفنية لعلاقة الذات بالآخر في الشعر العربي المعاصر" للدكتور أحمد ياسين السليمانى صادر عن دار الزمان للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق 2009م: يسلط الكاتب الضوء في دراسته هذه على الصراع بين الذات والآخر في الشعر لدى الشعراء المعاصرين، فيرى أن الذات والآخر جزء لا يتجزأ من أبيات القصيدة الشعرية.

6. "صورولوجيا الآخر في الرحلة اليابانية" لأبو المعاطي خيرى الرمادى، مجلة آداب البصرة العدد 88، 2019م: يعبر الكاتب عن انفتاح الرحلات على الآخر بسبب انتماءات الرحالة الدينية، والفكرية، والسياسية، و أسباب ارتحالهم محدداً الأسس التي يبنى عليها مبدأ الغيرية.

7. "صورة الآخر في الرحلات الأندلسية " لبلال سالم الهروط، دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة مؤتة 2008م: تكشف هذه الدراسة عن صورة الآخر في الرحلات الأندلسية وتمحيص تلك الرحلات من خلال ما قدّمه الرّحّالة الأندلسيون في رحلاتهم المختلفة.

8. "الاستشراق " لادوارد سعيد، ترجمة الدكتور محمد عناني، صادر عن رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 2010م: سعى الكاتب إلى معرفة عالم الآخر مبيّناً أسلوب الغرب في معرفة الشرق فكشف عن أدوار المرجعيات و المخيال في بناء الصورولوجيا.

9. "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال صادر عن دار نهضة مصر، القاهرة، 1952م: يتحدث المؤلف عن الآداب المختلفة باعتبارها آدابًا عالمية إذ إنه نراه يقارن أدب بلد معين بأدب بلد آخر كأدب الغرب و مقارنتها بأدب العرب.

10. صورة الآخر في الخيال الأدبي لطوني موريسون، ترجمة: محمد مشبال، منشورات جامعة محمد بن عبد الله فاس 2009 وهو كتاب يقول مترجمه: إنه ينصب اهتمام مؤلفته طوني موريسون على البحث عن أثر اللون الأسود في تشكيل صور بعض الروايات التخيلية الأمريكي¹.

ثانيًا: دراسات في السيرة الذاتية

1. "السيرة الذاتية" لجورج ماي تعريب الدكتور محمد القاضي و الدكتور عبدالله صوله، صادر عن مكتب الأدب المغربي دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 2017م: يتناول الكاتب السيرة الذاتية معبرًا عنها بأنها تحافظ على وحدتها رغم تغيّر أشكالها و استعصائها على الحصر.

2. "السيرة الذاتية" لفيليب لوجون ترجمة الدكتور عمر حلي، صادر عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 1994م: اهتم الكاتب بتأسيس الميثاق السير الذاتي للسيرة الذاتية ووضع الحدود والفواصل لها.

1 موريسون، طوني: صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات جامعة محمد بن عبد الله فاس، 2009، ص 5 .

ثالثاً: دراسات في أدب الرحلات

1. "الرحلة في الأدب العربي" لشعيب حليفي صادر عن دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، 2006م: يرى شعيب حليفي أن النص الرحلي أحد أهم النصوص الثقافية القادرة على كشف جوانب الهوية العربية من خلال صورة الذات والآخر، فالنصوص المتسمة بالرحلة تختلف باختلاف ثقافة الرحّالة.

2. "أدب الرحلة في التراث العربي"، لفؤاد قنديل صادر عن مكتبة الدار العربية للكتاب - القاهرة، 2022م: يتحدث الكاتب عن أدب الرحلة ذاكرًا رحلات مختلفة لرحالين، متناولًا أخبار هذه الرحلات.

3. "أدب الرحلة (جدلية الأنا والآخر في عالم متغير)" لخالد التوزاني صادر عن كنوز المعرفة - عمان الأردن، 2020م: يتخلل هذا الكتاب عدة بحوث تتحدث عن الرحلة.

4. "نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث" للدكتور عبدالله بن أحمد بن حامد صادر عن النادي الأدبي بالأحساء بالاشتراك مع دار الكفاح للنشر و التوزيع، المملكة العربية السعودية - 2015م: يتناول الكاتب العلاقة بين الأنا والآخر في الأدب الرحلي الذي كتبه مجموعة من الأدباء العربية في العصر الحديث، فقد ذكر رحلات الرحالة الأوائل راصدًا رحلاتهم المتنوعة، كما أنه نقد الذات ونقد الآخر...

تمهيد : المفاهيم والمصطلحات

المفاهيم هي الأطر الأساسية التي تقوم عليها البحوث المختلفة، إذ إن هناك مفاهيم عدّة تشكل الدعامة الأساسية في البحث، ينبغي علينا الوقوف عليها، وهي:

1. مفهوم علم الصورة (الصورولوجيا Imagologie)

تعد الصورولوجيا من أهم ميادين البحث في الأدب المقارن، وقد ظهر هذا العلم في المدرسة الفرنسية مع جان ماري كارييه، كما أخذه فرانسوا غويار، وهو أحد أقطاب الأدب المقارن في فرنسا، فهو عبارة عن " فرع حديث كان وليد ما يعرف بأدب الرحلة الذي كان المعين الذي تستقى منه الأمم معلوماتها عن الأمم الآخر"¹، وبهذا تظهر لنا ملامح صورة الآخر.

وقد تعددت التسميات التي عبّرت عن هذا العلم فكان منها: مصطلح "دراسات الصورة Studies Image أو علم الصورة Imagologie أو الصورولوجيا كما يحلو المصطلح لبعض العرب أو الصورية كما يروق للبعض الآخر"².

وقد قال دانييل هنري باجو إن الصورولوجيا يتقاطع مع عدد من العلوم الأخرى بقوله: " يتقاطع هذا النوع من الدراسات مع البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، ومؤرخو العقليات والحساسيات، الذين يطرحون مسائل حول ثقافات أخرى والغيرية والهوية، والمثاقفة، والتفاقر الثقافي، والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي"³.

1 بكار، يوسف، والشيخ، خليل: الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، مصر 2008، ص 4.

2 اصطفى عبد النبي: دراسات الصورة بين الدرس المقارن للأدب والعلوم الإنسانية، جريدة الأسبوع الأدبي، العدد 1052،

21 أبريل 2007 م .

3 باجو، دانييل هنري: الأدب العام المقارن، ترجمة: غسان السيد، ط 1، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - سوريا، ص 90 .

وقد ظهر هذا الاصطلاح في الأدب المقارن على أنه " دراسة تكوين الصور عن شعب لدى شعب آخر، وتعتمد الصورولوجيا على مفاهيم الدرس السيكولوجي والسيولوجي والإثنولوجي لتكون في نهاية المطاف عبارة عن تداخل العلوم الإنسانية بالأدبية"¹ حيث إنه "ينظر إلى الصورولوجيا بوصفها مجموعة من الأفكار التي تقدمها الذات عن الآخر ضمن سيرورة من التأديب"².

وقد عرّف دانييل هنري باجو مفهوم الصورولوجيا (Imagologie) على أنها "عرض لواقع ثقافي يكشف من خلاله الفرد والجماعة الذين شكلوه (أو الذين يتقاسمون أو ينشرونه)، ويترجمون الفضاء الاجتماعي والثقافي، والإيديولوجي، والخيالي الذي يريدون أن يتموضعوا ضمنه، هذا الفضاء المطروح في أفق الدراسة، هو المسرح، والمكان اللذان تتوضح بهما بطريقة مزخرفة، أي بمساعدة الصور، الكيفية التي ينظر وفقها المجتمع إلى نفسه ويتأمل فيها، وكذلك الكيفية التي يفكر بها الآخر ويحلم به"³.

وقد عرّفها فاطمة كاظم على أنها: " تتشكل في ذهن الإنسان عن الآخر وترتبط بالمصالح المختلفة وزمن الاتصال وكيفيته ومداه وهذه الصورة ممكن أن تتغير بمرور السنين و اختلاف الظروف "⁴ وفي تعريف آخر ترى بأنها تعرف مكانة كل أمة لدى غيرها من الأمم، وبها ترى صورتها في مرآة آداب الشعوب الأخرى"⁵ والصورولوجيا في أبسط معانيها عبارة عن "دراسة صورة الأجنبي في أثر أو أدب ما"، فهي تعد اتصالا ثقافيا مفتوحا أو تناظرا بين الشعوب "⁶.

فعلم الصورة يحمل في طياته العديد من القضايا المهمة كصورة الأنا والآخر والصورة التاريخية وغيرها، فمن خلال هذا العلم ترسم لنا صورة الآخر بارتباطها مع الذات.

1 علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985م، ص 137 .

2 حمود، ماجدة: مقاربة تطبيقية في الأدب المقارن، منشورت اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 110 .

3 باجو، دانييل هنري: الأدب العام المقارن، ترجمة: غسان السيد، ص 93 .

4 زادة، فاطمة كاظم: صورة الآخر في رواية قبل الرحيل ليوسف جاد الحق، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، جامعة دمشق، العدد 20، 2013، ص 75.

5 المرجع نفسه، ص 75 .

6 الرمادي، أبو المعاطي خيري: صورولوجيا الآخر في الرحلة اليابانية، مجلة آداب البصرة، العدد 88، 2019م، ص 7.

2. مفهوم الذات

ورد في معجم التعريفات للجرجاني: "ذات الشيء نفسه و عينه... و الفرق بين الذات والشخص أن الذات أهم من الشخص ؛ لأن الذات تطلق على الجسم وغيره والشخص لا يطلق إلا على الجسم"¹.

أما مفهوم الذات في المعجم الأدبي الحديث ورد بمعنى: "ذات: طبيعة خاصة وضرورية تجعل من شيء هو نفسه أو مجموعة الخصائص المكونة له"².

أما مصطلح الذات فيصعب تحديد مفهوم دقيق له على اعتبار أنه يتغير في كل مرة بحسب السياق الذي يرد فيه ؛ فمفهومه يختلف باختلاف العلوم الإنسانية التي أولت اهتماماً واسعاً بهذا المصطلح وبحثت فيما يتعلق به من جزئيات، ومايهما في بحثنا هو مفهوم الذات في الأدب.

تتمثل الذات في الأدب حسب أحمد مكرم: "في كفاءة المتلفظ على أن يتنزل في خطابه ذاتاً"³، فالأدب بالنسبة للكاتب وسيلة للتعبير عن ذاته ؛ وفي هذا يقول رولان بارث متحدثاً عن القصة التي هي جنس أدبي يعبر به الكاتب عن ذاته وعن مجتمعه فيرى أن القصة هي واجهة المجتمع فما يكتب فيها يصور وينقل أدق سمات المجتمع فهي اللوحة الناطقة التي يرى فيها الإنسان انعقاد ذاته وتحررها من سجن رؤيتها الفردية الضيقة، وكذلك تعتبر مثلاً حياً لانفتاح "الأنا" فناً ودخولها إبداعاً في حوار مع "الأنت" الذي يمثل الآخر مهما كان هذا الآخر..."⁴.

ويرى جبور عبد النور: "اكتمال الخصائص الإنسانية العامة والفردية في الفنان أو الأديب، وبروزها بوضوح وتعبير متميز من خلال الآثار التي يبدعها ولا يتحقق الأمر إلا بالغوص في الأعماق، واكتشاف ما فيها من كنوز عبقرية وعرضها فنيا"⁵.

1 الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، ترجمة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة- القاهرة، 2004، ص 93.

2 عبدالنور، جبور: المعجم الأدبي، ط2، دار الملايين، بيروت - لبنان، 1984، ص 116 .

3 حيزم، أحمد: في مسألة الذات وأحوالها في ديوان البحترى، مجلة كلية الآداب قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة الملك سعود - السعودية، العدد 9، 2004، ص 3 .

4 بارث، رولان: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة، ترجمة: منذر عياشي، ط1، مركز الإنماء الحضاري، 1993، ص 8.

5 عبدالنور، جبور: المعجم الأدبي، ص 116 .

وهكذا، فإن الأدب هو وسيلة الكاتب للتعبير عن ذاته فهو أداة يكتب من خلالها ليتعرف على ذاته ويصنعها عند كتابته للسيرة الذاتية، وإدًا فالأدب يتمحور حول الذات. و"مفهوم الذات ليس شيئاً موروثاً لدى الإنسان وإنما يتشكل من خلال التفاعل مع البيئة التي يعيش فيها ابتداءً من الطفولة و عبر مراحل النمو المختلفة كما أن الوعي بالذات يبدأ ضيقاً عند بداية حياته وينمو ويتطور باتساع البيئة التي يتعامل بها ومن خلال الخبرات الجزئية والمواقف التي يمرُّ بها الفرد أثناء محاولة التكيف مع البيئة المحيطة به"¹.

وإن الذات بالنسبة لأصحاب النظرية السلوكية عبارة عن: "بنية معرفية يستطيع الإنسان بواسطتها تكوين معلومات عن ذاته و ينظمها في مفاهيم و نماذج خاصة "²، فالذات تمثل هنا عملية اجتماعية تبين العلاقة التفاعلية بينها وبين المفاهيم والمعلومات المختلفة الموجودة في نطاق المجتمع.

أما وليام جيمس فيرى " أن الإنسان له من الذوات بقدر عدد الذين يعرفونه من الناس، فله ذات معينة لزوجته وذات أخرى لأولاده، وذات ثالثة لزميله في العمل وذات رابعة لربه "³ إذ إن الذات لها مسميات عدة كلٍ حسب منظوره فلا يجمعها مفهوم واحد إلا أن الجميع يعتبر الأنا هي الذات وما تحمله من مظاهر وخصائص ثقافية أو نفسية أو أيديولوجية وما تشمل عليه من أفكار وآمال وطموحات وصراعات وتوترات "⁴.

فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: "أن للعرب في (أنا) لغات، وأجودها أنك إذا وقفت عليها قلت: أنا بوزن غنا، وإذا مضيت عليها قلت: أن فعلت، وذلك بوزن عن فعلت، ومن العرب من يقول أنا فعلت ذلك، فيثبت الألف في الوصل ولا ينون، ومنهم من يسكن النون وهي قليلة، و(قضاة) تمد الألف أنا قلته....، وأنا اسم مكنى وهو للمتكلم وحده وإنما يبنى على الفتح فرقاً بينه وبين أن التي هي حرف ناصب الفعل، أما الألف

1 الطاهر، قحطان أحمد: مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، ط 1، دار وائل، الأردن، 2004، ص 47 .

2 أيفوركون: البحث عن الذات "دراسة في شخصية ودواعي الذات"، ترجمة: غسان نصر، دمشق، سوريا، ص 25 .

3 الطاهر، قحطان أحمد: مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، ص 17 .

4 الذويخ، سعد: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي إلى حتى نهاية العصر العباسي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2009، ص 7 .

الأخيرة، إنما هي لبيان الحركة في الوقف فإن توسطت الكلام سقطت إلا في لغة رديئة كقوله: أنا سيف العشيرة فاعرفوني"¹. أما في معجم الوسيط فقد ورد حول (أنا) " أنه يفيد الرفع بصفته ضمير " ².

وكما نعلم فإن (الأنا) في الجانب النحوي عبارة عن ضمير رفع منفصل وهي من ضمائر المتكلم، وقد قال سليمان: أن "الأنا في المعجم العربي هو ضمير متكلم قائم بذاته ولذاته، لا ينافيه أو يشاركه في ذاتيته وبصفته، فهو مستقل من غيره وإن كان منتجاً له ونتاجاً من علاقته به، والأنا في هذه الحالة متقلص في مساحته، مسكون بنزعتة الفردية، وقابع في مكانه و زمانه "³.

وقد جاءت الأنا في المعاجم الغربية الحديثة بمعنى self (إ) باللغة الإنجليزية، "وأن الأصل اللاتيني هو Ego التي تفيد معنى الذات Essence في ترجمتها الفرنسية"⁴.

وعرف لالاند (الأنا) في موسوعته الفلسفية على أنها: "وعي فردي، بوصفه منشغلاً بمصالحه ومنحازاً لذاته"⁵، وأنها أيضاً: "الميل إلى إرجاع كل شيء إلى الذات"⁶، ويستشهد لالاند بعبارة للفيلسوف العالم الفرنسي (بليز باسكال) يقول فيها: "لأنا خاصيتان، فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث إنه يجعل من نفسه مركزاً لكل شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث إنه يريد استعبادهم، ذلك لأن كل "أنا" هو عدو، ويريد أن يكون المسيطر على الكل " ⁷.

1 ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994م: مج1، ص258، مادة (أنا) أنى).

2 الزيات، إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية): معجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، 2008م، ص28
3 السليمانى، أحمد ياسين: التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ط 1، دار الزمان، دمشق، سوريا، 2009، ص 104.

4 الطاهر، قائد: اصطلاحات فلسفية، عربي فرنسي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1993، ص18.

5 لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط 2، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ص373.

6 المرجع نفسه، ص373.

7 المرجع نفسه، ص373.

والجدير بالذكر أن الأنا عُرِّفت وفقًا للعلوم المختلفة، فالأنا في علم النفس يختلف مفهومها عن الأنا في علم الاجتماع وهكذا.. فنلاحظ أنه يختلف مفهوم الأنا - الذات - باختلاف المفكرين، فمفهوم "الأنا" مبني على السيطرة، سيطرة الذات على ما تتخذه موضوعًا لها، وهذا يرتبط بعلاقتها بالآخر، و عبّر عن الأنا أيضًا على أنها: " مركز الشخصية في نفس الفرد الإنسان، فهي تنمو و تفصح عن قدراتها من خلال البيئة المحيطة، أو الوسط الاجتماعي و يبرز الشعور بالأنا من خلال تلازم الذات مع الآخر " ¹، وقيل عنها أيضًا إنها: "كون الشيء هو هو أين عين نفسه" ²، و قد أشار الفيلسوف الفرنسي ديكارت إلى الأنا بقوله الشهير: أنا أفكر إذا أنا موجود، فقد ربط الأنا بالفكر الذي يسبق الوجود.

3. مفهوم الآخر:

ذكر ابن منظور في معجم لسان العرب أن الآخر " أحد الشيئين وهو اسم على أفعل، والآخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر وثوب آخر، وأصله أفعل من التأخر، فلما اجتمعت همزتان في حرف واحد استثقلت فأبدلت الثانية ألفا لسكوتهما وانفتاح الأولى قبلها، وتصغير (آخر) أويخر، والجمع آخرون، ويقال هذا آخر وهذه أخرى في التذكير والتأنيث" ³.

وفي معجم الوسيط: (الآخر): "تأخر، والشيء جعله بعد موضوع هو الميعاد أجله (تأخر) عنه جاء بعده، وتقهر عنه ولم يصل إليه، والآخر أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد" ⁴.

أما في قاموس محيط المحيط: " فالآخر في الأصل الأشد تأخرًا في الذكر ثم أجري مجرى غير، وممدول الآخر في اللغة خاص بجنس ما تقدمه فلو قلت، وقوله جاءني رجل وآخر معه لم يكن الآخر إلا من

1 الذويخ، سعد: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي إلى حتى نهاية العصر العباسي، ص 10 .

2 الجابري، محمد العابد: الإسلام و الغرب الأنا و الآخر، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009، ص 21.

3 ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، ج 4، ص12، مادة (آخر) .

4 إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية): معجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، 2008 م، ص 9.

جنس ما قلته بخلاف غير فإنها تقع على المغايرة مطلقاً في جنس أو صفة... و قولهم جاءني في أخريات الناس وخرج في أوليات الليل يعنون به: الأواخر والأوائل من غير نظرٍ إلى معنى الصفة.¹

وقد جاءت لفظة آخر في القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَأَخْرَجَ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِادَتِهِمَا)².

وفي المعجم الغربي تأتي فيما لفظة الآخر "بمعنى غير وهي Autre إذ أنها لاتينية الأصل ويقال للناس الآخرون les autres³ وبالإنجليزية Other .

أما اصطلاحاً فالآخر يتمثل بنقيض الذات، فالإنسان بطبيعة حاله يتواصل مع الآخر ليلازم ذات الإنسان ولا ينفصل عنه كون المجتمع يصف الآخر بشتى أطيافه، فالآخر يختلف مع الذات في المعتقدات و المبادئ والأفكار و.. إلخ، إلا أن الذات تكشف عن نفسها بالاستعانة بالآخر، فهو يكون ملجأً للتعرف عن الذات.

وقد عبّر عن الآخر " بالتكوين الثقافي والجغرافي والإنساني عموماً المغاير للغرب، و المسمى الشرق"⁴، كما وصف ابن خلدون أن الإنسان اجتماعي بطبعه و لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين كونه يتفاعل مع الآخر ليستمر في وجود ذاته. فإذا لابد من وجود الآخر لكي تستمر الذات. و الجدير بالذكر أن الآخر له مستويات عدة تحدده مثل الجنس، والعرق، والدين، واللغة، فهذا الاختلاف ينتج عن معرفة كل منهما، فهو يدفع الذات لاكتشاف نفسها نتيجة الاختلاف إذ إنه بمثابة مرآة تعكس نفسها ليتم اكتشاف النفس الذاتية.

فيذهب بول ريكور إلى مطابقة الذات بالآخر حيث أن " الذات عينها كآخر تحتوي ضمناً الغيرية إلى درجة حميمة، حتى أنه لا يعود من الممكن التفكير في الواحدة دون الأخرى.. و لقد أردنا حين استعملنا الكاف

1 البستاني بطرس: محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، ج1، ص 172.

2 القرآن الكريم: سورة المائدة، الآية 107 .

3 ياسين، عطوف محمود: قاموس مصطلحات علم النفس، ط 1، مؤسسة نوفل، لبنان، 1981، ص 108 .

4 البازغي، سعد: استقبال الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2004، ص 34 .

في كآخر التأكيد على الدلالة الأقوى، إذ لم نشأ فقط أن نقيم مقارنة - الذات عينها شبيهة بالآخر - بل أردنا التضمين: الذات عينها بما هي آخر¹ فعلاقة الذات بالآخر علاقة متصلة.

"فيتم وصف الأنا والآخر في مرآة الحياة الاجتماعية لرؤية الصور المتشابهة أو المختلفة لكليهما، وأحياناً يظهر التقابل صراحة، وأحياناً يتم وصف الآخر وحده دون ذكر الصورة المقابلة للأنا، ولكن يمكن رؤيتها ضمناً عن طريق القلب والعكس، فالآخر هو المعلن عنه والأنا هو المسكوت عنه ونادراً ما يحدث العكس، وهو تصوير الأنا ثم فهم الآخر ضمناً عن طريق قلب الصورة.."² وهكذا عندما يتم الكشف عن وصف صورة الذات والآخر، وماهية كل منهما وعلاقتهم ببعضها البعض.

4. السيرة الذاتية:

تعد السيرة من الأجناس المهمة في اللغة والأدب، فقد تعددت مفاهيمها وتنوعت، أورد ابن منظور في معجم لسان العرب: أصل معاني السيرة في اللغة: "السير: الذهاب، سار يسير سيراً و مسيراً و تسياراً ومسيرة وسيرورة... والتسيار تفعال من السير وسايره أي جاره فتسايرا وبينهما مسيرة يوم وسيره من بلده: أخرجه وأجله وسيرت الجل عن ظهر الدابة: نزعه عنه والسيرة: الضرب من السير، والسيرة: الكثير السير هذه عن ابن جني. والسيرة: السنة، والطريقة يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز: "سنعيدها سيرتها الأولى"³، وسير سيرة: حدث أحاديث الأوائل⁴ وجاء في القاموس المحيط: "السير: الذهاب كالمسير والتسيار والمسيرة والسيورة والسيرة: الضرب من السير، والسيرة بالكسر: السنة والطريقة والميزة والهيئة والسيرة بالفتح: الذي يقد من الجلد.. وجمعها سيور"⁵.

1 ريكور، بول: الذات عينها كآخر، ترجمة: جورج زيناتي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نوفمبر 2005، ص 72 .

2 لبیب، الطاهر: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999 م، ص 292 .

3 القرآن الكريم، سورة طه الآية 21.

4 ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994م، ج 4، ص 389 - 390، مادة (سير).

5 آبادي، الفيروز: القاموس المحيط، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، ص 870، مادة (سير).

أما اصطلاحاً فقد كثرت المفاهيم حولها فقد قيل إنها "عبارة عن ترجمة تأويلية لذات الكاتب إلى العالم الخارجي المحيط به"¹، وقد عرّف محمد عبد الغني حسن السيرة الذاتية بكونها أن " يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وأثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث"². ووصف صالح الغامدي السيرة الذاتية باعتبارها كتابة عن الذات وقد عرّفها على أنها "كلّ تعريف جديد ومختلف للسيرة الذاتية، لا بدّ أن يكون نتيجة لكتابة سيرة جديدة، وليس نتيجة لتطبيق مقارنة جديدة"³.

والتعريف الأدبي للسيرة الذاتية، "أنها نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والاتباع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"⁴ والسيرة في تعريفها العام "بحث يستعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، مبرزاً من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرة حياته أو حياة المتحدث عنه"⁵.

وقد تتداخل السيرة بالرواية عند بعضهم فد قيل في تعريف الرواية إنها " عبارة عن نص نثري تخيلي، واقعي غالباً يدور حول شخصيات متورطة في حدث مهم وهي تمثيل للحياة و التجربة و اكتساب المعرفة، فالرواية تصور الشخصيات ووظائفها داخل النص وعلاقاتها فيما بينها وسعيها إلى غايتها، وتكتب دراسة الرواية على جملة من العناصر الأساسية التي تقوم عليها بنية الصيغ الفني ودلالاته، وهي اللغة و السرد و الكتابة و الصوت و الشخصية و الزمن، والبنية و المتخيل "⁶.

1 جحيش، يامنة: مسار تطور رواية الأتوبيوغرافية في العالم العربي، ندوة علمية الوطنية الثانية الرواية الجزائرية و الكتابة السير ذاتية 11 مارس 2019 – جامعة محمد بوضياف المسيلة، ص 3 .

2 حسن، محمد عبد الغني: التراجم والسير، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1980 م، ص 28 .

3 الغامدي، صالح معيض: كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2013م، ص 13.

4 شرف، عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1992، ص 42.

5 عبد النور جبور: المعجم الأدبي، ص 143 .

6 زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ص 98-99 .

وعلى خلفية التاريخ الأدبي لكل من الرواية والسيرة حدد جورج ماي "علاقات التداخل والتخارج بين هذين النوعين فذهب إلى أن السيرة قد استثمرت أساليب السرد التي أشاعتها الرواية، ولكن الرواية قد استثمرت بدرجة واضحة السرد المباشر الذي يعتمد على ضمير المتكلم وهو أسلوب ظهرت بذوره في المذكرات، وسرعان ما دفعت به الرواية إلى مركز الاهتمام وأصبح جاهزاً لأن يعاد استخدامه وبتنوع شديد الثراء في السيرة وهنا يلاحظ عمق الاقتباس والملاحقة لكن الأمر لا يقتصر على ذلك فالرواية والسيرة ربطهما جامع مشترك آخر وهو أن فصيلة كاملة من الروايات قد حذت حذو السيرة في أن أحداثها تتمركز حول شخصية والاختلاف فيما إذا كانت الشخصية حقيقية أو خيالية أو شخصية الكاتب أو غيره يبدو أقل أهمية فيما لو تم الأخذ بالاعتبار الخصائص النوعية لكل منها"¹.

والجدير بالذكر أن السيرة و الرواية كلاهما جنسان أدبيان، فتتداخل الرواية مع السيرة وتصل إلى حد الالتباس، فتتداخل الرواية من حيث البناء الفني مع السيرة وبالأخص السيرة الذاتية و قد أضيفت كلمة الذاتية ليتم تفريقها عن السير الأخرى،"فما يفرق بين السيرة و السيرة الذاتية عدة أمور وليس إضافة كلمة الذاتية وحسب و إنما أيضا دور الموت فلا تنتهي السيرة الذاتية بموت الشخصية، و دور الذاكرة فمؤلف السيرة الذاتية مدار عمله على مواد ذاتية أساساً وهي ذكرياته الخاصة، ودور ترتيب المادة عند عرضها فيمكن الفارق في النسق الذي ينظم تلك الوقائع في ذهن المؤلف، فمؤلف السيرة الذاتية يقطع مسار الزمن عكسياً فينطلق من حاضر التدوين ليبلغ ماضي التجربة الذي ينبغي أن يكون موضوع ذلك التدوين"²، فالمقصود بالذاتية هي ذات الإنسان نفسه، كما أن هناك كتابات أخرى قد تندرج تحت السيرة الذاتية كاليوميات والمذكرات وغيرها، فالبعض التبس عليه التفریق بين مصطلحها ومصطلح السيرة.

" فما يميز موقفنا عند قراءة سيرة ذاتية عن موقفنا عندما نقرأ رواية ليس كون الأولى حقيقية و الثانية خيالية، و إنما كون الأولى تظهر لنا في لبوس الحقيقة و الثانية في لبوس الخيال، إن الصلة التي يعقدها المؤلف بين أثره وبين قارئ هذا الأثر تختلف اختلافاً جوهرياً في السيرة الذاتية عنها في الرواية"³.

1 إبراهيم، عبدالله: السرد والاعتراف والهوية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 2011م، ص 176

2 ماي، جورج: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي، عبدالله صولة، رؤية للنشر و التوزيع 2017، ص246، 250

3 المرجع نفسه، ص 272 .

وعندما نريد أن نعرف السيرة الذاتية على وجه الخصوص نرى أن السيرة الذاتية جعل لها فيليب لوجون حدًا عبارة عن: "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة " ¹.

ويعرض هذا الحد "عناصر تنتمي إلى أربعة اصناف مختلفة:

1. شكل اللغة: حكي / نثري.
2. الموضوع المطروق: حياة فردية، و تاريخ شخصية معينة.
3. وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) و السارد.
4. وضعية السارد: وتكمن في تطابق السارد و الشخصية الرئيسية / منظور استعادي للحكي ².

"ولفظة السيرة الذاتية اشتملت على تعددية في المعنى، فالمعنى الأول هو الذي يقترحه لاروس عام 1866 وهو (حياة فرد ما مكتوبة من طرفه) معارضًا السير الذاتية التي هي نوع من الاعتراف مع المذكرات التي تروي أحداثًا يمكن أن تكون غريبة عن السارد " ³.

والمعنى الثاني هو " الذي يحدد السيرة الذاتية باعتبارها كل نص يبدو أن مؤلفه يعبر فيه عن حياته و إحساساته مهما كانت طبيعة العقد المقترح من طرف المؤلف " ⁴، وقد قال أيضا " تترك السيرة الذاتية مكانا واسعا للاستيهام ومن يكتبها ليس ملزما البتة بأن يكون دقيقًا حول الأحداث كما هو الشأن في المذكرات أو أن يقول الحقيقة المطلقة كما هو الشأن في الاعترافات " ⁵.

ويعد نجاح مصطلح سيرة ذاتية مرتبطًا بالتوتر بينهما وبالغموض والتردد الذي تسمح به الكلمة بالإضافة إلى الفضاء الجديد للقراءة والتأويل الذي تجعله هذه الأخيرة ممكنًا والاستراتيجيات الجديدة للكتابة

1 لوجون، فيليب: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، ط1، المركز الثقافي العربي 1994م، ص 22

2 المرجع نفسه، ص 10 - 11

3 المرجع نفسه، ص 10-11

4 المرجع نفسه، ص 10-11

5 المرجع نفسه، ص 11

التي تسمى بها"¹ فالسيرة الذاتية تقترح اتفاقاً مع المسرود له، تحت القارئ الواقعي على الدخول في اللعبة، وتعطي انطباعاً بوجود اتفاق موقع عليه بين الطرفين، غير أن ذلك لا يمنع القارئ الواقعي من اختيار صيغ قراءة مختلفة عن الصيغ المقترحة عليه، فضلاً عن أن كثيراً من النصوص المنشورة لا تحتوي أية إشارة إلى أي عقد صريح "².

وقد اعتمد فيليب لوجون على "ميثاق السير ذاتي في النصوص فيعتبر مصطلح رواية مرادفاً للتخييل في مقابل اللاتخييل و المرجعية الواقعية، و الحال أن رواية تعني أيضاً الأدب و الكتابة الأدبية في مقابل سطحية الوثيقة ودرجة الصفر للشهادة، فلفظة رواية ليست أحادية المعنى أكثر من كلمة سيرة ذاتية الذي تتضاف إليه ظواهر أخرى قيمة قدحية (الرواية خلق وإبداع /السيرة الذاتية سطحية المعيش) أو تحسينية (الرواية لذة الحكي المكتوب المحكم / السيرة الذاتية صدق المعيش و عمقه) مما لا يزيد الأمر إلا تعقيداً و لبساً"³.

كما أن " جورج ماي قد صاغ نسق العلاقات الجامع بين الرواية و السيرة الذاتية استناداً إلى درجة حضور أو غياب التجارب الحقيقية في النصوص وافترض وجود سلم من الألوان المعبرة رمزياً عن تلك العلاقات سلم تتدرج فيه الألوان من البنفسجي إلى الأحمر "⁴، وقد وضع "سلاًماً يجمع الروايات إلى السير الذاتية فقد وضع في الرقعة البنفسجية الروايات التي يكون فيها حضور شخصية الأديب حضوراً ضعيفاً جداً، وفي الرقعة الثانية ذات اللون النيلي الروايات الشخصية أو السيرية التي مدارها على تطور شخصية رئيسية ولكن هذه الشخصية الرئيسية بعيدة عن شخصية المؤلف بعداً يمنعنا من أن نعتبرها صورة منه. وفي الرقعة الثالثة ذات اللون الأزرق يمكن أن نضع الروايات السير ذاتية المكتوبة بضمير الغائب ومدارها على شخصية رئيسية. وفي الرقعة الرابعة ذات اللون الأخضر يمكن أن نضع الرواية السير ذاتية المكتوبة بضمير المتكلم، فهي تعتمد على القص بضمير المتكلم، وفي الرقعة الخامسة ذات اللون الأصفر فيمكن أن نسميها بالسيرة الذاتية الروائية وهي خلافاً للرواية السير ذاتية لا تنتسب إلى الرواية و إنما تنتسب إلى السيرة الذاتية و إن شابها شيء من الخيال كثير، و أما الرقعة السادسة ذات اللون البرتقالي فنميل إلى تسميها برقعة السيرة الذاتية التي يستخدم

1 لوجون، فيليب: السيرة الذاتية الميثاق و التاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، ص11.

2 المرجع نفسه، ص12.

3 المرجع نفسه، ص 11-12 .

4 إبراهيم، عبدالله: السرد والاعتراف والهوية، ص 176 .

مؤلفها اسماً مستعاراً، فإن أهم ما يميز السيرة الذاتية ذات الاسم المستعار من الرواية السير ذاتية إنما هو أساساً تصريح المؤلف في الأولى بأنها سيرة ذاتية في الثانية بأنها رواية والفيصل بينهما هو إيراد المؤلف أو عدم إيراده. أما الرقعة السابعة والأخيرة فهي ذات اللون الأحمر وهي مستقر السيرة الذاتية إذ أن الأسماء الواردة فيها أسماء حقيقية¹. وقد ذكر أيضاً أن البطل الروائي و البطل السيرة الذاتية يسلمان إلى "أن الشخصية موجودة يشهد بذلك وجود المؤلف نفسه"².

ويضع " أدب الاعتراف -ومثاله الأكثر وضوحاً السيرة الذاتية و السيرة الروائية و الرواية التي تستفيد من التجارب الذاتية للمؤلف -الكاتب أمام المسؤولية المباشرة لصناع الرأي العام، لأن الاعتراف بذاته يقع في المنطقة المتوترة بين رغبة الجمهور في براءة المشاهير ورغبة هؤلاء في التطهر مما لحق بهم من أخطاء اقترفوها عن قصد أو غير قصد خلال حياتهم."³ والسيرة الروائية هي "نوع من السرد الذي يتقابل فيه الراوي و الروائي و يندرجان معا في تداخل مستمر يكون الروائي مصدراً لتخيلات الراوي، فالكيان الجسدي و النفسي و الذهني للروائي يشرح و يعاد تركيبه فتشحن التجربة الذاتية بالتخيل، فينزع عن الهوية السردية شرط المطابقة مع المرجعيات الخارجية فإن السيرة الروائية هي سرد ذاتي مباشر، حتى لو استعان الراوي بالصيغ الموضوعية"⁴.

يتبين من هذا أن أدب السيرة الذاتية هو نوع سردي عالمي وقديم أيضاً فهو عبارة عن ترجمة للنفس كما صاغها العلماء مثلث نوعاً سردياً متنوعاً في حقيقة الأمر تضمنت أشكالا كثيرة و أساليب عدة، فعندما يسرد المرء حياته عليه أن يختار ما هو الأجدر والأهم في حياته؛ لذلك نظر بعض النقاد إلى أدب السيرة الذاتية أو أدب المكاشفة أو تعرية الذات بوصفها سرديات انتقائية.

5. الرحلة:

1 ماي، جورج: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي، عبدالله صولة، ص 283-290 .

2 المرجع نفسه ص 273.

3 إبراهيم، عبدالله: السرد و الاعتراف و الهوية، ص 6 .

4 المرجع نفسه، ص 173

احتل أدب الرحلة مكانة في السرد الأدبي القديم، و تزايد الاهتمام بأدب الرحلة في العصر الحديث حيث كانت الرحلة تعبر عن النسق الثقافي للشعوب الذي يذهب إليها الرحال، مسلطاً الضوء على جغرافية البلاد وتاريخ الشعوب وحضاراتهم، موثقاً حياتهم من عادات اجتماعية، وعقائد دينية، وقيماً معرفية، واصفاً إياها بشكلٍ واقعي في نقل كل مشاهد الأسفار الذي سافر إليها.

فالرحلة لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور أنَّ الرحلة " اسم للارتحال للمسير. يقال: دنت رحلتنا. ورحل فلان وارتحل وترحل.... " ¹ وقد عرفها البستاني في معجم محيط المحيط على أنها: "رحل عن البلد يرحل رحلاً، و الرحلة النوع من الرحيل يقال رحل فلان رحلة من لا يعود، و عند المولدين قصة يكتبها المسافر عما جرى له و ما رأى في سفره " ².

والرحلة اصطلاحاً: هي الانتقال من المكان الأصلي إلى أمكنة أخرى لأهداف معينة و في أزمدة مؤقتة وقد عبّر عنها الدكتور فؤاد قنديل على أنها "سلوك إنساني حضاري يأتي ثماره النافعة على الفرد و على الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها، فهي اليد التي تمتد لتقرب شعوباً تتأدت عن شعوب و أقواماً إلى أقوام تفصل بينها البحار القفار" ³ فالرحلة قد يرحل فرد و قد يرحل جماعة و لكن كل منهم بعد أن يعايشه ويشاهده في الأمكنة التي يرحل إليها تتغير وجهة نظره و يتسع نطاق معارفه ومفاهيمه ويتعرف على عادات و تقاليد أخرى.

ويرى عبد الله حمادي بقوله: " أن الرحلة سواء كانت برية أو بحرية أو كانت من إنجازٍ فردي أو جماعي تعتبر محاولة لاختراق حاجز المسافات و إسقاط الفاصل الجغرافي بين المكان والزمان " ⁴.

1 ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، ج 11، ص279، مادة (رحل) .

2 البستاني، بطرس: محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، مج 2، ص227.

3 قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002، ص 21 – 22 .

4 حمادي، عبد الله: أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، قسنطينة، 2001، ص108 .

ويرى شعيب حليفي أن الرحلة " فن ينتسب إلى التراث النثري بشكل عام باعتباره سرًا ووصفًا يعمدان إلى صياغة مشاهد رؤيوية أو مروية أو حلمية تتحدر من ذاكرة - في بعض الحالات - ذات جذور في الواقع المادي " ¹.

وعند التحدث عن الرحلة بوصفها أدبًا فقد قال عنها فواز الشعار إنها عبارة عن "أدب يقوم على السرد القصصي، يضمّنه الكاتب الرحالة مشاهداته وانطباعاته في البلاد التي يزورها، وهي تقوم على وصف الطبيعة الجغرافية أو نبذًا عن التاريخ، أو عادات الناس، وتقاليدهم وأنماط عيشهم، وتفكيرهم. وهذه الأمور تكون في بعض الأحيان مرجعا وثائقيا هامًا وموضوعًا للدراسات المقارنة في مختلف المجالات الفكرية الأدبية والحياتية" ². ومن شروط أدب الرحلات "دقة الملاحظة، وتحري الحقيقة وسهولة الرواية وحسن الوصف" ³.

1 حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس آليات الكتابة، خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، عدد 121، 2002 م، ص 39 .

2 الشعار، فواز: الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1999، ص 197.

3 المرجع نفسه، ص 197.

الفصل الأول

(حياة نقولا زيادة: ما كتبه عن نفسه وما كتبه الآخرون عنه)

- ملخص حياته:

أصوله، نشأته. تعليمه. أعماله. وفاته.

- نقولا زيادة في مرايا الآخرين.

○ ملخص حياته

أصوله، نشأته، تعليمه، أعماله، رحلاته، وفاته.

- أصوله:

نقولا زيادة هو نقولا بن عبده بن عبد الله بن حنّا بن خليل بن حنّا بن زيادة، وُلد لأبوين مسيحيين من بلدة الناصرة (شماليّ فلسطين)، حيث تعود أصول أجداده إلى السلط في الأردن، إذ إنّ سبعةً من أجداده لوالده سكنوا في الناصرة، وعند الحديث عن أصوله من جدته لأبيه التي تدعى "وردة الكردوش"، يوضح نقولا أنّ أصل هذه الأسرة يعود إلى عشيرة الكرادشة في الأردن، أمّا والدته فتعود إلى عائلة الريحاني واسمها ليا بنت عبد الله أسعد شرش ريحاني، وعائلة "شرش" هي عائلة كبيرة في الناصرة، فجده لأمّه عبد الله قد وُلد في الناصرة بعد أن هاجر إليها أبوه من الحصن في الأردن، وهي مقر الرياحنة العشيرة التي ينتسب إليها، وجدته لأمّه من أسرة الحّدّاد، حورانية الأصل واسمها "وردة". إذن فجده لأبيه وأمه يدعيان "عبد الله"، وجدته لأبيه وأمه تدعيان "وردة". وقد وُلد في دمشق في الثاني من كانون الأول/ديسمبر سنة 1907 م، عند الساعة السادسة والرّبع صباحًا، في بيت نقولا الشاوي في باب مصلى في الحي الشرقي من الميدان التحتاني، ولذا فإنه يُعدُّ نفسه دمشقيًا من هذه الناحية بسبب ولادته في دمشق، وقد سمّي بهذا الاسم نسبةً لصاحب البيت الذي وُلد فيه وقد كان صديقًا لوالده، كما أنّ مولده كان قريبًا من عيد مار نقولا في 6 كانون الأول/ديسمبر، وقد أرّخ والده سنوات ولادته وولادة إخوته في نسخة من الإنجيل على عادة الأسر المسيحية في الناصرة آنذاك، فكتب أنّ ولادة نقولا زيادة كانت في بيت نقولا الشاوي في دمشق في الثاني من ديسمبر 1907 م، ولديه أخت واحدة تدعى ماري، وثلاثة إخوة هم: قسطنطين، وألفرد، وجورج. إلّا أنّ أخاه قسطنطين قد وافاه الأجل عام 1911 م، وبعد وفاته انتقلت الأسرة من باب مصلى في دمشق إلى بيوت مؤسسة سكة حديد الحجاز. أما عن أخويه الآخرين فقد وُلد ألفرد في عام 1913 م وجورج في عام 1915 م وهو الأخ الأصغر، أما أخته ماري فقد ولدت عام 1908 م، ونقولا أكبر منها بنحو عدة أشهر فقط¹.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ط1، هزار بابلشنغ لمتد، لندن بالتعاون مع الأهلوية للنشر والتوزيع، بيروت، 1992،

ج1، ص 11-25 .

- زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 23-57.

- نشأته:

نشأ نقولا زيادة وترعرع في كنف والديه، فقد كان والده يعمل مساعد مهندس في سكة حديد الحجاز وكان مقرّها في دمشق، وبعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى جُنِّدَ والدُه للقتال في الجيش العثماني، وأثناء مكوثه في أحد مراكز تجميع الجنود في انتظار إرسالهم إلى جبهات القتال، أصابه المرض وتوفي قبل أن يذهب. والجدير بالذكر أن والده عاش يتيمًا¹، وأعاد الزمان نفسه عندما أصبح نقولا زيادة يتيمًا هو الآخر، فقد عانى هذا الطفل ما يعانيه الكبار، حيث إنه تعب كثيرًا في البحث عن والده بين أزقة المستشفيات وجثث الموتى على الرغم من صغر سنّه، وقد شكّل ذلك انطباعًا أوليًا في ذهنه عن صورة الآخر المتسبب في وفاة والده.

بعد وفاة والده بمدة قصيرة عاشت الأسرة أزمة مالية، حيث لم تكن تملك سوى ليرة عثمانية ذهبية واحدة، فاضطرت الأم أن تبيع أثاث البيت لكي توفر قوت الأسرة، وقد أعان الأسرة على ذلك خاله، عن طريق بطريك أنطاكية. بعدها عادت الأسرة إلى الناصرة عام 1916 م، وقد اجتمعت أسرة والدته على أن تعاون الأم "ليا" في إعالة الأسرة لكونها تعاني من مرض التيفوس، وذلك عن طريق كفالة كل فرد من أفراد العائلة لأحد الإخوة، أما نقولا فقد كفل خاله رعايته وذهب معه حيث يسكن. بعدها توفيت خالته، وما لبث أن قُتل خاله في انفجار قنبلة ألقتها طائرة بريطانية، فاضطرت أمه للبحث عن العمل لإعالة العائلة لوحدها مرة أخرى على الرغم من مرضها بعد أن توفي اثنان من أفراد عائلتها، من الذين يُعيلون الأسرة، فوجدت عملاً في جنين بفضل لطيفة ابنة عم زوجها، والد نقولا، فانتقلت الأسرة إلى العيش هناك، وقد تولّت الأم رعاية الأبناء².

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص11-25 .

2 المرجع نفسه، ج1، ص 30-36 .

والجدير بالذكر أنّ والدته عندما انتقلت إلى نابلس تعرفت على رجل يوناني وتزوجته، وقد قال نقولا زيادة في سيرته: "كان الزواج زواج مصلحة"¹ إلا أنّ الموت الذي لا بدّ منه جاءها بعد مدة من الزمن، فقد توفيت والدته سنة 1925 في نابلس، فتجددت الأحزان على نقولا، فبعد موتها تركت تربية أبنائها، أي إخوته، على عاتقه فاهتم برعايتهم، وعانى مرة أخرى في مواجهة ظروف الحياة. وبالفعل اهتم بأمر رعاية إخوته على أحسن حال إلى أن كبروا وتزوجوا، ثمّ إنّ نقولا زيادة تزوج من مرغريت شهوان، ورزق بولدين منها وهما رائد وباسم².

1 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 80.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 30-36، ص 78 .

- تعليمه:

تلقى نقولا زيادة تعليمه الأولي في مدرسة "الفرير" في دمشق، فكان أول معلميه من الرهبان الذين كانوا يعاملون التلاميذ الصغار بشيء من القسوة، لكنه بعد فترة انتقل إلى مدرسة إنجيلية أخرى تلقى خلالها تعليمه على أيدي معلمات لطيفات، كما أنّ والده كان مهتمًا بتعليمه وقد ساعد ذلك على تعلمه السريع للقراءة والكتابة¹.

ولم يقتصر تعليمه في بدايته على هذا فحسب، بل إنّ زيارة الأهل في الناصرة ساعدت نقولا زيادة أيضًا على الاطلاع والمعرفة، فقد كانت مكتبة خالته هي أحد السبل التي يسّرت له الطريق في التعلّم وتكوين مخزون علمي ساعده آنذاك في تلقي العلم وفهمه بكل يسر وسهولة².

وعند انتقال الأسرة إلى الناصرة بعد وفاة والده التحق نقولا زيادة بالمدرسة "الرسمية الابتدائية" في مدينة طولكرم حيث كان يقطن مع خاله. إلا أنّ الأمر سرعان ما تبدّل، وانتقلت الأسرة إلى مدينة جنين عام 1917م³.

وفي مدينة جنين لم يلتحق نقولا بأي مدرسة لمدة سنتين، لعدم وجود المدارس هناك، حيث استولى الجيش الألماني على المدرسة الوحيدة في البلدة، لكنه عوّض عن ذلك بالقراءة الذاتية والمطالعة، فقرأ العديد من الكتب التي استعارها من جاره، مثل تغريبة بني هلال وسيرة سيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة. وفي عام 1919 م افتتحت مدرسة حكومية في مدينة جنين، هي "مدرسة جنين الابتدائية" فالتحق نقولا بها، وفي عام 1921 م قُبِلَ في "دار المعلمين الابتدائية" في القدس بعد اجتيازه امتحان القبول فالتحق بها وتخرّج فيها⁴.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 18 .

2 المرجع نفسه، ج1، ص36.

3 المرجع نفسه، ج1، ص 32 - 36.

4 المرجع نفسه، ج1، ص 36- 39 .

كان نقولا زيادة يطمح في أن يواصل حلمه في التعليم، وذلك عن طريق دخوله إلى الجامعة، ولكنه بادئ الأمر لم يستطع إكمال ذلك بسبب عنايته بإخوته، وبعد سنوات تحقّق حلمه بعد أن درس لامتحان (Matriculation) بمفرده وحصل على شهادته عام 1927 م، وقد أهّل ذلك إلى مواصلة تعليمه الجامعي، كما أنه تقدّم إلى امتحان الشهادة العليا للمعلمين ونجح فيه عام 1931 م، وقد سنحت له الفرصة في أن يبتعث إلى لندن عام 1935 م، لدراسة التاريخ القديم من قبل إدارة المعارف في فلسطين لإكمال مسيرته التعليمية الجامعية، وخلال فترة دراسته هذه، أمضى تسعة أشهر بين سنتي 1936 و1937 م في ألمانيا بقصد تعلم اللغة الألمانية، كونه ارتأى أنه يجب عليه تعلّم هذه اللّغات وإتقانها عند دراسة التاريخ القديم اليوناني والروماني، فأقام ببرلين فترة قصيرة من الزمن ثم التحق بجامعة ميونيخ ودرس مساقاً في تاريخ العصر الهلنستي، ومساقاً آخر عن الحروب الصليبية ثم سافر في صيف سنة 1938 م إلى مدينة بيزانسون الفرنسية لتعلم اللغة الفرنسية، ولكنه على الرغم من هذا لم يتمكن من إتقان اللغة الفرنسية على أكمل وجه¹.

وقد حصل على درجة البكالوريوس في التاريخ القديم من جامعة لندن عام 1939 م، ثمّ سافر مرة أخرى إلى لندن عام 1947 م ليلتحق بجامعة لندن لدراسة الدكتوراه حيث نال درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بعد حصوله على منحة من المجلس الثقافي البريطاني².

1 -زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 42، ص53، ص 78، ص81، ص 90 -93 .

-زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج2، ص 42-43 .

2 المرجع نفسه، ج2، ص 31-41 .

- أعماله:

عمل زيادة في التعليم في مدينة الناصرة وفي قرية ترشيحا، ثم انتقل إلى مدينة عكا حيث درّس في مدرستها الثانوية بين سنتي 1925 و 1935 م. والجدير بالذكر أنه بعد تعيينه مدرساً في بلدة ترشيحا ومدينة عكا، وعلى الرغم من ميله إلى تعليم الرياضيات، إلا أنه كُلف بتعليم التاريخ والجغرافيا، وكان لذلك تأثير في حياته، حيث اختار التاريخ تخصصاً أكاديمياً عن رغبة شديدة، وتعرّف إلى بعض بعثات التنقيب عن الآثار الأجنبية التي كانت تتقّب في عكا وبيسان، ومزج بين سرد هذه التفاصيل والتحوّلات السياسية والاجتماعية التي عاشتها المنطقة¹.

ومن أعماله أيضاً مشاركته في تأسيس النادي الأرثوذكسي في عكا سنة 1929 م، وقد انتُخب في هيئته التأسيسية، كما بدأ في سنتي 1930 و 1931 م نشر مقالاته الأولى في مجلة "المقتطف"².

إضافة إلى ذلك، شغل نقولاً مناصب أكاديمية عدّة أبرزها: أستاذ شرف في التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكان عضواً في الكثير من الجمعيات التاريخية والثقافية، العربية والدولية. وقد مارَس التدريس أيضاً في بعض الجامعات العربية كجامعة القديس يوسف، والجامعة اللبنانية، والجامعة الأردنية، إضافة إلى أنه حضر الكثير من المؤتمرات العلمية العربية والعالمية، وألقى العديد من المحاضرات والندوات، كما أنه أشرف على العديد من رسائل الماجستير للطلاب³.

إضافة إلى أنه عمل ثماني سنوات في تدريس مادة التاريخ في المدرسة الرشيدية وفي الكلية العربية في القدس (1939-1947 م) بعد أن حصل على البكالوريوس في جامعة لندن، كما أعدّ أحاديث لإذاعة فلسطين في موضوعات متنوعة، ثم صار يُعدّ حديثاً مرّة كلّ أسبوعين لمحطة إذاعة الشرق الأدنى التي أنشئت سنة 1942 م في جنين قبل أن تنتقل إلى يافا⁴.

1 زيادة، نقولاً : أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 94 - 100.

2 المرجع نفسه، ج 1، ص 96 .

3 المرجع نفسه، ج 1، ص 98-100 .

4 المرجع نفسه، ج1، ص 100-124 .

وقد سافر زيادة في عام 1947 م إلى لندن كما ذكرنا آنفاً لإعداد أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي في جامعة لندن. وخلال وجوده في بريطانيا، عُيِّن في عام 1948 م، قارئاً في قسم اللغات الشرقية في جامعة كمبردج، كما صار يعدّ أحاديث للقسم العربي في الإذاعة البريطانية¹.

في عام 1949 م، انتقل زيادة إلى بنغازي في ليبيا لتولي منصب مساعد مدير المعارف في برقة، لكنّه عاد إلى بيروت في أيلول/سبتمبر من السنة نفسها، كي يلتحق بالجامعة الأميركية ويعمل أستاذاً مساعداً في دائرة التاريخ فيها، وكان زيادة، منذ مغادرته بريطانيا، يواصل إعداد أطروحة الدكتوراه، فنال الشهادة في عام 1950 م مع ولادة ابنه باسم. وفي عام 1956 م عُيِّن أستاذاً مشاركاً، ورُقّي في عام 1958 م إلى درجة الأستاذية، وترأس دائرة التاريخ بالوكالة في الجامعة الأميركية بين سنتي (1955-1956 م)، ثم أصبح رئيساً أصيلاً لها بين سنتي (1956-1966 م)، وبقي نقولاً يعمل في هذه الجامعة حتى تقاعد منها في عام 1973 م².

وُكِّل نقولاً زيادة الإشراف على أطاريح الدكتوراه في التاريخ العربي في جامعة القديس يوسف في بيروت بعد تقاعده من التعليم في الجامعة الأميركية. كما درّس التاريخ في الجامعة الأردنية مدة سنتين (1976-1978 م)، ثم في الجامعة اللبنانية مدّة سنتين أيضاً، وألقى خلال المدّة 1984-1990 م محاضرات عن تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية في كلية اللاهوت للشرق الأدنى في بيروت، التي تُعدّ قساوسة إنجيليين³.

1 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج2، ص 11-30.

2 المرجع نفسه ج2، ص 73-88 .

3 المرجع نفسه، ج1، ص 134.

ودرس نقولا زيادة تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية بصفته أستاذًا زائرًا في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، وألقى العديد من المحاضرات في عدد كبير من العواصم العربية والأجنبية، كما أنه شارك في عدد من مؤتمرات المستشرقين، وكان نقولا زيادة أستاذ شرف في دائرة التاريخ لدى الجامعة الأميركية في بيروت، وعضوًا مراسلًا في المجمع العلمي العراقي، وعضو شرف في جمعية المستشرقين الألمانية، وعضوًا في جمعية المستشرقين الأميركيين وفي جمعية العصور الوسطى الأميركية. كما كان عضوًا في المجلس الاستشاري للموسوعة الفلسطينية ومحررًا في القسم الثاني منها، ومحررًا لسلسلة الدراسات العربية التي صدرت عن لونغمان في لندن وعن مكتبة لبنان في بيروت حتى سنة 1990 م، حين استقلت مكتبة لبنان بإصدارها.¹

نال نقولا زيادة عددًا من الدروع والجوائز التقديرية من عدد من الجامعات والحركات الثقافية العربية.²

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص133-ص150 .

2 المرجع نفسه .

- مؤلفاته:

أصدر نقولا زيادة نحو خمسين كتابًا باللغتين العربية والإنجليزية، من بينها: "العالم القديم" (1942)، و"صور من التاريخ العربي" (1946)، و"شخصيات عربية تاريخية" (1946)، و"صور أوروبية" (1947)، و"العروبة في ميزان القومية" (1950)، و"الجغرافيا والرحلات عند العرب" (1987)، و"المسيحية والعرب" (2001)، كذلك ترجم كتاب "الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية-العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر" للمستشرق الأميركي ديمتري غوتاس، إضافة إلى إصداره كمًّا هائلًا من المقالات المنشورة بالعربية والإنجليزية، ومشاركات كثيرة في كتب جماعية، وعدد كبير من التسجيلات التلفزيونية والإذاعية¹.

بالإضافة إلى أنه ألّف العديد من الكتب التدريسية التي صدرت عن المكتبة العصرية في يافا بين سنتي 1945 و1947 م، ومن أهمّها: "العالم القديم" في جزأين، هما: "عالم العصور الوسطى في أوروبا"، و"المختار من التاريخ العربي" الذي صدر الجزء الأول منه بعنوان: "وثبة العرب" وقد حرّر في الفترة نفسها مع صديقه علي شعث عددًا من الكتب تحت عنوان "سلسلة الثقافة العامة" استوحيا شكلها من سلسلة "اقرأ" الصادرة عن دار المعارف في مصر² "ومن حسن الحظ أن أبناءه قد أعادوا طباعة مجموعة كبيرة من أعماله، إضافة إلى الطبعات السابقة من مؤلفاته التي نقّحها وحدّثها بعد إحالته على التقاعد عام 1973 م من قسم التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت"³.

كما خصّص زيادة مؤلفات لكلّ إقليم عربي كونه ارتحل إلى هذه البلدان، حيث درس تاريخ الخليج ومصر وبلاد المغرب وقد كتب عنها في الكتاب المتعلق بأدب الرحلة المعنون بـ"حول العالم في 76 عامًا... رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992"، الذي ضمّ توثيقه لأسفاره كافّة.

1 الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية،

<https://www.palquest.org/ar/biography/16105/%D9%86%D9%82%D9%88%D9%84%D8%A7-%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AF%D8%A9> .

2 المرجع نفسه .

3 مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، ط 1، مؤسسة عبد الحميد شومان - عمان الأردن، والمؤسسة العربية - بيروت، 2008، ص 9.

- رحلاته:

زار نقولا العديد من الدول منها الدول الغربية، بالإضافة إلى زيارته للدول العربية جميعها تقريباً، فضلاً عن تركيا والهند وباكستان وجمهورية آسيا الوسطى الإسلامية، كي يتعرف على معالم الحضارة الإسلامية، ومن أجل التنقيب عن الآثار ليفهم التاريخ فهمًا دقيقاً¹.

لقد كانت حياة نقولا زيادة عبارة عن محطات من الرحلات، بدايةً في دمشق ومن ثم الرجوع إلى الوطن (الناصر) والذهاب إلى طولكوم وجنين والقدس وترشيحا وعكا. ومن الممكن أن نطلق على محطاته الأولى بلاد الشام، فقد توسع تنقله فيها ذاهباً إلى بيروت، ثم زار طرابلس وصنين والأرز واللاذقية وغيرها... وقد زادت جميع هذه المناطق من معرفته للحياة عندما ذهب إليها، وزادت بالتحديد من فهمه للحياة العربية في بلاد الشام آنذاك فهمًا صحيحًا، على الرغم من الفترة الصعبة التي عاشتها هذه البلاد في ذلك الوقت، عندما كانت واقعة تحت سيطرة المحتل "الآخر" الذي استولى عليها...².

بعدها توسعت دائرة رحلاته فانطلق إلى بلدان جديدة وحضارات أخرى فذهب إلى لندن وانبهر بها وأعجب بطبيعة الحياة هناك من حرية الشعب والتنظيم بين أفراد الشعب أنفسهم في مجالات الحياة، وقد كانت حرية التعبير عن الرأي طاغية هناك، فالجميع يستطيع أن يعبر عن رأيه دون رهبة، وانتقل في رحلته إلى ألمانيا التي قارنها بلندن ورأى أنّ صفة التقنين تغلب عليها، وذلك بسبب الحرب، وذهب بعدها إلى فرنسا. ولقد كان لمسيرته في الغرب أثر كبير في إتمام نموه الفكري، فقد أدى هذا إلى انفتاحه على جميع الآراء والاتجاهات الفكرية التي تدل على التاريخ حتى بعد رجوعه منها، فاستمر الانفتاح معه طيلة حياته³.

1. زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 560 .

2 المرجع نفسه، ص 560 .

3 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص274 .

المرجع نفسه، ج2، ص 12-13، ص 30 .

ولم تقتصر رحلاته على جانب الحضارات الغربية بل ذهب أيضًا إلى الدول العربية ومنها المغرب العربي والمشرق العربي إضافة إلى دول الخليج، وقد دَرَسَ آثارها وحضر العديد من المؤتمرات التي ساعدته على المناقشة في المسائل المختلفة حول تاريخ العرب في جميع حقبة. ولا ننسى أنه أيضًا زار الهند وباكستان وإيران وقد ذكرنا ذلك سابقاً¹.

حصل من جميع هذه الزيارات على فوائد شتى زادت فكرًا وروحياً وقد استمتع بها، فتحدث وكتب عنها واصفاً إياها وصفاً جليلاً يصور معالمها عن طريق مؤلفاته التي تبين ذلك.

- وفاته:

توفي نقولا زيادة عن عمر يناهز تسعة وتسعين عاماً في بيروت ودُفن فيها، فقد عاش قرابة قرن كامل، إذ إنَّ الأجل وافاه في تاريخ 27 يوليو 2006 م²، و ذكر محمد عدنان البخيت ذلك بقوله: "قبل عام بالضبط (2007/7/27 م) كانت وفاة الأستاذ نقولا زيادة في بيروت، أثناء القصف الإسرائيلي الهمجي للبنان"³.

1 زيادة، نقولا، حول العالم في 76 عاماً رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 560 .

2 المرجع نفسه، ص 17 .

3 مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التاريخ، ص 9.

○ نقولا زيادة في مرايا الآخرين

تختلف مرايا الآخرين تجاه الذات، إذن كيف كان الآخر ينظر إلى نقولا زيادة؟ فعند الوقوف على نظرات الآخر تجاه نقولا زيادة، يتجلى ذلك في الذات الاجتماعية التي تكمن في رؤية الآخر لها، وعندما نسلط الضوء على رؤية الآخر لنقولا زيادة أثناء حياته وبعد مماته، يتبين أنها رؤية ازدواجية متماثلة في نظرة الآخر له، وإن اختلفت عند البعض.

- ما رآه الآخرون عن نقولا زيادة في حياته:

من بين حيثيات المواقف المختلفة الموجودة في سيرة نقولا زيادة الذاتية ورحلاته ارتأيت تصنيف رؤية الآخر له أثناء حياته إلى مرايا الثنائية الضدية وهي كالآتي:

- مرآة المحبة (النظرة المحبة):

كان المثقف الآخر ينظر إلى نقولا زيادة نظره إلى المتميز الحاذق الذي يتمتع برؤية ثقافية، نتيجة لمعرفته العلمية الواسعة. وقد ساعد ذلك في تشكل هذه الصورة المأخوذة عنه بشكل محب وإيجابي، ما أسهم في مشورته في مختلف المحافل. وكانت هذه النظرة عبارة عن أداة ملهمة، يستجد بها الغير في ترشيح أناس آخرين أكفاء، وعلى قدر من تحمل المسؤولية. ويظهر ذلك جلياً في عدة مواقف ذكرت في سيرته الذاتية ورحلاته، ومن بينها حادثة تأسيس مجلة العربي الكويتية، عندما طلب منه ترشيح اسم ليكون رئيساً لها، وقد رشّح أحمد زكي لهذا المنصب، وقد أخذ ترشيحه بعين الاعتبار. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عظمتة وعظمة ثقافته، ما أدّى إلى الوثوق به. كما أنه كان محباً للآخرين، ولم يقتصر حبه للآخرين على هذا الأمر فحسب، بل تجلّى أيضاً في مواقف عدة من بينها ما ذكره زيادة: "فقد كان إعجاب الشباب بي أكبر بكثير ممّا أستحق"¹. ولو أمعنا النظر في ذلك لرأينا محبواً بين فئة الشباب من طلابه، الذين كانوا ينظرون إليه نظرة خاصّة، تميزه لما يمتلك من عظيم الثقافة والصفات في التعامل معهم.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 120.

كما أن هناك حادثة أخرى تدل على نظرة الآخر إليه نظرة متميزة، وذلك عندما كان يجالس أساتذته من أصحاب العلم والمعرفة وينهل من علمهم، ويذهب إلى بيوتهم بقصد المناقشة والتعلم والتزوّد بالمعرفة، وكانوا يخصصون له وقتاً لذلك، ومن بينهم: عبد الله مخلص والشيخ أسعد الشقيري، وقد كان نقولا يقول: "إنّ تلك الزيارة فيها ثقافة لي"¹.

بالإضافة إلى إشادة معلمه "زكي بك" بخطه الجميل. وقد بيّن ذلك عندما قال: "قبيل انتهاء حصّة الدرس قال لنا يا شباب لن أعطي نقولا بعد اليوم إحساناً على الخط، إن خطه أفضل من إحسان، فهو يتميز عليكم جميعاً والشاطر يلحقه"².

وقد نظر إليه محمد رضا نصر الله نظرة محبة عندما مدحه بكلمات تبين عظمته وفكره النير المحب للمعرفة، وذلك في خلال إحدى مقابلاته معه حيث قال: "المؤرخ والمجغرف الذي ملأ صفحات الدوريات العلمية وأصبح ملء الأسماع في العديد من الجامعات والأكاديميات ومراكز الأبحاث في العالم العربي، له العشرات من المؤلفات، رحالة، طاف بجوانب أو مسافات طويلة من هذا العالم العربي، يقف قامة شامخة بفكره اليقظ."³ فنجد أن محمد رضا نصر الله قد أشاد بنقولا زيادة ونظر إليه نظرة محبة في موسم الرياض التراثي آنذاك، وهذا يبين مدى أهمية هذه الشخصية التي نحن بصدد دراستها.

وقد نظر الآخر إليه نظرة محبة تجلت في مساعدته للآخرين، وقد ظهر ذلك من خلال حادثة مساعدته في دفع دين أحد زملائه وهو "أمين أبو غزالة" الذي باعته الأجل بسكتة قلبية، وقد منعته نفسه من أن يأخذ الدين بعد وفاته، وقد قال نقولا: "... رجوته ألا يقبل شيئاً من زوجة أمين أبو غزالة..."⁴ وقد قال أيضاً: "أصرّ

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 222.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 44.

3 مقابلة محمد رضا نصر الله مع نقولا زيادة في برنامج "ما بين أيديهم"،

<https://www.youtube.com/watch?v=58G2G8dd9T4&t=145s>

4 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 202.

أن أكون أنا الكفيل. فقبلت¹، وهذا الإصرار (أي إصرار صاحبه أمين أبو غزالة) ناجم هنا عن الثقة التي وجدها في نقولا لتفريج همّه ومساعدته في سداد دينه، لأنه أهلٌ لذلك.

وثمة موضع آخر من مواضع الثقة متمثلة في الثقة في تدريسه، عندما طَلَبَ منه أحدُ الأشخاص إعطاءه دروسًا خصوصية، وقد قال: "كَلَمَنِي شفيق درويش في أن أعطيه دروسًا خصوصية في تاريخ أوروبا الحديث..."².

يَنظر الآخر إلى نقولا من ناحية خَلقية أي شكلية على أنه وسيم، فقد يفتن الجنس الآخر بجماله. وقد ورد ذكر وسامته في عدة مواضع، من بينها حادثة صديقه فرح رفيدي عندما رفضته المرأة التي تقدم لطلبها بسبب إعجابها بنقولا زيادة، فقد ذكر في سيرته قول جوليا باللهجة العامية: "ما هو فرح ورط حاله، مين بروح يزور صبايا وبياخذ نقولا معه؟ أنت ولا شك يا نقولا عطلت فرح..."³ فيتبين من كلامها أن نقولا زيادة كان يمتلك وسامة أثارت إعجابها.

وثمة حادثة أخرى تدل على وسامته، وذلك عندما أراد محمد بيدس أن يمنع نقولا زيادة من أن يكون عضوًا في التحكيم في مسابقة إلقائية للبنات، فقد اتّخذ محمد بيدس من جمال نقولا حجة، وذكر نقولا زيادة ذلك: "كانت حجة المدير أنني شاب، وأني وسيم، والبنات المتسابقات مع أنهن من تلميذات الصف الخامس الابتدائي، فهن صبايا حسب تعبيره و ليس من المناسب أن يكون شاب هناك"⁴.

وعلى الرغم من أن الأغلب ينظر إليه نظرة محبة، إلا أن النظرة العدائية من الآخرين صوبت سهامها نحوه، وقد كان ذلك واضحًا في بعض مواقف من سيرته الذاتية ورحلاته.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 202.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 202.

3 المرجع نفسه، ج2، ص 112.

4 المرجع نفسه، ج1، ص 120.

- مرآة العداوة (النظرة العدائية):

سنتطرق هنا إلى تلك النظرة العدائية عند الآخر تجاه الأنا، من خلال سيرته الذاتية ورحلاته حيث تتضح لنا تلك الصورة التي يحملها الآخر. فلقد استحضرها نقولاً زيادة في مشاهد عدّة تكشف عن الصورة التي ارتسمت في ذهن البعض عنه. وهذا يعطي انطباعاً يتغلغل بين النفوس البشرية الأمانة بالسوء، وما يتخللها من حسد وغيرة. ويتجلى ذلك في عدة مواقف منها: النظر إلى قول الطالبين الموجه لنقولاً زيادة المعبر عن الحقد والغل المكنون تجاه زميلهما نقولاً، وقد عبّر عن ذلك بقولهم: "ولك يعني بك تتشاطر علينا حتى جبت 78 كلمة صحيحة..."¹.

فقد أوضح نقولاً زيادة أيضاً نظرة الحاسد والحاقد له، وذلك عندما ضبط ثمانياً و سبعين كلمة إملائية كتبها إملاءً صحيحاً، وبسبب غيرة زملائه منه وحسدهم له ضربوه ضرباً مبرحاً. فبين كيف تكون النفس البشرية الشيطانية التي لا تتمنى الخير للآخرين، منافية بذلك حكمة الإيثار التي تنص على أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

إضافة إلى أن الآخر كان يراه قارئاً أيضاً، ولم ينظر إليه نظرة محبة بل على العكس كان في قوله غيرة بسبب تميزه وثقافته، فقد قال: "لأن نقولاً يقرأ كثيراً ينطبع رسم الكلمات في ذهنه"².

كما تطرق إلى مواقف كثيرة دلّت على العداوة الموجه له من الخلف، مثل ما فعله محمد بيدس مدير مدرسة ترشيجا عندما رأى حُبّ الطلاب لنقولاً وإقبالهم عليه بسبب تعامله الحسن معهم، فخاف على منصبه من أن يأخذه نقولاً، فنصب له كميناً عن طريق محاربته بحجة دينه، وأشعل فتيل النار متسبباً في نقله من المدرسة، وقد قال نقولاً: "... سألت المدير فقال إنه لا يدري. هو كان غائباً مع أسرته وعاد قبلنا فوجد البلدة تغلي... أما أصدقائي فقد كانوا أصدق منه لأنه هو كان يعرف إذ أخبروني، وبشيء من الأسى، بأن الناس تداعوا إلى إعادة النظر في توزيع عدد المعلمين. فالبلدة أكثرية سكانها مسلمون، فلا يجوز أن يكون فيها معلمان

1 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 86.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 86.

مسيحيان ومعلم واحد مسلم...¹ فأراد أن يبين هنا نظرة العربي المسلم إلى الآخر العربي المسيحي على أنه مجرد من الإنسانية، موضحاً مدى التعتت الذي قوبل به وأدى إلى نقله على الرغم من عدم اقترافه أي ذنب يذكر، فهل يا ترى أصبح الإنسان يعامل وفقاً لديانته، وليس من منطلق إنساني؟!

نظرات الآخر لنقولاً زيادة لم تكن نظرة واحدة ثابتة، وإنما متعددة، ومع تعددها كانت مختلفة، حتى وإن اشتركت في مضمون معين للنظرة حوله، فقد نظر إليه أيضاً على أنه مجرم ينقل الأخبار للعدو، وذلك حين تجول في سوريا مشياً على الأقدام وهو سائح، فقد استدعته الشرطة بتهمة أنه يعمل بالجاسوسية، لتتم مراقبته. وقد صور الوضع السائد آنذاك مبيّناً نظرة المحتل الفرنسي في المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي تجاه الآخر العربي، وقد قال: "... في الساعة السادسة صباحاً قرع خادم الفندق باب الغرفة وقال الشرطة بانتظاركم تحت. نزلنا فإذا بالشخص يطلب منا أن نرافقه إلى مكتب الأمن العامّ حالاً... واقتادنا إلى المكتب، وهناك بدأ السؤال والجواب...².

كما قال: "... يبدو أنّ الضابط في مركز الشرطة اقتنع أننا جواسيس نعمل لمصلحة بريطانيا في إثارة السكان في سورية ولبنان لمقاومة فرنسا...³.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ البعض نظر إليه أنه يمتلك نظرة تشاؤمية، وربما يعود ذلك إلى طبيعة الحياة الصعبة التي عاشها نقولاً زيادة، فكوّنت له مزيجاً من النظرة التشاؤمية، وقد قيل عنه كما ذكر في سيرته أنّ خليل السكاكي قال له: "نحن متفقان في نظرتنا شبه التشاؤمية"⁴.

بالإضافة إلى ذلك، لقد نظر له أيضاً بنظرة لوم وغضب. وقد ظهر ذلك بوضوح عندما صارع إلياس خمار بعدم إقامة الحفلة، وقد قال: "قال إلياس خمار عني: منين هالمقطع المؤصل اللي عملتوه سكرتير؟ قلّة ناس في عكا؟" في المقابل وعلى النقيض من ذلك، كان هناك أشخاص يدافعون عنه في الخفاء، مثل جميل

1 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 120.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 147.

3 المرجع نفسه، ج1، ص 148.

4 المرجع نفسه، ج1، ص 94.

حبيب عندما قال: "هذا المَقْطَعُ المَوْصَلُ هو اللي حامل النادي على أكتافه..."¹ وهكذا تتجلى الثنائية الضدية بشكل واضح بين نظرة محبة ونظرة عدائية.

كما أنه كان حكيماً، فهو يأخذ كل ما هو إيجابي من الانتقادات العلمية التي توجه إلى مقولاته النظرية وأبحاثه التاريخية، ولكنه لا يكتثر من جهة أخرى لما يقال عنه. وهنا نستذكر حادثة حصلت لنقولا زيادة، فقد قال في سيرته: "كان الحاج مير... يحتفظ بقلبه بقدر من الغيرة والحسد، وكان من الطبيعي أن تظهر آثار هذا نحو شخص يعمل في المجال ذاته الذي كان هو يحس نفسه سيّده... صمت لما وضعت كتابي "العالم القديم"... ولكن لما وضعت كتيباً في صفحات لم تبلغ المئة باسم شخصيات عربية... تناوله بالنقد والتجريح... إلخ سألني عن الذي كتبه عني فأجبت: إنني أقرأ النقد الذي يوجّه لما أكتب فأفيد من النقد البناء، أمّا القول الهباء فلا آبه به..."² وهكذا تتبين حكمة نقولا زيادة في النظر للأشياء، عندما يبرز نظرة الآخر العدائية تجاهه للإحاطة بها، وهنا نقصد الآخر الراغب فقط في النقد والتجريح به دون علم ودراية.

نستلهم من قراءتنا في مواقف نقولا زيادة ورؤية الآخر له في حياته، ومن خلال مجموعة من الأحداث التي مرت به وذكرها في سيرته الذاتية وفي رحلاته، أنّ نظريته إلى الآخر كانت تتطور انطلاقاً من تنقلاته الجغرافية أو المكانية من الشام وفلسطين، مروراً بإنكلترا وفرنسا وألمانيا ثم الاستقرار في بيروت واكتشاف حضارات المشرق العربي والمغرب العربي وصولاً إلى بلاد الخليج العربي والهند، بما في ذلك من عناصر ثقافية وحضارية متميزة.

وتتبين من خلالها نظرة بعضهم إليه، فمنهم من ينظر إليه نظرة تتلاشى مع المعتقد الديني، و منهم من ينظر له نظرة الحاسد. وإن تعددت النظرات، إلا أن الواقع في سيرته الذاتية ورحلاته المختلفة يبين أنه يمتلك شخصية متميزة مرتبطة بانتمائها القومي العربي المتمثل بالكلمة المنطوقة، التي يدعو لها في خصائص إنسانية دالة على التعايش بين الحضارات والديانات.

1 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 220.

2 المرجع نفسه، ج2 ص 92.

- ما رآه الآخرون عن نقولا زيادة بعد وفاته:

تحدث الكثير من الباحثين عن نقولا زيادة بعد وفاته، من خلال استذكار مواقفه وأعماله. وقد تمت مناقشة ذلك مع العديد من الناس، فقد كتب الكثيرون عنه أقوالاً تدل على الفخر بهذا المؤرخ العظيم الذي انتقد فكره بالتنوير، ما أدى إلى بلوغه العقلية المضيئة بالإمام الأكاديمي والعلمي والبحثي على مختلف أنواعه.

نرى جميع الكتابات عنه اتسمت بطابع الإشادة به على ما قام به من عظيم الصنع في مجال العلم. فقد كتب ثابت الطاهر عنه بعدّه "أحد رجالات الرعيل الأول ممن عاصروا منعطفات تاريخية مهمة في حياة الأمة، وتفاعلوا معها على نحو قلّ نظيره، كما امتاز الدكتور نقولا زيادة بقدرته على استقراء تلك الأحداث ببصيرة المؤرخ الناقد، الذي لا يقف عند حدود التوثيق، بل يتجاوز ذلك إلى آفاق التحليل والربط واستشراف المستقبل... فقد كان مولعاً بالترحال والسفر، وتغيير أماكن عمله من بلد إلى آخر، حتى يكتسب أكبر قدر ممكن من الخبرة والمعرفة"¹.

وبين محمد عدنان البخيت ذلك أيضاً من خلال حديثه حين قال: "من حُسن الحظ أن إحالته للتقاعد لم تكن ركوباً للبيت، بل انطلاقاً في عدد من الحقول البحثية التي لم يكن متاحاً له تناولها بشكل شامل أثناء عمله في التدريس، فرحل إلى معظم بلدان العالم العربي من جديد باستثناء اليمن وموريتانيا، كما حاضر في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، أضف إلى ذلك عشرات المقابلات الإذاعية والفضائية التي أجراها، فأصبح اسمه معروفاً أكثر وأكثر، وأصدر العديد من الكتب الجديدة، أو طوّر مواضيع كان قد تناولها سابقاً. من نافلة القول أن نؤكد هنا على سعة اطلاع المرحوم وشمول معرفته الموسوعية. أعانته على ذلك ذاكرة فريدة في النقاط التفاصيل وتخزينها، ومن هنا لم يكن المرحوم يعتمد في جميع موادّه على جذاذات، بل يطبعها بالذاكرة ومن ثم يستدعيها عند الحاجة. طالما رأيته وأنا طالب يملئ على معاونيه في مواضيع مختلفة. ومن هنا لم يكن بالمعنى الدقيق مؤرخاً أكاديمياً يكتب لفئة محدودة من المختصين، بل كان يعدّ القراء على مختلف مستوياتهم، غايته الأولى والأخيرة"².

1 الطاهر ثابت، مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التاريخ، ص 5-6.

2 البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التاريخ، ص 10.

وبين آخرون أنّ نقولا زيادة يحمل إرثاً ثقافياً متنوعاً، وقد وضّح وجيه كوثراني "اهتمام نقولا زيادة باللغة وأدبياتها أداة للكتابة من جهة، ومصدراً للمعرفة التاريخية من جهة أخرى، موصلاً حتماً إلى الاهتمام بالأسطورة وما يتعلق بها من تقاليد وعادات وأسلوب عيش، وأفكار ومعتقدات وقيم لدى الجماعات والأقوام، وهو الذي بدأ الاختصاص تاريخاً قديماً..."¹.

ذكر الدكتور أنطوان القسيس أنّ نقولا زيادة "كان همّه الإنسان في تفاعلاته الفكرية والاجتماعية والعمرانية، وقد ابتعد عن التاريخ العسكري والسياسي بمفهومه الضيق فاتحاً الطريق للاهتمام بالتاريخ الاجتماعي، مدركاً أنّ الإنسان في بيئته الجغرافية وفي تفاعله مع الحضارات المعاصرة له، هو المحور الأساس لصناعة التاريخ... أدرك أحدث المعارف وآخر المكتشفات الأثرية والتاريخية لكل المواضيع التي عالجها وأشار إليها، في كتبه ومقالاته المنشورة أو المخطوطة"² حيث إنّ "اهتمامه بالتاريخ الحضاري والاجتماعي دفعه ليعالج تاريخ عدد كبير من المدن في المشرق القديم حتى خارجه وصولاً إلى الشرق الأقصى ومختلف مناطق البحر المتوسط"³.

وبين آخرون أنّ "نقولا زيادة يختلف عن معاصريه بأمر كثيرة؛ إنه صاحب رؤية تاريخية ورسالة فكرية تربوية. كان همّه أن يوصل إلى القارئ باللغة العربية سعة معارفه وما مكّنه العمر من جمعه للثقافات العالمية وما كشفته آخر الحفريات الأثرية، والبحوث العلمية في المشرق والمغرب"⁴ لأنه العنصر "الأساس الذي يميّز نتاجه، ولا ضير عنده أن يقلل من الحواشي والمراجع والإسناد ويثقل البحث لديه، لأنه أراد أن يصل في معارفه إلى أكبر عدد من القراء العرب، لكنه بالرغم من هذه المنهجية البحثية لم يقع في الشطط العلمي أو التناقض المعرفي، أو الخطأ المقصود، أو التحليل الموجّه بالانتماء غير العلمي، حتى ولو عثرنا عنده، على بعض هناتٍ لم يقصدها، إنما يبررها زمن الكتابة وعدم العودة إليها لاحقاً، كونه لم يترك موضوعاً يتعلق بالتاريخ القديم إلا وعالجه"⁵.

1 البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، ص 26.

2 القسيس أنطون، مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، ص 85-86.

3 المرجع نفسه، ص 88.

4 المرجع نفسه، ص 117.

5 قاسمية، خيرية، مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، ص 118.

وذكرت خيرية قاسمية أنّ نقولا زيادة رسم "مقومات شخصيته بهذه الكلمات: هو مسيحي أرثوذكسي عربي، وهو يعتبر أنّ هذه الكلمات تكوّن أضلاعاً لمتلث، ويكوّن هو المساحة التي يحيط بها المتلث، دون أيّ حجم للرقعة أو طول للأضلاع"¹ فقد "تجاوز انتماء نقولا زيادة الحدود الإقليمية، وغطت اهتماماته العلمية رقعة الوطن العربي بأكمله"².

كما أنّ هناك حديثاً لطيفاً عن نقولا زيادة ذكره نوري الجراح ناظرًا إليه نظرة محبة مبررًا إياه في وصف جميل قائلاً: "نقولا زيادة علم من أعلام الثقافة العربية الحديثة، مثقف أكاديمي موسوعي عني بتقديم سرود تاريخية وقراءات للتاريخ العربي في محطات أساسية على مدار أكثر من نصف قرن من النشاط الفكري الخلاق، وقد ميزت عناية زيادة بالتاريخ العربي انتباهة مبكرة لديه إلى أهمية الجغرافية في صناعة التاريخ وصناعة الحضارة، من هنا ربما تولد اهتمامه بالمدينة العربية، وهو الذي اختصّ أساسًا بالتاريخ المملوكي فضلًا عن اهتمامه بتدوين شيء من اليوميات والملاحظات المتعلقة بالسفر وأدب السفر ممثلًا بما تركه الجغرافيون العرب والمسلمون"³.

وقد ذكر أنه كان "معجبًا بشخصية هذا الرجل بدأبه على الكتابة، وبإخلاصه للبحث، ووفائه للكلمات. ظلّ حتى أواخر أيام حياته يقرأ ويبحث ويكتب. إنما إن كان ثمة ما يطبع شخص زيادة بطابعه ولا يمكن أن يخطئه شعور، هو تلك المحبة التي تشع بها روح، وتلك الطيبة التي يغمر بها أصدقائه وتلامذته ومعارفه، إنه قطعة خالدة من الحب"⁴، وهذا تعبير صريح عن إعجابه بالرجل ومحبته له.

1 قاسمية، خيرية، مراجعة وتقديم: البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، ص 191.

2 المرجع نفسه، ص 192.

3 الجراح، نوري، مقدمة كتاب: نقولا زيادة حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي

1916-1992، ص 13.

4 المرجع نفسه، ص 17.

وقد كتبت الدكتورّة ضياء الكعبي مقالاً عنه في جريدة أخبار الخليج جاء فيه ما نصّه "كان هذا المؤرخ حريصاً في كتابته تلك على توثيق شذرات من حياته وربطها بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للبنان. وكان حريصاً كذلك على توثيق سنوات عمره الحالي" فنظرت له على أنه "كان معاصراً وشاهد عيان على مسارات تاريخيّة فاصلة في الوطن العربي والعالم. لقد شهد الحربين العالميتين الأولى والثانية وشاهد انهزام الدولة العثمانية ورحيلها كما عاش في ألمانيا النازية وشاهد عن كثب صعود تلك النازية العنصرية وتأثيراتها في أرجاء من الوطن العربي بحكم وجود معجبين ومريدين عرب لها نكايّة في الاحتلال الإنجليزي"¹.

وقد قال عنه من قبل الباحث أحمد العساف إنّ نقولا زيادة يرى أنّ "أيّ موقف يمكن أن يكون مدرسة للإنسان إذا أعمل فيه التأمل، وينصح بالتفكير خلال المآزق خلافاً للتّدمير الذي لا ينفع، ويحرص على ملاحظة الآخرين للاعتبار وليس لمجرد الرّقابة، ويصف نفسه بأنّه كتلة من التّأمّلات، ويؤكد على ضرورة فاعليّة الواحد في جماعته وبيئته المحيطة، ويصرّ على أهميّة امتلاك القدرة على التّكيّف؛ فأحوال الدّنيا ليست تبعاً لرغباتنا. ومن قواعده في الحياة أن ينشغل بمنافسة نفسه، وتحقيق أهدافها، كي لا يقع أسيراً للمقارنة والغيرة والحسد، ويجزم أنّ التّوقّف مضرّ وعلاجه السّير للأمام ولو لبضع خطوات، وأفضل طريق للإنجاز هو العمل بنظام ودأب. ويظهر من سيرته أنّه كان يرى الجمال ولو في شوكة، ويتعلّم من أيّ حدث عابر، ويمضي لهدفه معرضاً عن بنيات الطّريق، ويتجنّب جعل ما يفكر به أو ما يشعر به على لسانه دوماً"².

كما ذكر أنّ نقولا زيادة "يعلي من شأن القراءة، والخطابة، والكتابة، والأصدقاء؛ حيث ساهمت جميعها في ارتقاء تفكيره، وتعميقه، وتنظيمه، وفنحت القراءة الشّخصيّة أمامه آفاقاً واسعة موصيّا بفهم التّاريخ من خلال علوم الجغرافيا، والآثار، والأدب، ويؤكد العلاقة الوثيقة بين اللّغة والفكر، ويشير إلى الفرق بين المعلومة والوعي. أما في الحياة فلم يخض غمار السّياسة وتحاشاها مع مشاركته في ثلاث مظاهرات فقط، وصرم عمره بين المكتبات ومقابلات أعلام المجتمع العربي والعالمي من مجاهدين، وعلماء، وكتّاب، وزعماء"³ وهنا نرى بالإجمال أنّ هناك إجماعاً على هذه الشّخصية الفدّة التي أضافت إلى العالم العربي العديد من القيم والدروس للاستفادة منها والعمل بها.

1 الكعبي، ضياء عبد الله: نقولا زيادة في "أيامي" السيرة الذاتية الفسيفسائية، صحيفة أخبار الخليج، البحرين، العدد 13518، 28 مارس 2015 م.

2 العساف، أحمد عبد المحسن، نقولا زيادة ومئة عام من أيامي، قراءات ومقالات، 15 أكتوبر 2018.

3 المرجع نفسه .

وذكر مصطفى عاشور في إحدى المقالات أنه "كان مؤرخًا موسوعيًا، اهتم بأغلب فترات التاريخ وحقبه، بدءًا من التاريخ القديم حتى المعاصر، لكن كانت عيناه تركز على إبراز الجوانب الحضارية؛ فالتاريخ لم يكن قصة سردية عنده؛ بل كان عبء الماضي لتجاوز الواقع والتفاعل مع المستقبل، وكان يردد أن التاريخ ليس بقرة مقدسة، وأنَّ الواجب علينا تحليله. حاول أن يكون أدبيًا؛ فلم يستطع رغم محاولاته المتعددة، لكنه نجح في نقل روح الأدب إلى التاريخ؛ فأصبح التاريخ معه أكثر عذوبةً وانسيابية، ونجح أن يأخذ التاريخ بعيدًا نسبيًا عن ساحات المعارك إلى فضاءات الحضارة التي تعنى بالإنسان والمكان والمهنة... إلخ..، فقد كان التاريخ هوايته ودراسته؛ فعمره الطويل الذي اقترب من القرن لم يستطع أن يغيب أدق التفاصيل من ذاكرته، حيث كانت ذاكرته أشبه بأرشيف ضخم للعرب في أهم قرن لهم، كان التاريخ عنده هو المملكة التي يعرفها جيدًا، ويعرف دهاليزها، أما السياسة فلم يتعاطها طوال حياته، وكان يرى أن السياسة في البلاد العربية ما هي إلا هبات أكثر من كونها برامج ودراسات ومفاهيم وآليات؛ لذا عزف عنها، ووجد ضالته في سياسة الأقدمين، فكان تاريخ الأفكار مجال اهتمامه"¹.

وقد بين الباحث حسني حنا أنه "صاحب رؤية تاريخية، ورسالة فكرية وتربوية سعى أن يوصل إلى القارئ معارفه، وما مكّنه العمر من جمعه للثقافات العالمية، وما كشفته آخر الحفريات الأثرية والبحوث العلمية في المشرق والمغرب. وكان مفكرًا ومؤرخًا، جمع بين جدية التحليل وغازة الإنتاج"² موضحًا ذلك في قول زيادة عن التاريخ إنه حركة دائمة وهو يستعمل كلمة "حركة" عامدًا، ولا يقول سير التاريخ أو مسيرة التاريخ، فالسير والمسيرة في نظره كلمتان تدلّان على اتجاه في خط واحد على العموم لكن الحركة لا تتقيد باتجاه واحد، فقد تكون إلى الأمام أو اليمين أو اليسار إلى فوق أو تحت، ونراه لم يقل إلى الخلف، لأنها لا تتجه إلى الخلف إنها تتطلب شيئًا فيه دفع، وليس فيه رجوع!"³.

1 عاشور، مصطفى، نقولا زيادة مؤرخ عاش قرنًا،

<https://islamonline.net/archive/%D9%86%D9%82%D9%88%D9%84%D8%A7-%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D9%85%D8%A4%D8%B1%D8%AE-%D8%B9%D8%A7%D8%B4-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7> .

2 حنا، حسني، نقولا زيادة مؤرخ العصر الحديث،

<http://www.voiceofbeladynews.com/articles/1207356.html>

3 المرجع نفسه .

وقد ذكر حادثة له مع نقولا زيادة مبيّناً السمات الشخصية له أثناء المحاضرة، وذلك عندما قال: "كان لي شرف اللقاء لأول وآخر مرة بالدكتور نقولا زيادة، يوم قدم إلى مدينة جبلة على الساحل السوري، القريبة من مدينة اللاذقية محاضراً، بناء على دعوة من فرع جمعية العاديات في جبلة، وذلك منذ نحو ربع قرن، وقد كان موضوع محاضرتيه يومها "صراع الحضارات وحوار الحضارات" وقد ألقى محاضرتيه واقفاً، لا يحمل غير عصاه، وورقة صغيرة سجل فيها رؤوس أقلام، وقد بدا مفعماً بالحركة والنشاط، ميالاً إلى الابتسامة، طلق المحيا، يتمتع بذاكرة عجيبة ولغة سليمة، وقد أنكر في محاضرتيه وجود صراع حضارات وحوار حضارات في التاريخ، وإنما تواصل وتفاعل، تأثر وتأثير، فالحضارة القوية تعطي والعادية تساعد، والضعيفة تأخذ، وفي ختام المحاضرة كان يجيب عن أسئلة الحضور، تغمره روح الشباب وحيويته"¹.

وبعد وفاة نقولا زيادة أقيمت ندوات عديدة للتحدث عن مؤرخ العرب في القرن العشرين. وبخاصة في بيروت ودمشق وعمّان والقدس تحدث فيها الأساتذة المحاورون عن اهتماماته الموسوعية في التاريخ على اختلاف وجهات النظر فيه، وقد ذكر أحد الباحثين في حفل تكريم نقولا زيادة وتأبينه أنه كان يدرج نحو المئة بفرح غامر، ويخطط لأيامه المقبلة، بنشوة الأيام الأولى. عاش القرن العشرين بطوله وفي فؤاده ثلاث حشرات هي فقدان له لوالده في سن مبكرة، وفقدان وطنه فلسطين، ثم فقدان زوجته. كما كان في فؤاده أربع متع لم يبرح عطرها وهي: السفر والحروف والحسان والنبذ².

وقد قال عنه الدكتور أنيس الصايغ: "إن نقولا زيادة كان من المؤرخين القلائل، الذين تتعدى معرفتهم التاريخية حقباً وفصولاً، أو عهوداً أو شعوباً محدّدة. كانت معلوماته وتحليلاته التاريخية تشمل دائرة عريضة جداً في الزمان والمكان"³.

1 حنا، حسني، نقولا زيادة مؤرخ العصر الحديث،

2 المرجع نفسه . <http://www.voiceofbeladynews.com/articles/1207356.html> .

3 المرجع نفسه .

وقال عنه الدكتور محمد عبيد الله: "اعتمد نقولا زيادة على التواصل مع أقرانه من خلال المقالات التي ظهرت مجموعة منها في جريدة الحياة بعد وفاته"¹ ولفت عبيد الله إلى أن نقولا زيادة ربط بين الأدب والتاريخ من خلال مقالاته، وعمق لونا خاصا من الكتابة، يمكن تسميته بالأدب التاريخي.

أما الدكتور سيار الجميل فقد قال: "نقولا زيادة كالعنقاء، يطاول الزمن الصعب"².

ومن هذا كله يتبين لنا أن نظرة الآخر لنقولا زيادة كانت تقارب نظره الذاتية لنفسه، ويتمثل ذلك في المدح والإيجابية، فالجميع بعد وفاته نظر إليه بنظرة يسودها الفخر والاعتزاز والإيجابية لما قدمه من عطاء جليل متمثل في التاريخ، وهذا أيضا متوافق مع نظرة الآخر له أثناء حياته التي تم ذكرها من مختزل المواقف في سيرته الذاتية ورحلاته، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنه نموذجٌ فذٌ شاملٌ ومؤرّخٌ عظيمٌ سيبقى طويلاً في الذاكرة العربية بفضل آثاره التي خلفها.

1 حنا، حسني، نقولا زيادة مؤرخ العصر الحديث،

. <http://www.voiceofbeladynews.com/articles/1207356.html>

2 المرجع نفسه .

الفصل الثاني

(تمثّلات الذات والآخر عند نقولا زيادة)

- تمثّلات الذات.
- الذات حين تُعرّف
- الذات حين تعترف
- الذات حين تُموّه
- أنماط الآخر
- الآخر المشابه.
- الآخر المغاير.
- العلاقة بين الذات والآخر.
- نقد الذات ونقد الآخر.

○ تمثيلات الذات

تتشكل ذات الإنسان بتشكيل شخصيته حيث إن العوامل المحيطة به تساعد على ذلك، ومنها البيئة التي تُسهم في تكوين هذه الذات، فكلّ إنسان تكونت ذاته نتيجة تواصله مع الآخر الذي تعايش معه وعاصره، وكأن الذات والآخر وجهان لعملة واحدة، فكل منهما يؤثر على الآخر ويتأثر به، إذن فالذات تؤثر على الآخر وتتأثر به.

وقد تعددت أنواع الذات، وربما تظهر هذه الأنواع وفقًا للذات المتقابلة مع الآخر، واتخذت صورة الذات من علاقتها مع الآخر أشكالًا متعددة، فهي ليست بالصورة الواحدة المجسدة في ذات الإنسان، فنراها تكمن في عدة صور متمثلة تارة في الذات العارفة، وتارة في الذات المعترفة، وتارة في الذات المموهة. وسأحاول أن أبين أبرز الصور التي جسدها نقولاً زيادة في سيرته الذاتية ورحلاته الدالة على ذاته.

- الذات حين تُعرف:

تعبّر هذه الذات عن كينونة الإنسان التي يكون العلم والمعرفة هما السمتين اللتين تسعى لهما، غير مكترثة بما يقوله الآخرون عنها، فتتطلع للبحث عن التاريخ، إذ تبرز الذات وتتشكل وفقًا لطبيعة الحياة التي عاشها الإنسان منذ صغره، نتيجة لما عايشه من أساليب الحياة، فيولد الإنسان من الظروف المحيطة عليه للعيش، ونرى ذلك بارزًا في حياة نقولاً زيادة، حيث أدّى إلى تشكل الثقافة عنده عن طريق تنقله بين أماكن مختلفة، إضافة إلى قراءاته المتنوعة، ومجالسته أهل العلم والخبرة، فأشعل ذلك فتيل العلم عنده ليجعله شعلة عارفة عالمة بالأحداث ومجريات الأمور، فكان ذلك واضحًا في الذات المتنقلة أثناء تنقلاته بين البلدان المختلفة، إضافة إلى الذات المثقفة أثناء انخراطه في عالم الكتب والتطلع في التاريخ للولوج في عبق التراث والحضارات، فالخوض في متاهات الكتاب يجعل القارئ يعيش تفاصيل الحياة هناك.

ولم يقتصر عيش ذات نقولا زيادة على ذلك فحسب بل أسهم ذلك أيضًا في الذات المغتربة التي لاقت ما لاقت من عناء الغربة والابتعاد عن الوطن والأهل والأصحاب، وفي تكوين ذاته. وأثر ذلك في نتيجة تشكيل الذات تشكيلاً ساعد على معرفة نقولا وتطلعاته الثمينة تجاه التاريخ والحضارات، وعلى تعرّف على ثقافات الشعوب المختلفة، على اختلاف جنسياتها ودياناتها وعاداتها وتقاليدها بالإضافة إلى لغاتها.

1. الذات المتنقلة:

التنقل ظاهرة موجودة في مختلف المجتمعات البشرية، وهي عبارة عن انتقال شخص أو مجموعة من الأشخاص من الموطن الأصلي إلى موطن آخر على نحو مؤقت أو دائم، وهذا يعود إلى أسباب معينة تؤدي إلى هذا الانتقال.

يتجلى هذا الأمر على نحو واضح عند ذات "نقولا زيادة"، إذ إنه تعود منذ صغره على الانتقال، فمنذ نعومة أظافره كان يتنقل مع عائلته بسبب تغيير مكان عمل والده بين الحين والآخر، وظهر ذلك على نحو جلي وأحدث نقلة نوعية له عندما مات والده وعاد مع عائلته إلى الناصرة موطن آبائه وأجداده، ورأينا أنه لم يلبث إلا أن اتخذ من التنقل مسلماً في حياته، وتوسع في انتقاله ليشمل أقطار العالم المختلفة، بقصد تعليمي تارة أو بقصد ترفيهي تارة أخرى ليفسح عن نفسه ويكتشف المعالم الأخرى؛ إذ تشكلت لديه صورة حول آلية التنقل فهو تمرس على ذلك بسبب تنقلات بيئته آنذاك ما جعل ذاته مستكشفة ومتطلعة على التاريخ والحضارات المختلفة.

يقول نقولا زيادة:

"من أوائل تلك السنة إلى خريف 1921 م تنقلت بين الناصرة وطولكرم وجنين"¹

"انتقلنا من بيروت إلى صوفر بالقطار"²

"ودعنا قلعة الحصن واتجهنا نحو صافيتا"³

"كانت نقلتي التالية في الهند إلى حيدر أباد الدكن..."⁴.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاماً رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 56.

2 المرجع نفسه، ص 76.

3 المرجع نفسه، ص 104.

4 المرجع نفسه، ص 351.

2. الذات المثقفة:

تظهر ملامح خاصة بالثقافة على شخصية الإنسان المثقف، فهناك أناس يحبون المطالعة والتوسع والاكتشاف، فتتبيّن هذه الملامح بشكل جليّ في معظم أفعالهم وأقوالهم. إذ إنّ الذات المثقفة تتمثل في المعرفة والتوسعة العلمية والثقافية، فهي تلتقي بالآخر بقصد المعرفة وتبادل الآراء والخبرات، للاكتشاف والتحاور ومعرفة الأسباب والمسببات.

تتماشى الذات المثقفة مع شخصية نقولا زيادة، فنرى هذه الذات في نقولا زيادة منذ الصغر في قراءته لمتون الكتب المختلفة كقراءته للعقد الفريد وألف ليلة وليلة... وقد بانّت ثقافته في مجموعة من ملامح صوره التي ظهرت في مختلف المواقف عند دراسته ومواصلته لطلب العلم والسفر للخارج من أجل الدراسة.

وتوسعت ثقافته من خلال نقله لمختلف المعارف إلى الطلبة من مختلف الأقطار في ممارسته لمهنته في التدريس أو شرحه للندوات والمحاضرات المختلفة، فكانت بعض زيارته للأماكن المختلفة بقصد دعوة أو لمناقشة مؤتمر أو للحصول على منصب في إحدى الجامعات هناك...

وفي هذا الإطار يقول نقولا زيادة:

"استقلت من عملي في برقة لأقبل منصب أستاذ مساعد للتاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت"¹.
"البحث الذي قدمه نقولا زيادة نال أكبر حظ من المناقشة الدقيقة من أي بحث آخر"².
"وجدت دعوة من جامعة عليكرة الإسلامية بالهند لحضور ألفية المسعودي"³.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 267.

2 المرجع نفسه، ص 359.

3 المرجع نفسه، ص 341.

ولم يقتصر على ذلك فحسب، بل كان نقولا زيادة أيضًا عبارة عن أداة ملهمة يستند بها الغير في ترشيح أناس آخرين يكونون أكفاء وعلى قدر من تحمل المسؤولية. ويظهر ذلك جليًا في المواقف المختلفة كحادثة تأسيس مجلة العربي الكويتية عندما طُلب منه ترشيح اسم ليكون رئيسًا للمجلة، وقد رشَّح أحمد زكي لهذا المنصب، وكان أن أخذ ترشيحه بعين الاعتبار. وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على عظمته وعظمة ثقافته والثوق به. وهكذا فإننا عندما ننظر إلى صورة الذات لديه من هذا الجانب نراه يتمتع بنظرة عارفة ملمة بالأمور، ساهمت في جعل الآخرين تتشكل لديهم هذه الصورة المأخوذة عنه بشكل ثقافي إيجابي، الأمر الذي شجّع في مشورته في مختلف المحافل.

3. الذات المغتربة:

تلجأ الذات للاغتراب نتيجة عوامل أساسية تجعلها تغترب وتتخبط في العالم الآخر، إذ إن نقولا زيادة تنقل عدة مرات، وفي كل مرة ينتقل فيها كان غريبًا، فكان يتطبع بطبائع البلد الذي يذهب إليه ليتعرف عليه. وكلنا نعلم بقول المثل السائد عند زيارتنا لبلد معين "يا غريبًا كن أديبًا".

وتظهر الذات المغتربة في رحلات نقولا زيادة على نحوٍ يستدعي الانتباه، وبالأخص عند كتابته للرسائل وإرسالها لزوجته مارغريت واصفًا فيها شعوره في المكان آنذاك، على الرغم من أن غربته كانت لدوافع تعليمية.

وفي هذا السياق كتب نقولا زيادة:

"لكن الذي فكرت فيه أمران الأول أنتما (أنت ورائد)، والثاني هو الانقطاع عن العالم..."¹
"المطبخ هنا يعتمد على البريموس والكهرباء الموجودة التي لا يمكن أن يعتمد عليها كثيرًا للطبخ..."²
"هذه لائحة بأسعار بعض الحاجيات - الثمن للكيلو: اللحم 25 قرشًا مصريًا، والبندورة 8-10 قروش، الخيار 5-7 قروش، الكوسا 4-6 قروش، البطاطا 3-5 قروش، البيض كل أربع بيضات، ويسمونها القوم هنا

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 265.

2 المرجع نفسه، ص 269.

حارة، بثلاثة قروش...¹ ويتضح من هذا الحديث أنّ الذات المغتربة مهتمة بأبسط التفاصيل التي يعيشها الآخر، بالإضافة إلى اهتمامه بزوجته في سرده لها أبسط الأحداث.

وذكر أيضًا العديد من المواقف التي شهدتها ذات نقولا زيادة في غربته، وتمثل ذلك في مراسلته لصديقه عيسى عطا الله وكتابات له. وعلى الرغم من تنوعها واختلافها، إلا أنها تصب في التعرف على ثقافة الشعوب الأخرى. فكان يتحدث عن الحضارة العربية والغربية التي تعرف عليها آنذاك أثناء رحلاته وغربته لطلب العلم، وكان يتطرق في بعض منها إلى شؤون بلاده وما جرى عليها في ذلك الوقت، محاولاً تقصي الأخبار منه.

ومما قاله في ذلك:

"كنت في المحطة أودع صديقي فرح رفيدي المسافر إلى لندن، فابتعت صحيفة إنجليزية قرأت فيها آخر الأخبار عن فلسطين (أخبار الثورة الكبرى)، فلما عدت إلى البيت وقت الغذاء كنت حانقاً كظيمًا فسألنتي ربة البيت السيدة شريف عما بي فقلت لها. إن هؤلاء القوم يعطفون علينا وإنهم ليأبون أن يصاب قوم في عقر دارهم بما أصابنا. ولكن أينفعنا كثيرًا أن يعطف علينا الغير؟ وكم نفع الحبشة عطف الناس عليها لما هاجمتها إيطالية سنة 1935 م...²."

أما في الجانب الآخر فبيّن الذات المنيرة من معالم الشعوب الأخرى وحضاراتها، سواء العربية منها

أم الغربية أثناء تنقلاته المختلفة، فقد قال:

"... وفي القاهرة ترى كل شيء، وتجد كل شيء. الماضي السحيق والحاضر الجديد. المدينة الغربية بكل مستحدثاتها وحتى برطانتها الإفرنسية، والجمود بكل مظاهره. الأحياء الكبيرة الراقية العظيمة، والأزقة القذرة المضطربة بوحولها، المتاجر الكبيرة، والحوانيت الصغيرة. ويستتبع ذلك أنواع المعيشة المختلفة التي تستطيع أن تحياها هناك فأنت يمكنك أن تقضي يومك كله بقرشين، إذا جد بك الجد، ويمكن أن تصرف المئات من الأوراق الخضراء أو الحمراء أو الزرقاء، وليس قولي مبالغة إذا قررت أن القاهرة أرخص من حيفا والقدس، فضلاً عن أن الوسائل أكثر للحصول على حاجياتك...³."

1 الرمادي، أبو المعاطي خيري: صورولوجيا الآخر في الرحلة اليابانية"، مجلة آداب البصرة العدد 88، 2019 م، ص 10.

2 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج 1، ص 233.

3 المرجع نفسه، ج 1، ص 246 - 247.

فالغربة تعلم الذات وتقوي الإنسان على اكتشاف حضارات الآخر والتعرف على الشعوب على اختلافها. وقد تكتسب الذات ثقافة هذه الشعوب، فحصاد الغربة يَنتج عنه إنسان عارف ملمٌ بالأمور المختلفة، فالوحدة في الغربة تستطيع أن تجبر الإنسان على تعلم مختلف الأشياء، واكتشاف الأمور التي تسهم في تكوين ذاته العارفة ليكون إنسانًا بارزًا في الحياة ومقتضياتها.

- الذات حين تعترف

أدب الاعتراف عبارة عن " شكل سردي يتركز اهتمام الكاتب فيه على إظهار الجوانب الخفية من حياته، وكشف المستور من صفاته الشخصية، و تجلية الغامض من علاقته بالآخرين، مستنداً في ذلك على الحقيقة وحدها، وساعياً إلى التحليل و التنبيه إلى مواطن الخلل في الفرد و المجتمع " ¹ أو إن هناك علاقة بين أدب الاعتراف و السيرة الذاتية، فإذا كانت "السيرة الذاتية تحمل ظلال الإشادة و المديح، وسرد الإنجاز والنجاح، و يقبل عليها القارئ بهدف البحث عن متعة المعرفة و التعرف إلى شخصية السيرة و مراحل تفوقها، محافظاً على اعتقاده الراسخ في براءة بطله و قدوته، فإن أدب الاعتراف مقرون بالذنب و السقوط وسرد الخبايا و الأسرار، وهو يمثل الراحة الكبرى لصاحبه، لكنه قد يمثل صدمة للقارئ تبذل الصورة الذهنية المستقرة في نفسه، كما أنه يمثل مخاطرة و جرأة في مواجهة الأعراف و التقاليد"².

الذات عند نقولا زيادة كانت عبارة عن ذات صادقة ومعترفة في الأحداث التي حصلت لها، فقد كانت تكشف عما حصل لها وتعترف به بجرأة، متناسيةً عنصر التضليل، غير مكترثة بما سيقول الآخر عنها، حيث إن من طرق معرفة الإنسان لذاته أن يواجه ذاته باعترافه لنواحي النقص الموجودة فيها، فكان ضيق الحياة وصعوبتها وتحمله للمسؤولية وعدم شعوره بالحب... كل ذلك أدى إلى البحث عنه لأنه يميل إلى كل ما هو غريب، فهو يحب المغامرة واستكشاف المجهول. ولعلّ هذا ما دفعه للقيام بإشباع الرغبة الجنسية والاعتراف بها بين طيات سيرته الذاتية، متناسياً أنه لولا الإشباع الجنسي الذي عاشه في بلاد الآخر لما كان مثلهم، إذ قبل عودته إلى بلاده مارس الجنس مع عدة فتيات في مختلف بلدان الآخر، وهو يعلم أنه راجع إلى نسق الذات الذي يفرض عليه مجموعة من القيود، منها العيش بعيداً عن حياة اللهو بالنساء لتكون له مكانة اجتماعية محترمة. وربما يجوز لنا أن نفسر عبث زيادة على أنه نوع من الاستلاب، فهو لم يحافظ على قيمه بصفته ذاتاً شرقية مثقفة يمكنها أن تقاوم مغريات الآخر لتفرض وجودها واستقلاليتها عن طريق رفض منظومته القيمية ومواجهتها، تلك المنظومة التي تنافي قيم الذات.

1 متولي، محمد: أدب الاعتراف في الثقافة العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مكتبة العربي،

العدد 736، <https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/16954> .

2 المرجع نفسه .

ومن اعترافاته:

- "كانت التجربة الأولى لي مع امرأة في لندن وفي شارع توتنهام كورت رود في أحد الأماسي وفي أواخر خريف تلك السنة 1935، التقيتها في الشارع وذهبت معها إلى غرفتها،....." ¹.
- "ذهبت دارًا للبقاء واخترت واحدة ودخلت معها للغرفة..." ².

والذات تعترف ليس اعترافًا عن ذاتها فقط، بل من الممكن أن يكون اعترافًا من الذات عن الآخر أيضًا، فهي اعترفت في أحد المواقف بخيانة الآخر القريب (العربي) من خلال عدم مقاطعة أحد الأمور الواجب عليه مقاطعتها بسبب المحتل، وقد اشمأز هو نفسه من ذلك.

ويظهر هذا عندما يقول:

"في الأيام التي قضيتها في القدس عرفت أن دور السينما الناطقة تكتظ بالحضور من العرب. ولما استفسرت أكثر وجدت أن الكثيرين من الذين يتوجب عليهم أن يقاطعوا يذهبون، وكان البعض يذهب متخفيًا... أصابني شيء من الاشمئزاز من مثل هذا التصرف" ³. فالذات لم تشمئز من ذلك فحسب، بل أيضًا في قضية الجنس في بادئ الأمر عندما اشمأزت من الأفعال المشينة التي كان يفعلها الأصحاب، وقد ذكر ذلك في مواضع عدة على الرغم من ممارسته الجنس مع الفتيات في البلدان الأخرى كما أسلفنا سابقًا.

لم تخلُ سيرة نقولا زيادة من البوح والاعتراف بأشياء ما كان ينبغي في رأينا البوح بها أو كان ينبغي أن تكون من المسكوت عنه والاكتفاء بالتلميح إليه، حتى وإن كانت تعبر عن فترة المراهقة أو الطيش التي قد يمرُّ بها بعض الناس وثمة في السيرة إشارات نكتفي بأن نحيل إليها من دون عرضها لنترك للقارئ أن يحكم عليها وفيما إن كانت لها قيمة ما كي تذكر ⁴. إضافة إلى اعترافه بممارسة أصحابه بعض الأفعال المقززة التي يأنف منها الإنسان السويّ ذو الفطرة السويّة ⁵.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 302.

2 المرجع نفسه، ص 303.

3 المرجع نفسه، ص 239.

4 المرجع نفسه، ص 58.

5 المرجع نفسه، ص 58.

قدّم نقولا زيادة صورة عميقة لذاته يكشف من خلالها همًّا بداخله وجوانيته، فهو يعيش في صراع دائم مع نفسه في مسألة الحيرة التي باتت تؤرقه، حيث شملت عدة جوانب تطرّق إليها وشكّلت صراعًا نفسيًا له في مسألة الكذب عندما قال: "كان يحيرني لماذا يكذب الناس"¹ ومسألة الموت التي أصبحت هاجسًا على نفسه بسبب فقدّه لأحبته "وفاة والدي وخالتي وخالي أثارت في نفسي نوعًا من الحيرة"² ومسألة الحروب عندما تساءل في نفسه: "لماذا يتحارب هؤلاء القوم، أربع سنوات يقتل فيها الشباب وتدمر البيوت والمصانع والطرق وتتقص مواد الأكل ويتعطل الرجال عن العمل..."³.

والجدير بالذكر أن قضية الجنس أيضًا كانت تحيره "وكانت القضية التي حيرتني كثيرًا هي قضية الجنس..."⁴ وربما يعود ذلك إلى أنه سمع عنها أمورًا يتقزز منها المرء ذو الفطرة السليمة.

إضافة إلى ذلك فإن الحسد والغيرة كانا من الأمور المحيرة من وجهة نظره، وذلك نتيجة ما تعرض له من حقد من الطرف الآخر من أفعال ومواقف مشينة أدت إلى حيرته هنا، فذكر ذلك قائلًا "من الأمور التي حيرتني الحسد أو الغيرة التي تحمل الشخص على التصرف المشين..."⁵ ولا ننسى أنه ذكر في السطور بأنه كثير التعبّد، فقد قال: "إيماني كان قويًا وظل كذلك" و"إنّ أمورًا أخرى كانت تحيرني أيضًا، أنا كنت ولا أذكر تمامًا من أين نبتت هذه العادة عندي في أيام وجودنا في جنين، كثير التعبّد، شخصيًا..."⁶.

نلاحظ أنّ ثمة صراعًا وتساؤلات عدة كانت تعترى نفس نقولا زيادة أدّت إلى التناقض في حياته، فعلى سبيل المثال نراه يحار من قضية الجنس إلا أنه يمارسها بطريقة غير طبيعية، فكأنه يخرج من هذا الصراع عن طريق استكشاف ماهية هذه القضية، وذلك من خلال الخوض في تجربتها أو التعمق في البحث عنها والاطلاع عليها.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 85.

2 المرجع نفسه، ص 99.

3 المرجع نفسه، ص 92.

4 المرجع نفسه، ص 88.

5 المرجع نفسه، ص 86.

6 المرجع نفسه، ص 87.

- الذات حين تُمَوِّه

التماهي هو عبارة عن آلية سيكولوجية لا شعورية يتمثل الشخص فيها بواسطة أحد مظاهر شخص آخر وخصائصه أو صفاته، فالذات هنا تكون معبرةً عن نقص في جانب من جوانب شخصيتها وتريد إكمال هذا النقص¹، وهي شبيهة بالذات الأنانية والغاضبة وغيرها، فكلها تعبر عن مسببات نفسية ونقص في الذات أدت إلى ذلك.

تتحدث السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته عن كونها سيرة يتخللها "الجانب السلبي للدين كأبرز مظاهر التخلف للذات، وحجم الاعتقاد في غيبيات بعيدة عن حقيقة الإسلام، لأنه جسد المستوى المتدني حتى في مستوى الفهم الصحيح للدين"² فهي عبارة عن ذات ممّوهة للحق بالباطل، والتي تبين ذلك من خلال عقليتها التي لا تزال متيقنة بالمحرمات والأساطير الخرافية، والتي تأبى الاعتراف بتفوق العقل عليها كأنها تريد أن تكشف عن واقع ذاته المحايدة المتأرجحة بين الحق والباطل. هذا ما نتوصل إليه عند قراءتنا السيرة الذاتية لنقولاً زيادة التي تعيننا على فهم منظور ذات نقولاً زيادة الممّوهة حول قضية الخمر، وكأنها تريد أن تسلب العقول بإقناعها بجواز شرب الخمر، وكما نعرف فالخمر يُعدُّ رمزاً للمعتقدات الخاطئة التي لا شك في حرمتها في الإسلام كما ورد في القرآن الكريم: {لَيَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}3.

1 الذويخ، سعد فهد: صورة الآخر في الشعر العربي، ص 82.

2 التلاوي، محمد نجيب: الذات والمهماز، دراسة التقاطي في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 95.

3 القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 90.

والخمر عند نقولا زيادة يُعدُّ رمزًا يُستتبط منه معنيان مختلفان:

- **معنى سلبي** تمثل في الظلام والعنف والتخلف، إذ إنّ ذات نقولا زيادة كانت ترى أنه مرتبط بحوادث تعنيف المرأة، وذلك متعلق بالآخر (الزوج) أثناء شربه للخمر وغياب عقله، فيفعل ما يفعل بزوجه من أساليب العنف بوجهيه اللفظي والجسدي. وهو ما كان نقولا زيادة يراه فأراد أن يصبّ جام غضبه على الخمر نفسه، وقد أثر ذلك على نفسيته.

وذكر هذه القصة في سيرته:

"... ومع ذلك لا بدّ أن نسمع كل ليلة في وقت كان يعتبر يومها متأخرًا عويل أم وديع وصراخها وبكاءها، وقد سألت أمي غير مرة عن ذلك فكانت تتحايل عليّ بالجواب إلى أن عرفت يومًا منها أنّ أبا وديع كان يتعاطى شرب العرق، فكان يذهب إلى صديق له فيتناول هناك كأسًا من العرق وعندما يعود إلى البيت يكون قد بلغ حدًا من السكر بحيث يغضب من أيّ شيء مهما كان صغيرًا وعندها كان "يفش خلقه" في أمّ وديع مع أنه قلّمًا كانت السبب في ذلك..."¹.

- **معنى إيجابي** دلّ على أنه متعة وترويح عن النفس، فإن أفكار نقولا زيادة ومعتقداته السابقة تلاشت عندما عدّ الخمر رمزًا إيجابيًا للاستمتاع به، بعد أن كان يشمئز منه بسبب وجوده على الموائد المختلفة التي كان يتناول الطعام عليها، وذلك على اختلاف الآخر الموجود معه. إلا أنّ ذلك سرعان ما تبدّل وصار له تأثير إيجابي عليه، فإذا به يرى في الخمر النور الذي يضيء حياته بعدما كان الظلام السائد والتخلف الذي يلفّ عقلية من يشربه.

وفي هذا المعنى قال زيادة:

- "كان كارل يحب أن يشرب كأسًا في المساء، ومع الوقت أخذت أجاريه في ذلك، هو كان يحب الوسكي لذلك سواء كنا في بيته أو بيتي كنا نشرب الوسكي..."².

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 39.

2 المرجع نفسه، ص 192.

- "إنني لم أندم بعد كل هذه السنين على تعاملي مع المشروب بعد أن تجاوزت المرات الأولى في شرب الوسكي ولم تعد أذناي تحمران من ثاني جرعة كما كان كارل يقول. وجدت في الشراب على اختلاف أنواعه متعة"¹.
- "إن في تعاطي الشراب مع الأصحاب تمام العشرة والانفتاح"².
- "وجدت في أوقات كثيرة في الشراب بحد ذاته سلوى... بل أقصد سلوى الصداقة والتحاب وهي صداقة تتمو بينك وبين الكأس بحد ذاتها"³.

ومن خلال المعنيين يمكن أن نستشف هنا معاناة الذات التي تكون محصورة بين خيارين:

إما عن عدم الاشتمزاز من النسق الاجتماعي والثقافي السائد حول هذا الأمر هناك ويكون بذلك مناسباً ومتكاملاً، وإما عن مخالفته التي تجعله شخصاً ناقصاً ويصل به الأمر إلى حد تناوله الخمر والإعجاب به. وتتأرجح ذاته حول الخيار الأول في شربه للخمر لتغير عقليتها وكأنها تموه للباطل على الحق في استحسنه وجعله شيئاً مرغوباً به منافياً لأضراره وغياب عقله.

وهناك مسألة أخرى مرتبطة بالمعتقدات والأوهام وهي مسألة الأساطير والخرافات، وكما نعرف فإنّ الأساطير هي عبارة عن حكايات لا أصل لها، إذ إنّ العلم يكون نقيضاً لهذه الخرافات، فنرى أن ذات نقولا زيادة ذكرت الأساطير بشكل مختلف وفي أماكن ومواقف متعددة، من بينها ما ذكره من أسطورة حول اسم جبل القفزة عندما كان يتجول في بلدان الآخر، فقد قال: "جبل القفزة الواقع جنوبي الناصرة اسمه مأخوذ فيما أعتقد من كون الانحدار فيه نحو مرج ابن عامر شديد. لكن هذا لا يكفي ولا بد من تفسير آخر حتى ولو كان يطال السيد المسيح. طبعاً الذي اخترع القصة لم يكونوا أهل الناصرة ولكن خصومهم قالوا إنّ السيد المسيح لما عاد إلى الناصرة في صغره... كان يتعرض لمضايقات من أهل بلده... فكان يهرب من الصبيان الذين يضايقونه. وقد تضايق يوماً منهم فاتجه نحو الجنوب ولما لحقوه قفز من الجبل إلى مرج ابن عامر، فسمي الجبل جبل القفزة. ما أبعد ما يتسع الخيال عند الإنسان!"⁴.

1 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 193.

2 المرجع نفسه، ص 193.

3 المرجع نفسه ص 193 - 194.

4 المرجع نفسه، ص 35.

فمن هنا يتيقن أن الخرافات والأساطير موجودة في العقلية الشرقية على الرغم من نقضها بالجانب العلمي. كما أنَّ المعتقد عبارة عن موروث للذات الشرقية، فقد ذكر في مواضع من سيرته حادثة شفاء أخيه عندما كان مريضاً، ولمّا عاد نقولاً زيادة من طولكرم وجده قد شفي، وروت له جدته الحادثة وكيف برئ من تلك العلة بعد علاجه بالطقوس الدينية والمعتقدات المسيحية مثل إقامة النذور التي يتبركون بها للشفاء. فقالت الجدة: " لذلك أنا وأمك نذرنا نذرين: أنا نذرت قنينة زيت زيتون للكنيسة إذا أخذ الله وداعته، ونذرت أمك أن تسميه باسم مار جريس إذا شافاه وشفى"¹.

وعليه نستنتج قداسة الموروث والمعتقدات في عقلية الذات الشرقية حتى لو كان ذلك لا يتّسم بالصحة دائماً. فكأنها تموه عن صحّة الحكايات الخيالية المنسوجة بالواقع، فالذات المثقفة هنا وهي ذات نقولاً زيادة، كانت تعيش تصالحاً واستقراراً نفسيين مع الذات المجتمعية في معرفة الأمور وتقبلها، حتى وإن كان العقل يرى أنها من وحي الخيال.

1 زيادة، نقولاً، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 36.

○ أنماط الآخر (المشابه/المغاير):

الذات قد تتشابه مع الآخر وقد تختلف عنه، فتتضح صورة الآخر في السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته من خلال سمات الشخصيات المختلفة من مختلف بقاع الأرض، فكل شخصية لها طابع محددة وصفات خاصة تعترئها، وقد برز ذلك من خلال أنماط صورة الآخر المشابه والآخر المغاير.

1. الآخر المشابه (الآخر العربي):

والمقصود بالآخر المشابه: الآخر الذي يشترك مع الذات في عرقها ودينها ولغتها أو في أحدها، ولكنه يختلف عنها في الجغرافيا والمكان، وهنا نعني الشعوب العربية والمسلمة كلّها. وقد عددناه آخر بسبب ما يتركه المكان من أثر كبير في تشكيل صورة الذات ووعيها، وبسبب ما تعكسه مكوناته على رؤية الذات للواقع والوجود، كما على سلوكها وتصرفاتها، وعلى علاقتها بالآخرين وموقفها منهم.

عبر نقولاً زيادة عن الآخر المشابه له في رحلاته كالآخر العربي، فقد شغل الآخر المصري، والخليجي، والليبي، والجزائري، والطرابلسي... مساحة في رحلات نقولاً زيادة، إذ كان يختلف عنهم في الديانة، ويتشارك معهم القومية واللغة والتاريخ. وقد عاصروهم وتعايش معهم وعایش محنهم المختلفة، فاكسب منهم معارف جمّة، فأثروا فيه وأثر فيهم مكوّنًا حصيلة تراكمية تجاه الآخر العربي في مختلف أطيافه.

اتضح صورة الآخر العربي، المشابه لنقولاً زيادة في الأصول العربية والمحن المختلفة التي تتعرض لها البلاد العربيّة، في المشاهد المتنوعة التي برزت في ساحة السيرة الذاتية المتضمنة في الرحلات، أثناء عرضه وأخذ انطباعه على مختلف المواقف الحية، مبيناً لنا صوراً شتى متشابهة في الظلم، منها: الآخر المضطهد.

- الآخر العربي المضطهد:

تعرضت كثيرٌ من الأقطار العربيّة للاستعمار الغربي وهذا ما ارتأت الرحلات التي خاضها نقولا زيادة، فصورة الآخر العربي الثائر تمثلت في رفضه للاستعمار وللظلم الموجود من قبل الآخر المحتل، فنرى الحركة الثائرة تصول في مختلف البلدان العربية، إلا أنّ البعض الآخر العربي المشابه تمثلت حركته بالتسامح والاستسلام للآخر الغربي.

وعبر نقولا زيادة عن صور عديدة للآخر العربي في شتى البلدان، فوصف استعمار الآخر المحتل بطرق متعددة متمثلة بالطمع والجشع وعدم تقدير الذات العربية واحتلال أراضيها، فنتج عن هذا الاستعمار تأثر الشعوب العربيّة بعادات من المحتل الغربي.

كما وصف نقولا زيادة تأثر الشعوب العربية بكلمات الآخر الغربي المستعمر وعاداته، وتجلّى ذلك مثلاً في وصفه لتأثر أهالي برقة الليبيين بعادات وكلمات من الآخر الإيطالي: "قال أحد البرقاويين وهو يعمل انحراف سيارة الجيش إنّ السائق أغرق بها شمالاً من أجل السلفاري للبوليس: وسلفاري هي الكلمة الإيطالية للنجاة..."¹ وقال في موضع آخر واصفاً صورة البرقاوي في الأكل وتأثره بالآخر: "وهناك مثلاً انتشار أكل المعكرونة في البلاد... حتى في الأماكن الصغيرة... والبرقاوي يمسك الشوكة ويغرزها بالمعكرونة ويلفها حول الشوكة ويأكلها على الطريقة الإيطالية"² وكما نعلم، فإنّ إيطاليا بلد مشهور بطبخ المعكرونة على مختلف أنواعها، وهي من الأطعمة الإيطالية التي انتشرت بين العرب بسبب الاستعمار.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 270.

2 المرجع نفسه، ص 270.

وفي موضع آخر بيّن الظلم الذي تتعرّض له الشعوب العربية المستعمَرة، مثل الظلم الذي تعرّض إليه الليبيون نتيجة غزو الآخر الإيطالي لبلادهم فقال: "جهّلهم الإيطاليون فمنعوا عنهم التعليم إلا أقلّه ولأقلية صغيرة، ومنعوا عنهم الكتب، حتى إن اقتناء الكتب كان أمرًا يُعاقبُ عليه القانون، وحزموهم من العمل في الصناعات أيّا كان نوعها..."¹

فمن كل هذا يتبين لنا أن صورة الآخر العربي المشابه، متشابهة وإن كان هناك اختلاف في الديانات، فإنّ مصيرهم واحد مع الاستعمار الغربي، وقد تشاركوا في المحن والمصاب الجلل الذي نالهم من الآخر المحتل.

2. الآخر المغاير:

أما الآخر المغاير فهو الذي اختلف عن الآخر العربي سواءً في الأفكار أم المعتقدات أم الدين أم اللغة، كاختلاف الآخر الغربي (الأوروبي) في لغته مع الآخر المشابه. ولقد عاش نقولا زيادة مع الآخر المغاير مبيّنًا ثقافة الاختلاف، فعندما كان يدرس الدراسات العليا في أوروبا قال: "أنا العربيّ المسيحيّ الأرثوذكسيّ عربيّ في ثقافتني - البسيط منها والمعقّد، الحديث منها والقديم، عربيّ في نظرتي في الأمور أي أنني أراها من منظار عربي أداته وآليته اللغة العربية، ومن هنا كنت أشعر ببعض الفرق بيني أنا المسيحي العربي وبين المسيحي الأوروبي" وهنا دليل على صورة الآخر التي تشكلت عند نقولا زيادة وهي الاختلاف في اللغة على رغم الاتفاق في الديانة.

إن البحث عن صورة الآخر الأجنبي في النص الأدبي، يتيح لنا معرفة الإنسان للإنسان، فتعددت صور الآخر المغاير وحضر الآخر الأوروبي في فضاء رحلات نقولا زيادة، وتمكن من رسم صورة معبرة عنه، كونه عاش اختلاف الشعوب مع الآخر المحتل مبيّنًا همجية الآخر المحتل في الاستيلاء على البلدان العربية بصور شتى.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 270.

- الآخر المحتل:

وقف نقولاً زيادة على صورة الآخر المحتل بشكل كبير خلال الفترات التي قضاها في البلدان العربية، مبيّناً استبداد الآخر المحتل وفرضه على الشعب لغته الرسمية وثقافته الغربية في البلاد، إذ إنه نوع في ذكر الآخر المحتل على اختلاف البلدان المستعمرة، ومن بينهم الآخر الفرنسي الذي بيّن اغتصابه للأراضي في الجنوب الغربي للجزائر ونسبة الجمرك الجزائري له.

فقال واصفاً هذا الأمر:

"القرى التي في الطريق تمثل عمل الفرنسيين أي اغتصابهم للأراضي"¹.
"رأيت في الجزائر ما يسمى بالمدينة الجديدة... والمدينة الجديدة كانت للفرنسيين فقط، حتى الدخول إليها بالنسبة إلى السكان الوطنيين لم يكن مستحباً. أما السكنى فكانت ممنوعة إلا لمن رضي عنه المستعمر"².

كما بيّن إصاق الكلمات الفرنسية على الأشياء المتعلقة بالدول العربيّة بقوله:
"وعلى المكتب الثاني وضعت كلمتا الدوانة الفرنسية..."³.

على الرغم من تنوع احتلال الآخر واستعمار له للبلدان العربية كالأخر الإنجليزي والتركي والفرنسي والإيطالي وغيرهم... إلا أنّ القومية العربية باقية متأصلة في نفوس أبنائها العرب.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عامًا رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 390.

2 المرجع نفسه، ص 437.

3 المرجع نفسه، ص 389، الدوانة: هي تعريب لكلمة Douane الفرنسية المأخوذة أصلاً من كلمة ديوان العربية .

○ العلاقة بين الذات والآخر

طبيعة العلاقة بين الذات والآخر متغيرة فهي تأخذ طبيعة مختلفة في كل مرة تبعاً لاختلاف الأشكال، ف"الأنا والآخر يتجسدان ويتمظهران بأشكال مختلفة، ويصبح مفهوم العدو حالة خاصة مع الآخر، بمعنى أنّ هذا العدو هو دائماً الآخر وليس كلّ آخر عدوًّا"¹، فإذا كان "الآخر استعماراً والأنا مستعمراً فإن العلاقة بينهما هي علاقة صراع وعداء، كما قد تربط ذلك الآخر بالأنا علاقة صداقة وتسامح أو علاقة تبادل للمصالح"²، فالعلاقة بين الذات والآخر من "العلاقات المركبة على المستويين الفردي والحضاري، فالذات لا تتجاوز حدودها، مهما كان ثراء هذه الذات ومهما حملت من خيارات تظل حاجتها كيانية ماسّة إلى أن تعبر هذه الحدود، انطلاقاً من احتمالية أنّ الآخر قد يحمل ثراء وخبرة لم تعرفها أو تدرکها الذات من جهة، وأنّ استمرار الذات في الوجود يعتمد إلى حد كبير على اختيار ما لدى هذه الذات من غنى، وخبرة بالتفاعل أو باكتشاف، على الأقل، ما لدى الآخر من جهة أخرى، والآخر، بحكم التعريف، هو مغاير للذات، ويظل منطقة تحتاج إلى الإدراك"³.

ذكرت أسماء العريف ذلك باعتبار أنّ الآخر "جزء من الذات ورأت أن نفي الآخر بتّر للذات بمعنى أنه قطع الجزء منها وهو "الجزء الملعون" من الذات، هذا رغم أنه ضروري لاكتشافها"⁴.

أمّا دلال البرزي فتقوم مقاربتها على إبراز حدة المفارقة بين النسبي والكوني وبين الوعي وعدم المعرفة، فالآخر نسبي في ماهيته مع ادعاء الإلمام به، والآخر ضرورة باعتبار ما له من وظيفة في بلورة الهوية وفي تنظيم الخصوصية⁵ حيث إن العلاقة بين الذات و الآخر عبارة عن تفاعل دائم ومستمر يؤثر على تشكيل الهوية الفردية و تطور الشخصية. إن التعاطي الصحيح و المتوازن مع الآخرين يسهم في بناء علاقات صحية ومثمرة تؤثر إيجابياً على الحياة الاجتماعية و العاطفية للفرد ف"لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب، ودون هذه القاعدة يضمحل الآخر ويصبح عدماً، وإلا حرم نفسه من مادة غلبته"⁶.

1 وشان، حمزة: صورة الآخر في أدب ألبير كامو وجون بول سارت، رسالة ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، 2014-2015، ص 6.

2 المرجع نفسه، ص 15.

3 كاظم، نجم عبد الله: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ط1، دار الفارس، بيروت، لبنان، 2013، ص 39.

4 لبيب، الطاهر: صورة الآخر العربي ناظر أو منظور إليه، ص 22.

5 المرجع نفسه، ص 22.

6 المرجع نفسه، ص 22.

فهناك "تلازم بين مفهوم صورة الذات ومفهوم صورة الآخر، فاستخدام أيّ منهما يستدعي تلقائيًا حضور الآخر، ويبدو أنّ هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقًا لها تشكل كل منهما، فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات"¹.

كما نجد أنّ العديد من الفلاسفة تطرقوا لعلاقة الذات بالآخر وتحديد طبيعتها وأهميتها في الوجود فنجد أن الفيلسوف هيجل يرى أن "الأنا هي محور الذات منغلقة على أنها أي أنها هي هذه اللحظة الموجودة لذاتها"².

أما العالم النفساني فرويد فيرى أن العلاقة بين الذات و الآخر في مد وجزر بحيث "تتطوي حياة الفرد النفسية على وجود فرد آخر على الدوام باعتباره نموذجًا أو موضوعًا أو نصيرًا أو خصمًا، بحيث يكون علم النفس الفردي منذ البداية علم نفس اجتماعي أيضًا"³.

أما ماكس شيلر فقد "شدد على خصوصية معرفة الآخر وحصرها في المودة والمحبة بوصفها من المدركات الحدسية المباشرة مع تجاهله للتنوع البالغ والتجلي الملموس الذي يمكن للآخر أن يظهر بها في الواقع الاجتماعي مقابل الأنا، فالعلاقة عنده علاقة مودة ومحبة، وجوهر الإنسان ليس مجردًا وكامنًا في نفس كل فرد، بل هو في حقيقته نتاج العلاقات الاجتماعية التي يعيش في إطارها"⁴.

1 لبيب، الطاهر: صورة الآخر العربي ناظر أو منظور إليه، ص 812.

2 المرجع نفسه، ص 18.

3 أبو النيل، محمود السيد: علم النفس الاجتماعي، دراسات عربية وعالمية، ج1، دار النهضة العربية، 1990، ص 165.

4 حفناوي، رشيد بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، دار اليازوري العلمية، 2013، ص 231.

وفي وجهة نظر ماركس ما يؤكد أيضًا على وجود علاقة بين الذات والآخر ووجود تلازم بينهما، إذ إنه لا يمكن تعريف الآخر بمعزل عن الذات أو الأنا الأخرى، لأنّ "الآخر في المعنى القريب البسيط كل من يقارب الأنا والأنت والنحن"¹، فصورة الآخر تتكون من نظرة الذات والعكس، كما أنّ صورته تختلف من شخص لآخر وهذا راجع لاختلاف موقف الذات منه.

إن العلاقة بين الذات والآخر علاقة متلازمة كل منهما مرتبط ببعضه البعض، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، فلا وجود للآخر من غير الذات ولا وجود للذات من غير الآخر، فهما متصلان ببعضهما البعض، ومن هذه العلاقة يندرج انكشاف صورة الآخر من خلال الذات، وعلى الرغم من الاختلاف بينهما إلا أنّ كلّاً منهما يحاول أن يتعرف على الآخر، ووضّح ذلك نقولاً زيادة من خلال صولاته وجولاته عبر البلدان فحاول أن يتعرف على الشعوب الأخرى عن طريق ذاته. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}².

كما أنّ العلاقة القائمة بين الذات والآخر هي علاقة تواصل وتبادل، فالذات تتواصل مع الآخر في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية... وذلك عندما تتواءم الذات مع الآخر، حتى وإن لم تتواءم مع الآخر في الأفكار والميول، بل قد يكون التناقض مهيمنًا على التواصل بين الذات والآخر، وكما نعلم، فإن الإنسان كائن بشري اجتماعي يعيش وسط مجموعة من البشر، وبطبيعة الحال يحب الإنسان أن يتعرف على نقيضه، لذلك يتواصل معه لمعرفة التناقض الذي يوجد عند الآخر ولا يوجد عنده.

1 ياسين، مي عودة أحمد: الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006، ص 5.

2 القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية 13.

حيث إنّ العلاقة بين الذات والآخر تُعدّ علاقة واعية، إذ "إن إدراك الآخر جزء من إدراك الذات وإدراكه كما هو وليس كما يريد، وإنّ تصوره وفهمه يطرح الآليات الصحيحة للتعامل معه"¹، فالآخر "حتمي للذات كما هي حتمية له فقطب الذات/الأنا لا يستطيع أن يعيش إلا في علاقته بقطب الآخر/الغير حتى إنّ المرء يولد بمفرده ويموت بمفرده، لكنه لا يحيى إلا مع الآخرين وباآخرين"². فالذات لا تستطيع العيش من دون الآخر الذي يجعلها تعرف نفسها، فالآخر هو الذي يكمل الذات، "فالعلاقة بينهما هي علاقة تلازم كما أن استخدام أحدهما يتطلب ويستدعي استخدام الثاني، فصورتنا عن ذاتنا لا تتم بمعزل عن صورة الآخر، ذلك أنه لا أنا دون الآخر"³.

ولقد تجلّت هذه العلاقة بين الشرق (المتمثل بالعرب) والغرب بشكل واضح، حيث يحاول كلّ منهما تحقيق ذاته وإثبات حضوره على مدار التاريخ وفي ساحته على حساب الطرف الآخر في هذه العلاقة، فيكون بذلك هو مركز الوجود. إذن هي علاقة تتحوّ منحى الصراع الذي يبقى على وجود كلا الطرفين ويسمح بتطورهما في آنٍ معاً.

ومن المعلوم أنّ طبيعة العلاقة بين الذات (المتمثلة بالشرق) والآخر (المتمثل بالغرب) شكّلت منذ بزوغ فجر النهضة، ولا تزال تشكّل إلى الآن مادّة دسمة تتمحور حولها الموضوعات والإشكاليات على مائدة الفلسفة والسياسة، لدى أدباء العرب ومتقفيهم ومفكريهم، الذين جعلوا من هذه الطبيعة الجدلية منطلقاً لإبداعاتهم في مجالات الأدب والفنّ والتاريخ والفلسفة. إذن فإنّ ما يسمّى بالعلاقة بين الشرق والغرب ما هي إلّا تجسيد لهذه الثنائية (الذات والآخر). ويبقى شكل العلاقة بينهما حافزاً مستمراً للتساؤل والجدال، أهو تواصل وتكامل أم تتافر وصراع؟

1 زروقي، عالية: صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى 2010، رسالة دكتوراه، جامعة حسيبية بن بوعلي، شلف، 2017، ص 17-18.

2 القعود، فاضل أحمد: جدلية الذات والآخر في الشعر الأموي، دراسة نصية، ط1، دار غيدا، عمان 2012، ص 33.

3 الطهراوي، عيسى، ومشعالة محمد: صورة الآخر في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 17، كلية اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، ص 109.

تري ماجدة حمودة في كتابها إشكالية الأنا والآخر بأننا نستطيع حل إشكالية الذات والآخر، حين نرتقي بإنسانية الإنسان، فتبنى قيم حضارية أنجزتها الأمم جميعاً، مما يؤسس لمدّ جسور التفاهم بين البشر بعيداً عن الهويات القاتلة؛ إذ يحدث الانفتاح على العالم الخارجي، حيث يمكن أن نلتقي (الآخر) مثلما يحدث الانفتاح على العالم الداخلي (الذات) بفضل قيم إنسانية خالدة مثل الخير والحب والعدالة... فتزيل كل الشوائب التي تمزق العلاقات الإنسانية وتنتشر الكراهية¹.

وتاريخياً فإنّ العلاقة بين الشرق (الذات) والغرب (الآخر) كانت قائمة على "الصراع والتصادم، وكل واحدة منها تريد فرض هيمنتها بمختلف الأساليب والأشكال، لكن سرعان ما تغير الوضع، وذلك من خلال الجهود التي بذلها الغرب تجاه الشرق في محاولة إصلاح ذلك الخلاف والوضع، ونتج ما يسمى بالحوار الحضاري بين الشرق والغرب مع وجود مقومات الأصالة والحدّثة في الشرق والغرب (نحن والآخر) وغيرها"². إذاً فإنّ هذا الحوار مع الآخر ينادي بضرورة التفكير في أهدافه وطرق تنفيذه بشكل عميق. ويتسم هذا الحوار أو الموقف الثقافي الاجتماعي بقبول الآخر والاعتراف بحقه في التواجد والتنوع والتفرد، ورفض التصادم معه على أرض الواقع.

وهكذا "فإنّ الشرق (الذات) والغرب (الآخر) بحاجة إلى لقاء مشترك، وذلك من أجل الكشف والتعرف على الضعف الذي يعاني منه الشرق، ومن ثمّ فإنّ الشرق يحاول الاندفاع إلى التغير، كما أنّه يحاول الاستفادة من المعارف وقد رأى الغرب الأجنبي وتواصل معه، فمعرفة الذات (الشرق) لن تكون إلاّ عبر الاحتكاك والاندماج مع الغير (الغرب)، فالذات الشرقية يجب عليها الاندماج مع الغرب لغرض التبادل الثقافي والتعلم والتحضر والتعرف على كل الإنجازات والاختراعات التي وصل إليها العالم الغربي"³.

1 حمود، ماجدة: إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 398، الكويت، مارس 2013، ص23.

2 فوغالي، باديس: دراسات في القصة والرواية، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، 2011، ص 147.

3 حمود، ماجدة: إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، ص18-19.

فنحن نعلم أن الإنسان بطبعه يجب عليه الاندماج والتواصل مع الآخر، فوجود الذات يقتضي وجود الآخر، ولا توجد "أنا" دون "أنت" لأنهما فاعلان ويشكلان العالم البشري، ولا يستطيع واحد منهما العيش بمفرده، بل يجب التكامل والاتحاد من أجل إحياء المجتمع البشري، فلا نستطيع تصور حياة الفرد دون وجود غيره¹.

فالإنسان العربي والمشرقي دائماً ما يحاول السفر والهجرة وذلك لغرض تحقيق كل حاجاته وطموحاته، فهو يسافر إلى الغرب الأوروبي، باعتبار هذا الآخر يمتلك الخبرة وكل متطلبات الحياة، ومن ثمَّ حدث ما يسمى بالتفاعل والاندماج بين الغرب والشرق. فالتواصل واللقاء بين الحضارتين الشرقية والغربية وتبادل الأفكار والموضوعات ضروري من أجل التحضر والسير قدماً² وهذا ما نراه جلياً في ذات نقولا زيادة عندما تنقل في رحلاته، فهو أراد أن يكتشف حضارات الآخر ليكتشف ثقافة الآخر، فقد كانت علاقة التأثير والتأثر والتجاذب والانبهار ظاهرة بشكل واضح عند ذات نيقولا زيادة، إلا أن ذاته كانت متأرجحة العلاقة مع الآخر فتارة تتجذب إليه وتارة تنفر منه، ونراها تتباين وتختلف في كل مرة، وذلك حسب المواقف التي يتفاعل فيها "علاقة الإنسان العربي مع الغرب هي علاقة ذات وجهتين: علاقة كراهية من ناحية وعلاقة حب من ناحية أخرى"³، فقد يكون الآخر سبباً ودافعاً لتطوير الذات المغلقة على نفسها وغير متواصلة مع الآخر، فهو يعمل كتنبيه للذات التي تسعى لأن تصبح مثل الآخر من خلال صراعها وتمييز هويتها ووجودها والتفوق عليه، وباختصار، هذا الصراع يعكس وجودها ووعيها.

ومن منظور آخر لا يمكن للذات أن تعي نفسها ووجودها بمعزل عن الآخر الذي تعتبره تهديداً لوجودها، أو حاجزاً أمام تطورها وبروزها وإدراكها لنفسها لأنه "لا يتم الوعي بوجود الذات، كما لا يتم بناؤها وتطورها إلا من خلال الآخر بإدراكه والوعي به، فتيسر دوره ومفاوضة مكانته، وبالصراع المستمر معاً سواء أكان ذلك الآخر حقيقة أم خيالاً، ومهما كان بعيداً نائياً أو قريباً جوائياً"⁴.

1 ينظر: القعود، فاضل أحمد: جدلية الذات والآخر الشعر الأموي (دراسة نصية)، ط 1، دار عياد، عمان، الأردن، 2011، ص 33.

2 ينظر: عثمان، فايز صلاح: السرد في رواية السيرة الذاتية العربية، ط 1، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2014، ص 188.

3 ملحم، إبراهيم أحمد: قراءة الآخر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط 1، إربد، الأردن، 2008، ص 102.

4 المرجع نفسه، ص 377.

ومن خلال هذا يمكن القول إن أساس الوجود الفعلي والحقيقي للذات مرتبط بوعيها وإدراكها للآخر قبل وعيها بنفسها وإدراكها لها، لأنه جزء منها سواء كان هذا الوجود يتسم بعلاقة صراع أم تكامل أم نفي، فغياب الوعي بالآخر وإدراكه يؤدي بالضرورة إلى غياب إدراك الأنا لذاتها، كما تبنى علاقة الذات بالآخر على أساس الاحترام المتبادل لكي يتمكن الإنسان العربي والغربي من التعايش في جو من التفاهم والسلام.

ونستنتج من هذا أن العلاقة بين الذات والآخر تختلف وفقًا لنظرة الذات بالآخر فقد تكون العلاقة تواصلية، وقد تكون علاقة ناتجة عن صراع، وقد تكون علاقة تأثير وتأثر.

وعندما ننظر إلى حياة نقولا زيادة ورحلاته، نتوصل إلى أن التأثيرات الاجتماعية والثقافية، سواء كانت إيجابية أو سلبية، لعبت دورًا في تغيير شخصية نقولا زيادة، لتصبح ذاته متفاعلة مع الآخرين بشكلٍ واسع مما جعل الآخر يؤثر على تفكيره وسلوكه، حيث لاحظنا أنه يتعلم من التجارب الجديدة مع الآخرين، ويغير من قناعاته السابقة حول الأشياء، فكان كل يوم يمرّ عليه في حياته بمثابة درسٍ يتعلم منه سواء باختلاطه بالطبيعة أو بالكتب أو بالحديث والتفاعل مع الآخر، فكان دائمًا يبحث عن ذاته عن طريق الآخر محاولًا إيجاد نقاط مشتركة بينه وبين الآخر وكأنه يبحث عن ذاته بين الآخرين ليعوّض النقص الذي كان يحس في ذاته، فالعلاقة بين ذات نقولا زيادة والآخرين ليست علاقة تأثير وتأثر فقط بل كانت علاقة تكاملية في جميع الجوانب وإن كان هناك صراعات بين ذاته وبين الآخرين في سلوكياته وطرق تفكيرهم.

○ نقد الذات ونقد الآخر

النقد أمر لا بد منه فهو الذي يكشف الخفايا التي تجول في نفس الإنسان سواء كانت خبايا حسنة أم سيئة، فالنقد سلبيًا وإيجابيًا ليس مقتصرًا على نقد الآخر فحسب، بل هو يشتمل على نقد الذات أيضًا، فقد يأتي نقد الآخر نتيجة للتهرب من محاسبة الذات على قصورها، "حيث أضحى الآخر قاذحًا لكثير من النقد السلبي الذي يوجه لقصور الذات وتخلفها في جوانب كثيرة"¹، ولكنَّ النقد الحقيقي هو نقد الذات الذي يبين القدرة على الاعتراف بالخطأ والإقرار بأن شيئًا ما لا بد أن يتغير، فيكون مبنياً وفق إعادة اكتشاف الإنسان وتشكله، فاعتراف الذات ينتج عنه رؤية المرء لعيوبه قبل أن يرى ذلك في الآخرين، فالنقد يكون عبارة عن مصحة لمعالجة ذات الإنسان قبل التطرق لذوات الآخرين.

ولذا "فإنَّ من أكبر التحديات التي تواجهها أمة هو نقدها لذاتها، أي الصراع مع الذات، تقليصًا لنوازع الشر ومحاصرة لمكامن الخلل والوهن، وإغلاقًا لثغرات تنفذ الاختراقات منها. بما يحقق تحصيلًا متجددًا لهذه الذات، وتعزيزًا مستمرًا لقدراتها على مواصلة البناء الإيجابي ودوام التقدم"².

ولكن كيف كان ذلك واضحًا في سيرة نقولا زيادة ورحلاته؟

عندما نسلط الضوء على نحوٍ جلي على سيرة نقولا زيادة نرى أنها اتسمت بالطابع الحضاري والسلوكي والفكري الذي أثر بالآخر و تأثر به. إذن لا بد لنا من أن نقف على نقد الذات ونقد الآخر لمعرفة ذات نقولا بشكل أوسع.

1 حامد، عبدالله بن أحمد: نقد الذات و نقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، ط1، من إصدارات نادي الأحياء الأدبي، دار الكفاح للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية - الأحساء، 2015م، ص 8.

2 عبد الرحمن، خير الدين: الإبداع ما بين نقد الذات ونقد الآخر، آفاق المعرفة، العدد 563، 1 أغسطس 2010، ص217.

ولا بدّ للمتأمل في سيرة نقولا زيادة ورحلاته أن يلمس أن أزمته أزمة ذات، فقد كان يُحسُّ بالضعف الشخصي والعجز عن ردّة الفعل تجاه الأمور العصبية التي كان يمر بها، إذ إن هذه الأمور لم تكن تصيبه وحده، بل كانت مرتبطة أيضًا بضعف والده ووالدته وإخوته؛ ليصبح الأمر أكثر تعقيدًا عندما تعي ذاته عجز الوالدين، فتقيق هذه الذات التي افتقرت إلى إحساس الطفولة، مقحمة نفسها في صخب الحياة لتدرك معنى مرارة العيش فتختلط عليها القيم في ذهنها. "فذاته تشكلت بتأثير كبير من العالم الخارجي الذي حدّد بدوره مسار اهتمامه، القادم فانسجم بمحاولة طلب الإنصاف من الآخر، وعلى ضوء ذلك تحدد موقفه من هذا الآخر"¹.

البداية المربرة كان مستقرها ذاته، التي ظل يخزن فيها كل ما كان يدور من حوله، ليلامس أعماقه ويترك فيها جروحًا مؤلمة، ظلت تتراكم لتشكل لاحقًا ذاتًا يصعب عليها الخضوع، ويمثل ظروفه كانت الخيارات المتوقعة في مسار حياته ستوصله إلى احتمالين لا ثالث لهما، أولهما الخضوع وثانيهما التمرد. ولكنه ابتعد فاختر الهروب والسفر والغربة، محاولًا إجراء تعديلات في عالمه الخارجي مبتدئًا بتطوير ذاته. فنرى أنّ الحضارة كان لها دور كبير سلوكيًا وفكريًا في ذات نقولا زيادة وارتباطها بالآخر. إذن فبالإمكان بحث النقد بين الذات والآخر على ثلاث محاور، هي:

1. حضاري:

عندما نتحدث عن الحضارة يتجه الحديث إلى حضارة الذات وطريقة عيشها التي نشأت عليها، والتي تبين منجزات الإنسان عبر التاريخ. فكأنّ تصادمًا يقع هنا بين الذات العربية والذات الغربية، فالذات العربية تشكلت وفق حضارة مختلفة عن حضارة الذات الغربية، إذ إنّ الذات العربية تكونت نتيجة لصراع دائم، بسبب "واقع الذات المؤسف حيث كانت علامات الفرقة والانقسام والضياع واضحة وجلية، تحدث عنها الرحالة وهم يوظفون بعض مشاهدهم للتحذير والتنبيه وللحث والتوجيه أيضًا"²، ومن هنا نرى أنّ نقولا زيادة في رحلاته كان

1 أرنولد، ماثيو: مقالات في النقد، ترجمة: علي جمال عزت، مراجعة: د. لويس مرقص، الدار المصرية، القاهرة، 1966م، ص 166.

2 حامد، عبدالله بن أحمد: نقد الذات و نقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، ص 124.

يوجه إشارات على حضارة كل من الدول العربية التي زارها والدول الغربية، حيث إن أسلوب الحياة كان مختلفًا عما عاشه طيلة حياته من مرارة العيش.

"فكانت قضية القديم والجديد قضية مركزية من قضايا الثقافة العربية وبخاصة في ما يتعلق بالجانب النقدي والإبداعي، بيد أنها كانت في هذا العصر أسًا من الأسس التي لم يكن العقل العربي ليجد مناصًا من التعرض لها وهو يبحث عن مشروعاته ورؤاه في سبيل اللحاق بركب الحضارة الغربية التقنية، التي مثلت أمامه تحديًا حضاريًا هو الأول من نوعه في خطورته وأساليبه، حيث كان المنجز التقني هو الرهان الذي قدمه الآخر، وهو في عز قوته واندفاعه أمام الذات المقهورة.¹ فذات نقولاً زيادة المقهورة أرادت أن تثبت نفسها وذلك من خلال الالتحاق بركب الحضارة الغربية في مواصلة الدراسة للارتقاء، وكأن الابتعاث الغربي يطور في الإنسان على غرار الدراسة في الحضارة نفسها.

ويظهر هذا النقد للذات والآخر عند نقولاً زيادة جليًا عندما يقول في معرض تشريحه للسياسات التعليمية ومناهجها وبرامجها في الدول العربية: "تأخّر التعليم بدل أن يتقدّم، وأسرت الجامعة بدل أن تتحرّر وخبا الفكر بدل أن يلمع. وانحط شأن الفرد بدل أن يرتفع ويصبح مواطنًا"² فهو أراد من ذلك أن يبين نقده الذات العربية المقيدة وما وصلت عليه في التعليم لأن التعليم هو المحور الأساسي الذي يساعد على بناء المجتمعات وارتقائها، فقد تطرق إلى ذلك في سيرته الذاتية ورحلاته من خلال ذكره لتفاصيل تعليمه التي نتستج منها لأنه يرى أن التعليم قد توسع لدى الغرب و رغبته في إكمال دراسته الجامعية في الخارج لنيل الشهادة. وأكمل حديثه من خلال نقده لذات الجنس الآخر من الناحية الاجتماعية عندما قال: "وظلت المرأة واقفة في مكانها بدل أن تسرع الخطى نحو المستقبل"³، فهو أراد من خلال قوله هذا أن ينقد السياسات التعليمية ومناهجها وبرامجها المعيقة للتقدم، وينقد في السياسات الاجتماعية التي تقيد حرية المرأة العربية.

1 حامد عبدالله بن أحمد، نقد الذات و نقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، ص 98.

2 ضاهر، مسعود: الموسوعة العربية، سوريا، 1981 م، <https://arab-ency.com.sy/ency/details/11187/21>

3 المرجع نفسه .

كما نرى أنه في رحلاته كان يحاول أن يزواج بين الحفاظ على الهوية والتأكيد على الإفادة مما لدى الآخر، موجهاً عقله نحو رفض لكل تغير يحاول إقناعه ، فكأنه أراد أن يكتسب من الغرب الخصال الحميدة، باعتقاده أنها لم تكن موجودة لديه.

2. سلوكي:

"السلوك هو كل ما يصدر عن الكائن الحي نتيجة احتكاكه أو اتصاله ببيئة خارجية"¹، وقد دَوّن نقولا زيادة العديد من "الملاحظات التي تتعلق ببعض السلوكيات التعبدية الخاطئة أو الانحرافات الخلقية التي تمارس بفهم خاطئ"²، وكان ذلك متعلقاً بمسألة الجنس حيث إنه أشار إلى "سلوكيات غاية في الغرابة والشذوذ وبخاصة حينما توظف الأمور الشرعية توظيفاً خاطئاً من خلال الفهم السقيم والجهل الواضح"³.

وعندما نقدر القيم الذاتية الغائبة، نرى أنّ "القيم المثالية التي رآها الرحالة لدى الآخر هي ذاتها التي يدعو إليها الإسلام ويحث عليها، وهي قيم يمكن أن تكون إلى حد ما موجودة نظرياً لدى الذات، متحققة علمياً عند الآخر. وهذا ما دعا إليه الرحالة، وإلى الإشادة والإشارة في محاولة منهم إلى استنهاض هذه القيم من واقعها النظري لدى الذات لتكون ممارسات عملية كما هي عند الآخر، وهي قيم تتعلق بالوفاء بالوعد، والنظافة، والنظام، وحسن التدبير على سبيل المثال"⁴، وهذا ما أوضحت ذات نقولا زيادة عندما نظرت نظرة انبهار لأسلوب الآخر الغربي السلوكي في التعامل مع النظام والنظافة في البلد، وكأنه أراد أن يجعل هذا التطبيق عملياً على أبناء الأمة العربية، "فالعلاقات تنجح عندما يحاول كل واحد كفردٍ حرٍّ، جعل أنه معاشاً بالنسبة للآخر"⁵ وعلى الرغم من هذا إلا أن ذاته كان لها ثوابت تميزها، فالذات المغتربة هنا كانت تعتر بذاتها من

1 حامد عبدالله بن أحمد، نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، ص 163.

2 المرجع نفسه، ص 164.

3 المرجع نفسه، ص 167.

4 المرجع نفسه، ص 168.

5 فونك، راينر: الأنا والنحن التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة ترجمة وتقديم: حميد لشهب، ط1، جداول للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 2016م، ص 85.

خلال سلوكها الذي يمثل الذات العربية، ولوحظ ذلك في عدة مواقف سيطرت عليها ركائز الذات العربية في مواجهة الذات الغربية أثناء الشراء مثلاً ولبس الملابس وتناول الطعام وغيرها...

وكما نعلم أيضاً، فإن سلوك الذات قد يكون سلوكاً مكتسباً "قالأنا يتأهل عن طريق اعتقاد المرء بأنه مغاير للآخرين وبأن هذا الاختلاف ليس وسيلة للوصول إلى هدف، بل إنه هدف في حد ذاته، ولهذا السبب يكون الأنا الموجه توجيهاً منفتحاً إلى درجة الفاحشة، إنه يقدم نفسه في كل مكان أتيحت له الفرصة فيه، وله رغبة عارمة للعيش في تناقضات كبيرة، ويترك الحرية لعواطفه للتعبير عن نفسها، لكي ينتج عن طريق قوة أحاسيسه وحساسيته وانفعالاته عاطفة تجعل من طريقة عيش ذاته حدثاً بالنسبة للآخرين"¹، فإن نقولاً زيادة كان يحاول أن يخرج الذات مما هي عليه، إلى الانفتاح على كل ما هو جديد في التعرف على سلوكيات الشعوب الأخرى والانخراط في تلك الزحامات، وهو في ذلك كان مستعداً أن يواجه المخاطر التي تتجاوز ذاته. والجدير بالذكر هنا الإصرار على الذهاب للرحلات على الرغم من أن حالته المادية كانت لا تسعفه للمضي قدماً في الترفيه والتجول، كما أنه عند حدوث أمر ما يعرقل من سير فرص التعليم الخارجي التي كانت تأتي إليه، كان يقابل ذلك بالتذمر، فكانت لدى نقولاً زيادة دافعية إلى التعلم والانخراط بالآخر والابتعاد عن سلوكيات الذات المحصورة في إطار محدد له.

1 فونك، راينر: الأنا والنحن التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة ترجمة وتقديم: حميد لشهب، ص 87.

3. فكري:

تستطيع الأفكار أن تغزو ذات الإنسان مؤدية إلى وصوله إلى نتيجة معلومة، يعرف على أنه "كل ما ينسب إلى الفكر من أعمال العقل والدين من القيم المعنوية والروحية والخلقية ذات مضمون مبدئي وفلسفة فكرية، كما يشمل المؤسسات والمظاهر المادية التي تقوم على القيم السابقة كالأنظمة الاقتصادية ومظاهر الحكم والنشاطات المذهبية المتعددة"¹.

وعند النظر إلى الأفكار التي قد تغزو العقل البشري، قد تُبنى عليها أفكار خاطئة أو أوهام وهواجس ناتجة عن فكرٍ مختلٍ متأثر بالآخر ومؤثرٍ به. وهذا متمثل في مبادئهم وعقيدتهم الدينية، فهم كانوا "يعرضون للديانات المحرفة والأفكار الحديثة الشاذة في كل مكان رأوا فيه آثار هذا الانحراف، مشيرين بإيجاز تارة، وبسخرية تارة أخرى، و بمناقشة وحوار منطقي ثالثة"².

وفي رحلات نقولا زيادة نرى أنه كانت هناك العديد من الطقوس الغربية التي غيرت من تفكير نقولا زيادة، وجعلته يقارنها بالحياة العربية وبالحياة الغربية على اختلافها فهو قد رأى فكر الغرب في مسألة التقنين في الطعام أو الحاجيات وغيرها في معظم أمور حياتهم. فهنا رمزية عن تفكير الغرب المقتصد في الطعام والمال إذ إن من الطريف الذي صُدم به نقولا زيادة أثناء دعوته لحضور أحد المحافل أنه ينبغي عليه تأكيد حضوره ليتم احتسابه على الطعام، وهذا تفكير غربي يخالف التقاليد العربية المتعلقة بمسألة الكرم ووجوب إكرام الضيف، والسؤال هنا يطرح نفسه: هل أسهمت الأفكار الغربية في تغيير فكر نقولا زيادة؟

1 حامد، عبد الله بن أحمد: نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، ص 334.

2 المرجع نفسه، ص 334.

الإنسان بطبيعة الحال يتأثر بالبيئة المحيطة به سواءً فكرياً أم سلوكياً أم حضارياً، ولكنّ مبادئ الإنسان هي الأقوى في مواجهة أي تغيير، وتتشكل هذه المبادئ بتشكّل الإنسان في مختلف مراحل حياته، ومن وجهة نظري، وإن لم يصرح بها نقولاً زيادة، أرى أن معتقداته التي كان يخطو بها، قد تغيرت متأثرة بالغرب ولا سيما في النقلة النوعية في مسألة الخمر عندما كان يراه شيئاً تنفر منه النفس، إلى شيء يجلب له المتعة والتسلية، وقد حدث هذا نتيجة الإرهاصات المتراكمة للبيئة المحيطة به آنذاك، وسوف أبين ذلك بشكل واضح من خلال تعقب ملامح نقولاً زيادة في مختلف مراحل العمرية لنرى التغيرات الجسمانية والسلوكية والفكرية التي حصلت لنقولاً زيادة.

الفصل الثالث

(ملاح فارقة من حياة نيقولا زيادة في سيرته الذاتية
في مراحلها المختلفة)

- ملاح أيام الطفولة والصِّبا
- ملاح أيام الشَّباب
- ملاح أيام الكِبَر

تطراً على الإنسان تحولات بيولوجية ونفسية واجتماعية واقتصادية، تعمل على تغيير بنائه الذاتي لخبراته وتجاربه، وعادة ما يحاول التكيف مع تلك التحولات عبر مسار حياته إلا أنه قد يفشل أحياناً، فينتج عن ذلك ضعف في تقديره لذاته وتتعدم ثقته بالآخرين، وقد ينجح أحياناً فيرفع من نسبة تقديره لذاته مكتسباً من الآخرين أموراً حياتية متنوعة. وتعرف الذات بأنها "مجموعة من الانطباعات والتصورات والتصرفات والخبرات الحياتية التي يكونها الإنسان عبر مسار حياته، فهي تحدّد له ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يدّعه. والذات نوعان، هما:

- الذات الفردية: وهي العاملة النشطة التي ترتبط بالبناء التحتي،
- الذات الاجتماعية: وهي المثالية والضابطة التي ترتبط بالبناء الفوقي¹.

وتسير هذه الذات وفق مسار حياتي متسلسل المراحل، فينتقل الإنسان من مرحلة إلى أخرى، ناقلاً معه تجاربه وخبراته في كل مرحلة من مراحل العمر، أي من سنّ الطفولة إلى الصّبا فالشباب وانتهاءً بالشيخوخة، ويتعلم الصّواب من الخطأ، ففي كل مرحلة ينجم عنها تغيير في طريقة تفكيره وخلافاته ومبادئه وقراراته، إذ إنه قد يتطلّع نحو المستقبل لتكوين علاقات مع الأهل والأصدقاء من جهة، في فترة من فترات العمر، وبين الانطواء والعزلة عن الحياة الاجتماعية من جهة أخرى، وذلك يختلف مع طبيعة الإنسان وفقاً لما تكونت عليه بيئته، فالإنسان يحاول بشكل مستمر التعرف على أعماق ذاته لتحديد توجهاتها وملامح شخصيته، وذلك تبعاً للتغيرات التي تطرأ عليه وعلى بيئته.

وقد أوضح علماء النفس الأوائل أنّ المجتمع ما هو إلا مرآة يرى الفرد ذاته فيها، ويبدأ الفرد بتكوين مفهوم محدّد لذاته منذ اللحظة الأولى من حياته حيث يبدأ تجميع المعلومات عن نفسه وعن الآخرين المحيطين به في البيئة، وعن البيئة التي يعيش فيها وينتمي إليها، ليكون نتيجة تفاعله واحتكاكه وتعامله مع المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه الكثير من المشاعر والعواطف والأحاسيس التي تتراكم يوماً بعد يوم، وسرعان ما

1 العزام عبد الباسط عبد الله، و مهيديات ميس أكرم: تحولات مفهوم الذات عبر مسار الحياة في المجتمع الأردني دراسة سوسيولوجية بين جيلين، رسالة ماجستير، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، 2021 م، ص 179.

يتعلم كيف يخفف من آلامه وأحزانه وكيف يتغلب على المصاعب والعقبات التي تواجهه في الحياة كما أنه يدرك في الوقت نفسه ما يشعره بالراحة النفسية وما يشبع دوافعه ويستثير ميوله ويسترعي انتباهه¹.

إنّ بعض الأشخاص يواجهون مشاكل وصعوبات في فهم ذاتهم وفي نظرتهم إلى الآخرين داخل المجتمع، فالسعي في فهم الذات وتقبل الآخر هي أولى خطوات التواصل الفعال بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع الواحد، ووسيلة أساسية لفهم الفرد لذاته وأيضًا فهمه وتقبله للآخرين. فالذات تنمو من خلال "الخبرات الجزئية والمواقف التي يمرُّ بها الفرد أثناء محاولاته للتكيف مع البيئة المحيطة به، ومثل هذه الخبرات هي التي يترتّب عليها نمو التنظيمات السلوكية المختلفة بناء على عملية التعلم وهذا يحدّد أداء الشخص الفعلي وينمو جزئيًا من خبرات الفرد الشخصية ولكنّه يتأثر بدرجة بالغة بالتقييمات التي يتلقاها من الأشخاص المحيطين به"² كما أنّ الذات تكمن في "فكرة الفرد عن نفسه أي الصورة التي يكونها لنفسه عن نفسه من حيث ما يتسم به من صفات وقدرات جسميّة وعقليّة وما إلى ذلك من قدرات بالإضافة إلى القيم والمعايير الاجتماعية وهو عامل مهم في توجيه السلوك ورسم مستوى الطموح"³.

وعندما ينظر الإنسان إلى الآخر يراه يعبر عن "العملية السلوكية الانتقائية الاختيارية الهادفة والتي تتأثر بالخبرة السابقة، فيقارن فيها الفرد بين ذاته وذات فرد آخر، متخذًا من ذاته إطارًا مرجعيًا في هذه المقارنة، إذ إن عملية فهم الآخر وتقبله هي عملية معقدة فهو لا يعتمد على مجرد ما يراه الفرد وما يسمعه عن الآخرين، بل يعتمد أيضًا على خصائص الموقف الذي تتم فيه عمليات التفاعل الاجتماعي وعلى نوع العلاقة التي تصل ما بين المتفاعلين في ذلك الموقف، ومعلوم أن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الحياة بمفرده، وهو دائمًا في حاجة إلى التواصل مع الآخر من أجل تحقيق ذاته لكي يشعر بالسعادة لانتمائه إلى آخرين مما يكسبه الشعور بالثقة في نفسه وفي قدراته، ومن ثمّ يصبح قادرًا على العمل والعطاء، فعلاقتنا مع غيرنا قد تكون

1 بدر أحمد وزميلتيه: أمل شمس، ريم إبراهيم، مفهوم الذات وصورة الآخر لدى عيّنة من الأحداث المودعين بمؤسسات الأحداث بالقاهرة الكبرى، مجلة العلوم البيئية، معهد الدراسات والبحوث البيئية - جامعة عين شمس، ص 143.

2 المليجي، حلمي: علم النفس المعاصر، ط 2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1972، ص 78.

3 إسماعيل، محمد عماد الدين: كيف تعمل الجماعات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص 25.

مصدرًا للشعور بالرضا أو عدم الرضا، أو قد نشعر بالنجاح أو الفشل، وبقدر فهمنا للآخر نستطيع التعامل معه بصورة إيجابية وإذا فشلنا فإنه يرجع لعدم إدراكنا له¹.

وقد عُني العالم "ماكس فيبر" بالدور الاجتماعي؛ إذ يشكّل العامل الرئيسي لنظريته الاجتماعية وذلك لأنه يُعرّف علم الاجتماع في كتابه الموسوم "نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي" بالعلم الذي يفهم السلوك الاجتماعي ويفسره، ويعني فيبر بالسلوك الاجتماعي أي نشاط أو حركة يقوم بها الفرد والتي تكون لها علاقة مباشرة بوجود الأفراد الآخرين في المجتمع، علمًا بأن سلوك الفرد يعتمد على ثلاثة شروط رئيسية، هي:

1. وجود الدور الذي يشغله الفرد والذي يُحدّد طبيعة السلوك الذي يقوم به.
2. استعمال الرموز السلوكية والكلامية واللغوية المتعارف عليها من قبل الأفراد عند القيام بالسلوك.
3. وجود علاقة اجتماعية تربط شاغل الدور مع الآخرين عند حدوث السلوك.

ويعد السلوك الإنساني "وسيلة اتصال الفكر وانتقاله بين الأفراد والجماعات وهو الذي يؤدي إلى تباين الجماعات والمجتمعات ويكون شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتضمن العادات والمعتقدات والتقاليد والمعايير والقيم والممارسات التي تعد بمثابة نظام غير رسمي بحكم حياة الأفراد"².

وعلى الجانب الآخر فإن "العادات والقيم تؤثر على السلوك الإنساني بما تتمتع به من قوة تلزم الأفراد الإتيان بسلوك معين. وينظر علما البيولوجيا والطب إلى دورة الحياة من خلال الكائنات الحية العضوية التي تنمو وتتحرك من الميلاد إلى الموت في أطوار محددة، وإلى الإنسان من خلال السلسلة الوراثية"³.

1 البهي، فؤاد السيد: علم النفس الاجتماعي، ط 3، دار الكتاب الحديث - مصر، 1980، ص 112.

2 العشماوي ميرفت، وعثمان: دورة الحياة - دراسة للعادات والتقاليد الشعبية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 2015، ص 7.

3 عبد العزيز، سعاد محمد: عادات دورة الحياة دراسة فلكلورية لقبيلة المحس النوبية، رسالة دكتوراه، كلية البنات، جامعة عين شمس، 1992، ص 3.

وترتبط دورة الحياة بالعادة والتقاليد الشعبية، "فالعادات الشعبية هي السلوك المكتسب الذي يشترك فيه أفراد المجتمع، وهذه العادات هي معايير يُنظر إليها على أنها ذات قيمة اجتماعية من شأنها أن تحدث رد فعل في المجتمع"¹.

والجدير بالذكر أنَّ العادات والتقاليد الشعبية متنوعة ومتعددة، منها ما يتعلق بعادة الناس في الميلاد والتربية الاجتماعية والزواج والموت، وأيضًا عادات الفرد في المجتمع المحلي والتي تشمل العلاقات الأسرية والعادات المتعلقة بالمأكل والمشرب وغيرها من العادات التي تندرج تحت ميدان العادات والتقاليد الاجتماعية والشعبية"².

إنَّ الإنسان يتفاعل دائمًا مع البيئة، يؤثر فيها وتؤثر فيه من أجل تحقيق التوافق في المجتمع البشري في مراحل حياته المختلفة، "فكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالثقافة التي تميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات، فهي تتفق معهم في دورة حياة الإنسان من ميلاد الطفل وانتقاله للمدرسة ورحيل أكبر الأبناء أو أصغرهم والزواج والتفكك من خلال موت الزوج أو الزوجة، تعبر عن دورة الحياة"³.

وقد انتشر مصطلح دورة الحياة " في نهاية القرن التاسع عشر في ما يسمى بسلسلة المتغيرات والتحولات في شكل خاضع للكائنات الحية في تطورها بمرور الوقت في المراحل الأولى إلى مراحل مماثلة في تعاقب الأجيال، وهذه الخواص لا يمكن إنقاصها بدورة الحياة فهي أشكال تتابع وتطور مراحل النضج والتناسل والتكاثر وهي الأساس التي تحدّد التنوع الذي يسيطر على دورة الحياة، وجاء مفهوم دورة الحياة لدراسة الأسرة والقرابة"⁴.

1 أحمد، نيرفانا فريد وآخرون: التغيرات في نسق القيم وعادات دورة الحياة، دراسة أنثروبولوجية على قبيلة السواركة بشمال سيناء، مجلة العلوم البيئية، المجلد 49، العدد 2، ج5، 2020، ص 3.

2 مصطفى، فاروق أحمد وإبراهيم، محمد عباس: الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2011، ص 25.

3 ليلة، علي: البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة عين شمس، القاهرة، 2008، ص 72.

4 أحمد، نيرفانا فريد وآخرون: التغيرات في نسق القيم وعادات دورة الحياة، دراسة أنثروبولوجية على قبيلة السواركة بشمال سيناء، مجلة العلوم البيئية، المجلد 49، العدد 2، ج5، 2020، ص 9.

وعلم النفس هو " العلم الذي يدرس سلوك الكائن الحي، وما وراءه من عمليات عقلية، ودوافعه، ودينامياته وآثاره، دراسة علمية يمكن على أساسها فهم السلوك وضبطه والتنبؤ به والتخطيط له، والسلوك هو أي نشاط جسمي أو عقلي أو اجتماعي أو انفعالي يصدر من الكائن الحي نتيجة لعلاقة دينامية وتفاعل بينه وبين البيئة المحيطة به"¹.

وفي علم النفس، تطورت أفكار بارسونز في نظرية البنائية الوظيفية. وتركزت هذه النظرية على الوظيفة الأنثروبولوجية كطبيعة تكملية لفكره الأساسي. كما ركز الاتجاه البدائي الوظيفي على عدد من المفاهيم والمصطلحات، والتي في المجمل تمثل اشتقاقات لمفهومين رئيسيين: النسق الاجتماعي والنسق الوظيفي. ويرون أصحاب هذه النظرية أن الفرد هو جزء من بنية اجتماعية، تشبه جسم الإنسان الذي يتكون من مئة وثلاثة وعشرين عضوًا، حيث يقوم كل عضو بوظيفة محددة. وتتكامل هذه الأنساق ويحكمها تنظيم اجتماعي يحمل قيم ومعايير لتهديب رغباتها وضبطها، وذلك من خلال نظام مكافآت وعقوبات. ويُعتبر الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع نتيجة ترشيد إنتاج المعرفة المتعلقة بالمجتمع، وعند استكمالها يأخذ دورًا رائدًا في توجيه حركة العلم نحو بناء نظرية متكاملة تساعد على فهم المجتمع².

كما استعار علماء الاجتماع مصطلح (الدور) من المسرح للإشارة إلى مجموعة من المعايير التي تحكم سلوك الأفراد في البناء الاجتماعي، وتتألف هذه المعايير من توقعات الآخرين التي لا تتعلق فقط بكيفية أداء الفرد لدوره، ولكنها تشتمل أيضًا على الحاجة للتعامل مع الآخرين ومشاعرهم أثناء أداء دورهم، و تقتض هذه النظرية أن الكثير من السلوك البشري يتوافق مع توقعات المجتمع والأدوار الاجتماعية التي يحتلها الأفراد في البناء الاجتماعي. وبسبب ذلك، فإن هذه التوقعات تؤثر في سلوك الأفراد وتحثهم على السلوك المتوقع منهم. وتعد ممارسة الدور مفتاحًا في آلية التفاعل لأنها تسمح للأشخاص الرؤية الشاملة لمواقف الآخرين والمجموعات بطرقٍ قد لا يعرفها الآخرون، وبواسطة ممارسة الدور والسلوك المناسب، يمكن للأفراد استخدام نقطة نظر

1 زهران، حامد عبد السلام: علم نفس النمو، دار المعارف، 1986، ص 9 - 10.

2 ينظر: شتا السيد علي، نظرية الدور والمنظور الظاهري لعلم الاجتماع، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2003، ص 42 .

الآخرين والمجموعات كمرجعية لتوضيح الحالات وتعريفها قبل اتخاذ الإجراء المناسب. وبهذه الطريقة، يمكن للتنسيق تكييف استجابة كل فرد للآخرين وللمواقف الاجتماعية¹.

ويُعتبر نمو الإنسان ضمن علم نفس النمو الذي يدرس "سلوك الأطفال والمراهقين والراشدين والشيوخ ونموهم النفسي منذ بداية وجودهم أي منذ لحظة الإخصاب إلى الممات. والنمو سلسلة متتابعة متكاملة من التغيرات تسعى بالفرد نحو اكتمال النضج واستمراره وبدء انحداره، إذ يُعتبر العملية التي تفتح خلالها إمكانيات الفرد الكامنة وتظهر في شكل قدرات ومهارات وصفات وخصائص شخصية، وعندما ننظر إلى النمو من الجانب النفسي فهو يتضمن التغيرات الجسمية والفسولوجية من حيث الطول والوزن والحجم، والتغيرات التي تحدث في أجهزة الجسم المختلفة، والتغيرات العقلية المعرفية، والتغيرات السلوكية الانفعالية والاجتماعية التي يمر بها الفرد في مراحل نموه المختلفة"².

وقد وجّه تصنيف مراحل النمو تقسيم القرآن لها، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾³ وقد عبّر القرآن الكريم عن مراحل نمو الإنسان وقسمها إلى ثلاث مراحل مرحلتين للضعف بينهما مرحلة قوة، إذ إن مرحلة القوة تمثلت في مرحلة الرشد أما مرحلة الضعف الأولى تمثلت في ضعف الطفولة والصبا والشباب، وهو ضعف التحول إلى الرشد، وأما مرحلة الضعف الثانية تمثلت في ضعف الشيخوخة والهرم، فهو ضعف التحول عن الرشد.

حيث إنّ "المجتمعات البشرية تشبه إلى حد كبير في مراحل نموها وتطورها حياة الكائن الحي حيث يمرّ في نموه بثلاث مراحل (الطفولة والشباب والكهولة) ومثل آخر (الضعف ثم القوة ثم الضعف)، وهذه المراحل تكاد تنطبق مع ما نطلق عليه "دورة الحياة" بالنسبة للإنسان، والتي تشمل الميلاد والزواج وتنتهي بالوفاة، والمجتمعات البشرية تجدد نفسها عن طريق التناسل، بمعنى أن تأتي أجيال تلو أجيال أخرى"⁴.

1 ينظر: شتا السيد علي، نظرية الدور والمنظور الظاهري لعلم الاجتماع، ص 42.

2 زهران، حامد عبد السلام: علم نفس النمو، دار المعارف، 1986، ص 11 - 12.

3 القرآن الكريم: سورة الروم، الآية 54.

4 حنا، نبيل صبحي: المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1984، ص 107.

وفي كل مرحلة من مراحل نموّ الإنسان يسير هذا النموّ بشكل متسلسل، فتتميز كل مرحلة بخصائص معينة تؤثر في المرحلة اللاحقة وتتوقف عن المرحلة السابقة إذ إنّ لنمو الإنسان مظهرين رئيسيين هما:

- "النمو العضوي (التكويني): يُقصد به نمو الفرد من حيث الطول والوزن والحجم والشكل والتكوين بصفة عامّة نتيجة نمو هذه الأبعاد المختلفة،

- النمو الوظيفي (السلوكي): يُقصد به نمو الوظائف الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية لتساير تطور حياة الفرد، واتساع نطاق بيئته...

وعلى هذا يشتمل النمو بمظهريه السابقين على تغيرات كيميائية وفسولوجية وطبيعية ونفسية واجتماعية.¹

ومن هذا المنطلق سوف ندرس الملامح الفارقة لمراحل النمو عند نقولا زيادة وسلوكه الاجتماعي في كل منها، بدءًا من الطفولة وانتهاءً بمرحلة الكبر.

1 البهي، فؤاد السيد: الأسس النفسية للنمو، ط1، دار الفكر العربي، 1956، ص 5 - 6.

○ ملامح أيام الطفولة والصبا

تُعَدُّ مرحلة الطفولة فترة مهمة في تطور الإنسان، حيث تحدث تغيرات كبيرة في النمو الجسدي والعقلي والاجتماعي العاطفي. ففي هذه المرحلة يتعلم الأطفال العديد من المهارات والمفاهيم الأساسية التي تؤثر في تشكيل هويتهم وشخصيتهم فيما بعد حيث إن "المناخ الأسري أهمية بالغة في إتيانه في مقدمة عوامل البيئة الاجتماعية التي ينمو في إطارها الفرد وتتشكل فيها الملامح الأولى لشخصية الفرد وسلوكه الروحي وهو المصدر الأساسي لإشباع حاجاته واستثارة طاقاته وتنميتها من خلال التفاعل والتعايش مع الأسرة. ودور الأسرة يستمر مع الفرد في جميع مراحل عمره ويمتد أثره مدى الحياة"¹.

ومعلوم أن مرحلة الطفولة هي فترة تمتدّ "من ميلاد الطفل حيّاً حتى بلوغه الجنسي مطلع المراهقة، وهي فترة زمنية يبلغ طولها نحو اثنتي عشرة سنة، تطرأ فيها على الطفل تغيرات هائلة تمثلها المقارنة البسيطة بين وليد عمره بضعة أيام وصبي عمره بضعة أعوام. فالكائن العاجز الضعيف الصغير يتحول بمعدلات متفاوتة السرعة إلى شخص له قدرات مختلفة في المجال الحركي واللغوي والمعرفي، ناهيك عن الوعي المتزايد بالعالم المحيط به، والقدرة على معالجته بطرق مختلفة، والاستجابة له بمختلف العواطف والمشاعر والانفعالات، والتصدي لمشكلاته بالحل"².

ويتزايد في هذه المرحلة الطول والوزن بشكل مطّرد وسريع. أما عن محتوى كلام الطفل فإنه أقلّ تمركزاً حول الذات. "ينسجم النمو الاجتماعي في مرحلة الطفولة باتساع عالم الطفل وزيادة وعيه بالأشخاص والأشياء، وفي هذه المرحلة يزداد اندماج الأطفال في كثير من الأنشطة، فهم يتعلمون الجديد والمتنوع من الكلمات والعناوين والأفكار والمفاهيم، ويمرّون بخبرات جديدة مع العالمين الفيزيائي والاجتماعي وهذا التعلّم يهيئ للطفل الأرضية المناسبة للتحوّل إلى كائن اجتماعي"³.

1 جبريل، فاروق: المناخ الأسري والجامعي المدرك والمأمول وعلاقتها بالذكاء الروحي لدى طلاب الجامعة، رسالة ماجستير، جامعة المنصورة، 2014، ص 4.

2 صادق آمال، وأبو حطب فؤاد، نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، 1999م، ص 189.

3 المرجع نفسه ، ص 241.

تتأثر مرحلة الطفولة بالعديد من العوامل المحيطة بالطفل بما في ذلك الأسرة والمدرسة والمجتمع. لذلك، فإن البيئة التي ينشأ فيها الطفل والتجارب التي يخوضها تلعب دورًا هامًا في تشكيل تجربته الطفولية "فيتأثر سلوك الفرد خلال مراحل حياته بخبرات طفولته المبكرة"¹، فأبرز ملمح من ملامح مرحلة الطفولة التي نراها في سيرة نقولا زيادة ورحلاته هو ملمح الأسرة حيث ساعدت على تشكل ذات نقولا زيادة وبناء الأساسيات في تكوين شخصيته وفقًا لما نشأ عليه من مبادئ و عادات تعيش معها وعاصرها مع أسرته.

- ملمح الأسرة:

تقوم الأسرة بتزويد الطفل بمختلف الخبرات أثناء سنوات تكوينه "وهي تمثل أكبر قوة اجتماعية، لها قوة التأثير وتنمية الشعور بالإلفة والمحبة والشعور بالانتماء للأسرة والمجتمع الخارجي، وإن عملية الاتصال داخل الأسرة تنشط انتقال العادات والاتجاهات من الآباء إلى الأطفال، وتؤثر تأثيرًا دائمًا وعميقًا في تكوين شخصية الطفل"² باعتبار الأسرة هي "الوسط الإنساني الأول الذي ينشأ فيه الطفل، ويكتسب في نطاقها أول أساليبه السلوكية التي تمكنه من إشباع حاجاته وتحقيق إمكانياته وتوافقه مع المجتمع وهي التي تشكل بنية الشخصية بشكل مباشر وغير مباشر:

- بشكل مباشر: عن طريق التربية المقصودة القائمة على تعليم الأبناء السلوك الاجتماعي وتكوين القيم والاتجاهات.

- بشكل غير مباشر: عن طريق المناخ الأسري الذي يسوده الأسرة وألوان التفاعل بينهم وأيضًا السلوكيات التي يحاول الأطفال محاكاتها وتقليدها."³

1 محمد، علي: أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بتقدير الشخصية وتوكيد الذات لدى الأطفال المصابين باضطراب القراءة، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، 2008، ص 95.

2 الناعمة، عمار: العلاقة بين المناخ الأسري والأفكار اللا عقلانية، دراسة على طلاب المرحلة الإعدادية، رسالة ماجستير، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، 2004، ص 13.

3 عبد العال، فايزة: المناخ الأسري للأطفال المعاقين عقليًا القابلين للتعليم وعلاقته بالسلوك التكيفي لديهم، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المنصورة، 2012، ص 11.

ويؤدي الوالدان دورًا أساسيًا في عملية نمو الطفل، الذي يتطلب توافر مناخ أسري ملائم لإشباع الحاجات البيولوجية والنفسية للطفل¹، فالوالدان هما العنصران الأساسيان اللذان تركز عليهما الأسرة فكل ما كان جو الأسرة هادئًا ساعد على بناء شخصية طفل سليم الذات، فمثلاً عند تسليط الضوء على أسرة نقولا زيادة لم نر هناك تعارضًا بين سيطرة الأب مع سيطرة الأم، فلم نر ضياع نقولا زيادة وتحيره في اختيار الدور الذي يقلده هل دور أمه أم دور أبيه ؟ كون الجو العام السائد في أسرة نقولا زيادة لم يكن سوى جو هادئ تسعى دائمًا فيه الأسرة لتوفير حاجات أبنائهم الأساسية، فنرى أن والد نقولا زيادة تحمل عبء العمل ليسهم في تشكل ذات نقولا زيادة وتطورها.

ولا شك أن الأمر المهم بالنسبة للفرد في حياته هما والداه، حيث يكون له علاقة وثيقة بهما ويشعر بالأمان والحاجة لهما، ومنهما يتعلم الكثير ويتأثر بسلوكه في المستقبل عن طريقهما، كما يأخذ العادات والتقاليد من المجتمع الذي يعيش فيه، ويتعلم العلاقات الاجتماعية وتاريخ بلده منهما. إضافة إلى تعلمه تنظيم علاقاته مع الآخرين من خلال أوامرهما ونصائحهما، وتزرع فيه هذه التوجيهات الثقة بالنفس، وعندما يصبح الفرد مستقلاً عن والديه، قد يكون له علاقات صداقة خارج الأسرة التي قد تؤثر على حياته المستقبلية، فهما اللبنة الأساسية في تكوين ذات الفرد.

ونشأة نقولا زيادة مع والديه في بداية حياته أكسبه ذلك أي أكسبه العديد من الأفكار، مثل فكرة الصواب والخطأ والخير والشر من خلال توجيهاتهما وأوامرهما، كما تعلم منهما السلوكيات التي يجب عليه اتباعها إضافة إلى معرفته عن واجباته وحقوقه، وكل هذا اكتسبه نقولا زيادة وهو صغير السن فقد تحمل على عاتقه مسؤوليات عدة في تضحياته كتضحيته بأن يسكن مع خاله بعيداً عن والدته بعد وفاة والده.

حيث تركز السيرة الذاتية لنقولا زيادة في مرحلة طفولته على هذا الأمر أي علاقته بوالديه وأفراد أسرته وما يقدمانه له من نصائح وإرشادات وتوجيهات، كالإجابة عن تساؤلاته ونقل القيم والتقاليد الثقافية والدينية والعائلية له، وقد ذكر نقولا زيادة في سيرته الذاتية عادات وتقاليد المسيح الدينية في الاحتفاظ بنسخة من الكتاب المقدس وتدوين التواريخ المهمة بداخله كتاريخ الزواج و.. إلخ، فقد قال: " أما التفاصيل عن تاريخ الزواج

1 ينظر: جبريل، ثريا: الخدمة الاجتماعية في مجال الأسرة والطفولة، القاهرة، دار السعد، 1993، ص 203.

وتواريخ ولادتنا جميعًا فقد كانت مدونة على الجلدة التاريخية لكن من الداخل للكتاب المقدس الخاص بالعائلة فقد كان هذا تقليدًا في كثير من الأسر المسيحية وهو أن يحتفظ كل بيت بنسخة من الكتاب المقدس يسجل فيه رب الأسرة أول ما يسجل تاريخ زواجه، ثم يدون تاريخ ميلاد كل من الأطفال.....¹ فنستج من هنا أن عائلة نقولا زيادة كان لديها تربية مسيحية صارمة ساهمت في تأثر نقولا زيادة بالمعتقدات وكونت له العديد من الأخلاق كالأمانة والعدل والتسامح التي كانت بارزة في العديد من المواقف في سيرته الذاتية ورحلاته... إضافة إلى أن التعليم يعد من القيم التي قد تم ترسيخها عند نقولا زيادة من قبل أسرته عن طريق تشجيعه على القراءة والتعلم في طفولته.

وقد لعبت العلاقات العائلية دورًا مهمًا في تطوّر شخصيته خلال سنوات طفولته، حيث عبّر عن مشاعره بما فيها الحب والتعلق العميق الذي أحسّ به تجاه خالته عندما قال: " كنتُ أحبُّها وقد زعلت جدًا لما تركت دمشق و ذهبت لتعيش في الناصرة لكن مصيبتني الكبيرة جاءت لما مَرِضت بالكوليرا ومَرَضَتْها أنا بنفسِي وسجَّيْتُها في التابوت لقد ماتت صوفيا ²، بالإضافة إلى التوترات العائلية التي كان لها أثر حاسم في نمو شخصيته وخاصة بعد وفاة والده مما أدّى إلى اضطراب الأسرة نتيجة اضطرابها لبيع أثاث البيت لتأمين سبل العيش وتوفير الاحتياجات اليومية " وَفَتَّحتُ أُمِّي بيت الفرشة التي كانت تجلس على طرفها، و أخرجت منها قطعة قماش ملفوفة على شيء، و أخرجت هذا الشيء من الغلاف، كانت ليرة عثمانية ذهبية. وقالت: هذا كل ما معنا يا نقولا ! ³.

إن الأسرة تقوم بدور يفوق وظيفتها الاجتماعية، فهي تسهم في تكوين شخصية أفرادها، وتسهم في تشكيل العديد من السمات الإيجابية لدى الطفل مثل التعاون والإحسان والثقة بالنفس والأمان والارتياح. ومن الجانب الآخر، قد يتبع الطفل سلوكيات سلبية مثل العدوان والانطواء. وتعتمد هذه السمات على استقرار الأسرة، حيث تلبي الأسرة المستقرة احتياجات الطفل من الاحترام والتقدير والرعاية، مما يجعله سعيدًا ويتميز

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص14 .

2 المرجع نفسه، ص 16 .

3 المرجع نفسه، ص 29 .

بسلوك اجتماعي إيجابي بينما تكون الأسرة غير المستقرة مصدر اضطراب للطفل¹. وهنا نتساءل هل كانت أسرة نقولا زيادة مستقرة أم كان يشوبها عدم الاستقرار؟

ونحن إن أمعنا النظر في حياة نقولا زيادة فنراه مستقرًا عائليًا من ناحية وجود الأم والأب معًا وعدم وجود خلافات فيما بينهما إلا أنه لم يكن هناك استقرار في نواح عدة فمثلاً: كثرة تنقل مسكن الأسرة بسبب تغير مكان عمل والد نقولا زيادة جعلها غير مستقرة من ناحية المكان، فقد كان الاستقرار يهدد نقولا زيادة منذ طفولته وقد حدث ذلك أكثر وأكثر بعد وفاة والده وأصبح عدم الاستقرار يهدد العائلة مما جعل نقولا زيادة يعيش بمعزل عن والدته وإخوته بسبب ضيق أحوال العيش وعدم تمكن والدته من تحمل المسؤولية، فكل هذا جعل ذات نقولا زيادة تعيش في دائرة عدم الاستقرار في المكان ورغبتها في كثرة التجول والتنقل والعيش مع الكتب والنفس.

ومن المعلوم أن الأسرة تُعدّ من أهم عوامل التنشئة الاجتماعية للطفل، فهي "الممثلة الأولى للثقافة وأقوى الجماعات تأثيراً في سلوك الفرد. وللأسرة وظيفة اجتماعية بالغة الأهمية فهي المدرسة الاجتماعية الأولى للطفل، وهي العامل الأول في صبغ سلوك الطفل صبغة اجتماعية، وتشرف على النمو الاجتماعي للطفل وتكوين شخصيته وتوجيه سلوكه كما أنها المسؤولة الأولى عن تنشئة الطفل اجتماعياً"². فيرى عزت الطويل "أنّ الحاجات النفسية لا تشبع إلا في إطار اجتماعي، وأسرة الطفل هي البيئة الاجتماعية التي يمكنها أن تتيح للطفل فرصة لإشباع حاجته النفسية المختلفة، ومن هذه الحاجات الحاجة إلى التقدير الاجتماعي، وهي حاجة ضرورية لكل فرد، ويتميّز نجاح الفرد فيها وقبوله في المجتمع بأن يتميز بالتقدير والاحترام من الآخرين. ومن الحاجات النفسية أيضاً الحاجة إلى الانتماء، وتبدو هذه الحاجة من خلال أفراد الأسرة بوجه عام، وعلاقة الطفل بأسرته بوجه خاص. وإذا عملت الأسرة على إرضاء حاجة الفرد إلى الانتماء، وشعور الفرد بالانتماء إلى جماعة معينة زاد ولاؤه وشعوره بأنه جزء منها"³.

1 ينظر: السيد، سحر: المناخ الأسري وعلاقته ببعض أشكال السلوك الاجتماعي الإيجابي لدى الأطفال، رسالة ماجستير، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، 2007، ص 17.

2 زهران، حامد: علم النفس الاجتماعي، ط2، عالم الكتب - القاهرة، 2005، ص 222 - 223.

3 الطويل، عزت: معالم علم النفس المعاصرة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص 261 - 263.

وقد كان نقولا زيادة يشعر بذلك الانتماء العائلي والأسري، ويصف علاقاته مع الآخرين كوصفه لصدافته وعلاقته مع الأصدقاء والأقارب، موضحاً كيف أثرت تلك العلاقات الاجتماعية على تحقيق احتياجاته وانخراطه في المجتمع حيث كانت سبباً من أسباب تطوره الشخصي، ومن ذلك أنه تطرق إلى علاقته مع صديقه فريد الذي قضى معه فترة من الوقت، فقال عنها: "...إن الأوقات التي قضيتها هناك كانت سعيدة، البيت كبير، وفريد صديق عزيز علي، وعمي أسعد وزوجته ثلجة كانا يعاملاننا كما لو كنا أخوين، مواعيد الدرس والنوم واللعب جميعها معينة معروفة..¹ فكلّ هذا ساعد على تكوين ذات نقولا زيادة في اكتسابه ثقافات المجتمع الواحد.

فتوضح العلاقات الودية الجيدة وتجارب الصداقة في مرحلة الطفولة تأثيرها في تطوير الذات دون النظر إلى المصلحة الشخصية، كما أن تجاوز صعوبات الحياة تعتمد على الظروف القاسية أو المؤلمة التي مرّ بها الفرد في طفولته، وهذه الظروف يمكن أن تؤثر في مراحل حياته الأخرى.

فهناك علاقة وثيقة بين نقولا زيادة والبيئة التي نشأ عليها في مراحل طفولته الأولى وتأثيرها في مشاعره، فقد عبّر عن الفقد والفراق الذي كان يُعَدُّ هاجساً لديه فقد قال: "...العنصر الأول في حيرتي كان فَقْدُ والدي. الموت أمر واقع لا يمكن دفعه و لكن كنت أحس بفقد الأب عندما كنت الأولاد من جيلي ينادون (يا بابا) ويا (أبي) ويا (بابا) كنت أحس أنني حرمت حقاً طبيعياً كان يجب أن أتمتع به بعض الوقت كما كان أصحابي في المدرسة في جنين يتمتعون بذلك..² وليس فقد والده أثر على نفسيته بل كان الموت وفقد الأحباب يسيطر على مخيلة نقولا زيادة بداية من فقد أخيه قسطنطين و فقد خالته صوفيا، وهذه الصعوبات التي مرّ بها قد كوَّنت شخصيته، ولكنها أثرت عليه في المستقبل، إذ ظلت مشاعر الخوف من الفقد تراوده دائماً.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص18 .

2 المرجع نفسه، ص82 .

ومن المعروف أن نقولا زيادة قد اكتسب مشاعر الأمن والتقدير والحب والانتماء من والديه، وهذه المشاعر هي التي ساعدته في بناء علاقات مع الأشخاص المحيطين به " ومع اتساع العالم الاجتماعي للطفل يقلّ تعلّق الطفل بالوالدين تدريجيًا، وتحلّ محله علاقات يكونها الطفل مع أطفال آخرين خارج نطاق الأسرة، وعادة ما تكون الخبرات الاجتماعية للطفل خارج المنزل مصدر اضطراب انفعالي له وخاصة إذا كان أصغر من الأطفال الآخرين، ونجاح الطفل في التكيف مع العلاقات الاجتماعية الخارجية يتأثر بنوع الخبرات الاجتماعية التي يتلقاها داخل المنزل، فالأطفال الذين تتّمتّ تنشئتهم اجتماعيًا بالمنزل يحققون تكيّفًا اجتماعيًا خارجيًا أفضل من غيرهم. كما أن طبيعة علاقات الطفل مع إخوته تؤثر في تكيّفه الاجتماعي الخارجي.¹ فيحدث في مرحلة الطفولة "نمو اجتماعي سريع حيث ينتقل الطفل بسرعة من كائن متمركز حول ذاته أنانيّ تتميز تصرفاته الاجتماعية بالصراع الدائم إلى كائن متعاون وعضو متوافق في جماعة اجتماعية تتكوّن مع أقرانه."²

فقد كانت حياته حياة اجتماعية بسبب اعتياده على العيش مع الآخرين بعيدًا عن والديه مما أدى إلى انخراطه في المجتمع وتكوين علاقات اجتماعية بشكلٍ أسرع، فقد كان نموه نموًا سريعًا مطردًا حاله كبقية الأطفال إلا أنه لم يتحدث عن هذا بشكل مفصل ولكن يمكن أن نستشف ذلك من خلال العبارات التي ذكرها في سيرته الذاتية حول مسألة الجنس واشمئزازه من ذلك.

وأثرت البيئة في مشاعر نقولا زيادة وفي تكوين شخصيته و عبّر عن ذلك بقوله: " في نفسي صورتان مرتبطتان بهذا المسكن الأولى هي وفاة أخي قسطنطين..... أما الصورة الثانية تتعلق بالطبيب الذي عالج أخي وهو مريض.... فكيف للدكتور الذي يعالج المرضى ويشفيهم أن يموت هو ؟..."³.

1 صادق آمال، وأبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 241.

2 المرجع نفسه، ص 264.

3 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 15 .

والجدير بالذكر أن مرحلة الطفولة هي أساس بناء شخصية الفرد دينامياً ووظيفياً، "وهي الفترة التي تمتد من الطفولة المبكرة حتى سن السادسة، وهي فترة التحولات المعرفية واللغوية والانفعالية والنفسية والاجتماعية والجسمية، وفيها يتعلم الصواب والخطأ ويواجه صعوبات في الفهم، وهناك طفولة متأخرة تبدأ من سن السابعة حتى الثانية عشرة، وهي فترة تتسم بالتعلم والتهديب وبناء العلاقات مع الوالدين والأصدقاء، وإشغال المكنات وأداء الأدوار وتعلّم الوظائف التي تمكّن الطفل من الاستعداد لمرحلة الشباب"¹.

ومن المعلوم أن في مرحلة الطفولة "يتعلّم الطفل أن يفكر في ذاته ويشعر بنفسه كما تحدّد بالآخرين، وتنمو صورته عن نفسه أو مفهومه لذاته من طريقة معاملته من جانب والديه وغيرهما من الآخرين كالأخوة والأقارب، وإدراكه هو لمفهومهم عنه، وهكذا تحدد العلاقات الأسرية خاصة طبيعة مفهوم الذات"²، حيث تبدأ الذات بالتكوّن لدى الفرد منذ سنّيه الأولى، "وهناك الكثير من العقبات التي يواجهها الفرد في طريقه لتوكيد ذاته، فمثلاً قد يتولد لدى الفرد شعور بالنقّة أو بعدمها تجاه الآخرين، ويرجع ذلك لطبيعة إشباع الأسرة لحاجاته: أكانت بشكل صحيح أم غير صحيح؟ فقد يكون لطبيعة تعامل الأسرة دور في نجاح الفرد أو فشله بالاعتماد على نفسه والاستقلال عن الآخرين، وتوكيد ذاته حيث يستمر نمو الذات وتطورها لدى الفرد في خلال مراحل نموه المختلفة، مثل مرحلة المراهقة التي يحدث في نهايتها تعديل فيها للذات نتيجة لدعم الوالدين لقدرات الفرد واستعداداته، حتى في مرحلة الشباب وما يمرّ به الفرد من صراعات لتحقيق الذات أو عدمه، فنجد أنّ للوالدين دوراً فعالاً في تنمية الفرد وتوكيده لذاته"³.

1 العزام عبد الباسط عبد الله، و مهيدات ميس أكرم: تحولات مفهوم الذات عبر مسار الحياة في المجتمع الأردني: دراسة سوسيولوجية بين جيلية، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، 2021 م، ص 182.

2 صادق آمال، وأبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 244.

3 عبد العلي، مهند: مفهوم الذات وأثر بعض المتغيرات الديموجرافية وعلاقته بظاهرة الاحتراق النفسي لدى معلمي المرحلة الثانوية الحكومية في محافظتي حنين ونابلس، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، 2003، ص 32.

ويُعَدُّ تأكيد الذات خاصية إنسانية أساسية يحتاج إليها الإنسان في العديد من مواقف الحياة... كما يعدُّ تأكيد الذات من السلوكيات التي تساعد صاحبها "على مواجهة الآخرين والدفاع عن الحقوق الخاصة والإقدام الاجتماعي وتوجيه النقد والمساومة والدفاع عن الحقوق العامة وإبداء الإعجاب وعدم التورط خجلًا والقدرة على الاختلاف والاعتراف بحدود الذات والاستقلال بالرأي وضبط النفس..."¹.

وهذا ما نراه واضحًا في شخصية نقولا زيادة حيث إنَّه كان لديه إحساس قوي بتقييم ذاته إضافة إلى أنه كان يتواصل مع الآخرين بصدق ووضوح، وعندما يشعرُ بالإزعاج يواجه الأمر بطرق فعّالة، وكان يتحمل مسؤولية قراراته ويعترف بأخطائه، فكلّما كان الشخص معزرا ذاته "اتسم بالاتزان الانفعالي لأنَّ تأكيد الذات يُعَدُّ مظهرًا خارجيًا لاتزان انفعالي أعمق، حيث إنَّ الشخص التوكيدي يستطيع التعبير عن مشاعره وانفعالاته أيًا كان نوعها سلبية أم إيجابية بصورة متزنة وثابتة، إذ ثمة علاقة متبادلة بين تأكيد الذات والاتزان الانفعالي، فالفرد الذي يتمتع بالاتزان الانفعالي يمكنه التعبير عن مشاعره وآرائه بصراحة تلقائية مع ثقة بالنفس وتوافق مع الذات ومع البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، ويمكن ضبط انفعالاته في مواقف التفاعل الاجتماعي"²، وهذا ما نلاحظه من خلال المواقف التي تعرض لها لنقولا زيادة في مرحلة الطفولة، حيث كان يعاني من مشاعر الخوف من المدرسة، فهو كان يظن عند ذهابه إلى المدرسة سيبقى هناك ولن يرجع وهذا ناتج عن الارتباط الجيّد بأسرته نتيجة معاملتهم الإيجابية له، فقد ذكر أنه "هل يتصور القارئ ما الذي شعرت به، وبل خفت منه، لما جاء الوقت للذهاب إلى المدرسة خشيت أن لا أعود وقد بكيت كثيرًا. أما كيف أزيلت عقدة الخوف من المدرسة من نفسي، فأمر لا أدريه...."³.

1 شوقي، طريف: تأكيد الذات مدخل لتنمية الكفاءة الشخصية، القاهرة - دار غريب، 1998، ص 74.

2 عبدالعظيم، طه: مهارات تأكيد الذات، الإسكندرية - دار الوفاء، 2006، ص 32.

3 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص15 .

وقد تتوقف المهارات التي يتعلمها الطفل في هذه المرحلة على البيئة التي يعيش فيها وعلى فرص التعلم المتاحة له وعلى ما يتعلمه من محيطه الاجتماعي. وخلال فترة الطفولة، يزيد الحصيلة اللغوية العامة للفرد بشكل كبير من خلال دراسته في المدرسة وقراءته والاستماع إلى الآخرين والراديو ومشاهدة التلفزيون، حيث يتعلم الطفل الكلمات التي يستخدمها في حديثه وكتابته¹.

ونحن بإزاء أن نتساءل: هل يا ترى نقولاً زيادة عاش طفولته كما الأطفال الآخرين في تلبيه احتياجاته وإعطائه حقاً في اللعب وغيره من الحقوق؟ وللإجابة عن ذلك نقول إنه عاش ولكن ليس في مرحلة الطفولة، لقد عاش وهو أكبر من عمره وتحمل مسؤوليات كبيرة على عاتقه وهو ما زال في مرحلة طفولته. إلا أن هذه المعاناة قد شكلته وكونته شخصياً، فعلى سبيل المثال، لقد أثرت المدرسة في جعله مميزاً كونها المكان الذي يكتسب فيه الطفل الكثير من المعلومات والمعارف والمهارات والقيم والاتجاهات. وليس هي فحسب، بل كانت أيضاً مكتبة خالته، والكتب التي قرأها منذ صغره شكلت له حصيلة لغوية ساعدته في تعلم كيفية القراءة والكتابة والتحدث بطريقة صحيحة، إضافة إلى تعلمه حقائق في التاريخ والأدب والحساب، وأيضاً فنون الرسم والموسيقى وممارسة النشاط البدني... أدى كل هذا لاكتساب المهارات والمعلومات التي لا بدّ له منها في حياته اليومية، فجعلته المدرسة يسير وفق نظام مدرسي له قواعد النظام تهَيّئ له التعامل مع قيم المجتمع.

وهناك عوامل أسرية أيضاً تساعد في تشكّل ذات الفرد منها ترتيب الطفل بين أشقائه في الأسرة إذ تعتبر من العوامل المهمة التي تؤثر على سلوك الفرد وتكوّن شخصيته بشكل عام. وقد يكون منتشرًا أن الأطفال في نفس الأسرة يعيشون في نفس البيئة، لكن هذا ليس الحال دائماً "فترتيب الطفل في الأسرة يجعل لكل منهم بيئة سيكولوجية مختلفة عن بيئة الآخر وهذا التباين في البيئات يأتي من أنّ التفاعل بين الوالدين، وخاصة الأم وكل ابن من الأبناء يختلف حسب موقعه بالنسبة لكل من الوالدين من حيث كم التفاعلات التي يتعرض لها ونوعها".²

1 ينظر: صادق آمال، وأبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 252، وص 255 .
2 جبريل، فاروق: البناء الاجتماعي للأسرة وعلاقته بأساليب المعاملة الوالدية والسلوك العدواني للأبناء، ع 12، ج 2، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، 1989، ص 63.

وعند تسليط هذا الأمر على نقولا زيادة نرى أنه كان الابن الأكبر، وبالتالي تحمل مسؤولية الأسرة منذ صغر سنه، فكان ترتيبه بين إخوته من أحد الأمور التي كوَّنت له طابعاً حول ذاته وكيفية ارتباطها بالآخر، وذلك اتضح لنا من خلال المشاهد التي مرَّ بها في طفولته عندما فقد والده وكأنه أصبح هو رجل المنزل المسؤول عن عائلته رغم صغر سنه.

وباختصار إن أردنا يمكن أن نقسّم مرحلة الطفولة عند نقولا زيادة، وفقاً لثلاثة جوانب وهي كالآتي:

- **في الجانب الجسماني** عند الحديث عن الجوانب الشكلية، نرى أنه لم يذكر عن شكله شيئاً، وربما يعود ذلك إلى أنه حينها لم يهتم لوسامته، إلا أنه ذكر بعد ذلك في مواضع لاحقة ما يدل على وسامته كحادثة جارتهم التي كانت تريد أن يقع في حبها كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول.
 - **وفي الجانب السلوكي** لم يكن يهوى اللعب بقدر ما كان يهوى القراءة، فكانت بيئته الأسرية أساس نشأته وفي تكوين محصوله اللغوي وتكوين ثقافته.
 - **وفي الجانب الاجتماعي** لم تكن لديه صداقات كثيرة بل كانت الأسرة هي المحيط الأساسي له، فهو لم يعيش طفولة كسائر الأطفال وعانى في طفولته ما عاناه رجل طاعن في السن.
- ويتبين من هذا أن مرحلة الطفولة عند نقولا زيادة تضمنت تفاصيل عن الأسرة والبيئة التي نشأ فيها مشيراً إلى العلاقة بينه وبين أفراد أسرته كعلاقته مع خالته صوفيا ومع أخوته ومع خاله وجده، والتأثير الذي كان لهم على حياته مما أدى إلى تطوره، كتعرفه على عدة مبادئ وقيم إضافة إلى تكوين الثقافة وحب التطلع والقراءة لديه، فهو تعلم العديد من القيم والثقافة في طفولته نتيجة أسرته.

كما تضمنت مرحلة طفولته تفاصيل حول التعليم الذي حصل عليه نقولا زيادة في طفولته وقد أشار إلى المدارس التي درس فيها والمعلمين الذين أثروا في حياته الأكاديمية، إضافة إلى ذكره للتحديات التي واجهته في التعليم وكيف تعامل معها، فقد أشار نقولا زيادة في مرحلة طفولته أيضًا إلى الهوايات والاهتمامات التي كانت مميزة له مثل: الأنشطة الرياضية، والحساب، والقراءة والكتابة التي شغلت وقته وأسهمت في تطوره الشخصي، وقد ساعده السفر والتنقل في التعرف على أصدقاء جدد وعلى ثقافات مختلفة اتخذ من المغامرة والاستكشاف عنصرًا في فهم ذاته.

و الجدير بالذكر أن مرحلة الصبا تتدرج وفق مرحلة الطفولة يرى ستانلي هول أن المراهقة تُعدّ "مرحلة الضغوط والعواصف التي تعكس خصائص الانتقال المضطربة في تطور المجتمعات البشرية، وفي رأيه أنّ البيئة لا تؤثر في الميكانيزمات ذات الطبيعة البيولوجية والتي تتحكم في التغيرات التي تحدث في المراهقة"¹، وأكد الباحثون على أنّ "المراهقين في الثقافات المختلفة يتعرضون لخبرات مختلفة، ففي بعض المجتمعات يعزى للأطفال بعض أدوار الراشدين، وفيها يتحدّد الرشد بالبلوغ الجنسي، ولهذا يرى البعض أنّ مفهوم المراهقة بمعناه وخصائصه وحدوده الزمنية صنعته ظروف المجتمع الصناعي الحديث بتعقده وتركيبه"²، إذ إنّ مرحلة المراهقة "مرحلة متميّزة في النمو الإنساني، تعتمد على وجود جماعة من الأفراد في مرحلة ما قبل الرشد وبعد البلوغ الجنسي تجمعهم خبرات مشتركة تجعل منهم نهاية لمرحلة الطفولة"³.

وهي "تعتبر طور بلوغ الحلم وتشمل بداية التغيرات الجسمية المرتبطة بالبلوغ الجنسي واكتمالها وتنتهي في حوالي الخامسة عشرة، وتشمل المرحلة التعليمية التي تسمى المرحلة الثانية من التعليم الأساسي أو المرحلة الإعدادية أو المرحلة المتوسطة أو المرحلة الأولى من التعليم الثانوي حسب أحوال النظام التعليمي وطبيعته"⁴.

وتُعدّ هذه المرحلة حدثًا مهمًا في حياة الإنسان "حين يتغيّر الفرد ويتحوّل من كائن غير جنسي إلى كائن جنسي، وهي فترة قصيرة تتداخل مع نهاية الطفولة وتمتد إلى بداية المراهقة، حيث إنه من المعتاد الفصل

1 صادق آمال، و أبو حطب فؤاد، نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 283.

2 المرجع نفسه، ص 283.

3 المرجع نفسه، ص 284.

4 المرجع نفسه، ص 286.

بين الطفولة والمراهقة بوصول الطفل إلى النضج الجنسي، لذا فإن فترة البلوغ هي فترة تداخل، وفيها لا يعتبر الطفل نفسه طفلاً بسبب ما يطرأ على جسمه من تغيرات جسمية وفسولوجية سريعة، ومع ذلك ينظر إليه على أنه لا يزال طفلاً، وخاصة من جانب الوالدين والمعلمين. وعادة ما يؤدي ذلك التناقض إلى الاضطراب وإلى الشعور بعدم الأمن وفي كثير من الأحيان إلى سلوك غير مرغوب فيه¹.

ومع بداية المراهقة "يزداد بعد الفرد عن الأبوين والمنزل إلى حدٍ كبير، ومعظم الوقت الذي يقضيه خارج المنزل هو أكثر مما يقضيه داخله، ويكون مع جماعة الأقران، وهذا يعنى بالضرورة أن هذه الجماعة لها أثر بالغ في اتجاهات المراهق الصغير وميوله وقيمه وسلوكه، وقد يفوق أثر الأسرة إلا أن هذا ليس قاعدة عامة، فتحديد الأثر النسبي لكل من الأسرة وجماعة الأقران يعتمد إلى حد كبير على نظرة المراهق إلى كفاءة كل منهما في توجيه سلوكه"².

وتنشأ في مرحلة المراهقة "ميل جديدة نتيجة للتغيرات الجسمية والاجتماعية، وما يميل إليه المراهق يتوقف على جنسه وذكائه والبيئة التي يعيش فيها وفرص التعليم المتاحة له وما يهتم به أقرانه وقدراته وميوله وأسرته وغير ذلك من العوامل الكثيرة"³.

فنلاحظ من خلال هذا أن مرحلة الصبا لم تكن تتحدث بشكلٍ واسع في نقولنا زيادة، بل لم يذكر فيها ما كان ينبغي لمنحرف أن يفعله في هذه المرحلة، حتى إنه لم يذكر التحوّلات التي حدثت له في حياته، وذلك ربما لما كان يحمله على عاتقه من تحمل مسؤولية عائلته، فكان حريصاً على دراسته ولذلك لم يكن لديه وقت يضيعه، إنما وقته دائماً كان في الدراسة والتفكير في عائلته.

إذ إن هناك أمور مهمة اتسمت في هذه المرحلة و تميز فيها نقولنا زيادة و ذلك عند حديثه عن الصفات الجنسية و التغيرات البدنية التي كان يتحدث فيها زملاؤه في الدراسة، فهذه الأمور كانت بداية طريقه في المراهقة نتيجة لسماعه لها.

1 صادق آمال، و أبو حطب فؤاد، نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين ، ص 287.

2 المرجع نفسه ، ص 310.

3 المرجع نفسه، ص 313.

حيث إن نقولاً زيادة كان في مرحلة صباه يعيش فترة انفصال عن الأسرة و تكوين هويته الخاصة فبدأ في اكتشاف العالم المحيط به و تجربة الاستقلالية في السفر لوحده و اتخاذ القرارات الخاصة به، فهو في فترة صباه كان يميل إلى التفاعل والتواصل مع الآخر وتكوين العلاقات الاجتماعية ومشاركة الاهتمامات مع بعضهم البعض بشكلٍ أكثر مما كان عليه سابقاً إلا أن كان هاجس التفكير في مستقبله دائماً ما يراوده.

ومن المعلوم أن في كل مرحلة من مراحل النمو يشعر الإنسان بصراع أساسي، ففي سنّ المدرسة مثلاً يحتاج الطفل إلى التعامل مع المتطلبات الاجتماعية والأكاديمية الجديدة ويؤدي النجاح إلى الشعور بالكفاءة، بينما يؤدي الفشل إلى الشعور بالنقص، وفي مرحلة المراهقة يحتاج المراهقون إلى تنمية الشعور بالنفس والهوية الشخصية، ويؤدي النجاح إلى القدرة على البقاء صادقاً مع نفسك - كرحلات نقولاً زيادة التي ساعدت على تنمية ذاته و اكتشافها - بينما يؤدي الفشل إلى الإحساس بضعف الذات، وهذا ما رأيناه في سيرة نقولاً زيادة ورحلاته.

○ ملامح أيام الشباب

مرحلة الشباب "تُعَدُّ طور بلوغ السعي وتبدأ مع اكتمال التغيرات الجسمية وتمتد إلى سنّ الرشد الحقيقي (18 عامًا) أو القانوني (21 عامًا) وتشمل المرحلة الثانوية، وقد تمتد إلى المرحلة الجامعية التي تدل على الرشد"¹ فالشباب يسعى في أمور دنياه في هذه المرحلة.

تتمثل بداية مرحلة الشباب "في اقتراب شكل الجسم ووظائفه من آخر درجات النضج، ومن الناحية النفسية يكاد عطاء الفرد العقلي يصل إلى قمته، ويتيقظ إحساس الشخص بأنه لم يعد صغيرًا، ويطالب بتوقف معاملته على أنه صغير، ومن الناحية الاجتماعية يتأكد اعتراف الآخرين بأن الشخص لم يعد طفلًا وإن كانوا يترددون في الاعتراف به كرجل"²، ففي مرحلة الشباب "تضيق دائرة الأصدقاء الحميمين وتتسع دائرة الجماعات، ومعنى ذلك أن الشاب يقل عنده عدد أصدقائه الحميمين ويزداد عدد صداقاته العامة ومعارفه كما يتوجه اهتمامه إلى اكتشاف عالم الجنس الآخر"³.

ويلاحظ على السلوك الاجتماعي في هذه المرحلة "أنه يتحول تدريجيًا من الأنانية التقليدية التي تنشأ من الشعور بعدم الأمن في المواقف الجديدة إلى تأكيد الذات، ولهذا نجد الفرد بدلًا من أن يذنب فرديته ليصبح أحد أفراد الجماعة تزداد لديه الرغبة في الاعتراف به كفرد والحصول على موافقة الجماعة على ذلك. ومن خلال التجريب يكتشف ما هو مرغوب اجتماعيًا، ثم يستخدم طرقًا أكثر حذرًا في جذب الانتباه، فيرتدي أحدث موضة الأزياء بدلًا من الانبهار بالملابس ذات الألوان والرسوم الزاهية. كما يعبر عن وجهات نظر محدّدة بدلًا من الزهو بما لديه من أفكار مستحدثة"⁴.

1 صادق آمال، و أبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 286.

2 المرجع نفسه، ص 327.

3 المرجع نفسه، ص 340-341.

4 المرجع نفسه، ص 340-341.

ونتيجة لتوافر الفرص الكثيرة للمشاركة الاجتماعية "ينمو لدى الشاب استبصاره الاجتماعي فيصبح أكثر قدرة على الحكم على الأشخاص سواء من الجنس نفسه أو الجنس الآخر. ومع زيادة المشاركة الاجتماعية تزيد كفاءته الاجتماعية كما تتمثل في الحوار وممارسة الألعاب الشائعة في مثل سنّه، ويعرف أكثر الطرق الصحيحة للسلوك في المواقف الاجتماعية المختلفة"¹ كما تتوافر للشابّ صداقات من مستويات مختلفة، يكون الشاب قياديًا واثقًا من نفسه.

والجدير بالذكر أنّ "مرحلة الشباب هي مرحلة الاندفاع والقوّة، و هي فترة النشاط والحيويّة وخلالها يكتسب الشخص تجارب حقيقية، وفي هذه المرحلة يحتاج الشاب إلى تكوين علاقات حميمة ومحبة مع أشخاص آخرين، يؤدي النجاح إلى علاقات قوية، بينما يؤدي الفشل إلى الشعور بالوحدة والعزلة"².

يبدأ صراع الشاب مع والديه في هذه الفترة، ويكون التعاطي العصبي المفرط والتأخير في استجابة الآباء لمطالب الشباب سببًا في عدم استقرار سلوك الشخص إلى حد ما. من جهة أخرى، يحرص بعض الآباء على تعليم أولادهم الشباب الحلال والحرام، وتعلم دلالات ثقافتهم. ويعتمد الشباب على آرائهم في اختيار شريك حياتهم. ومن خلال الصداقة يستطيع الشاب تلبية احتياجاته من الاهتمام والمودة والاستقرار، وتكوين علاقات صداقة مميزة وقضاء وقت سعيد معهم، وبناء الثقة والهدوء، وسعيهم لأن تكون علاقاتهم مع أصدقائهم مبنية على التقاهم أحيانًا وغير معقدة، حيث تعلم الشباب كيفية تنظيم وقتهم واكتساب مهارات التعاون في العمل، بالإضافة إلى منحهم طموحات للمستقبل حيث إن صعوبات العيش في فترة الشباب لها تأثيرات لاحقة، إذ يؤثر عدم الانسجام مع الآخرين على السعادة، وقد يعيش البعض حياة شبابية بائسة تجعلهم يتعاطون مع الآخرين بقسوة"³.

1 صادق آمال، و أبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 341.

2 العزام عبد الباسط عبد الله، و مهيديات ميس أكرم: تحولات مفهوم الذات عبر مسار الحياة في المجتمع الأردني: دراسة سوسيولوجية بين جيليّة، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، 2021 م، ص 182.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص 182 .

- ملحق العلاقات الاجتماعية:

وفي هذه المرحلة انخرط نقولا زيادة اجتماعياً بشكلٍ كبير، وقد عاش مراهقته فيها فكّون علاقات محرّمة مع فتيات أجنبيّات لكونه حرم نفسه من خوض مراهقته في وقت المراهقة، فنرى أنّه في مرحلة الشباب عاش مراهقته المتأخرة، كما عاش علاقات حبّ صادقة ولم تنته بالزواج، إلا أنه تزوّج بمارغريت لاحقاً، كما أنه كوّن له صداقات مع أساتذة في الجامعة، ومع جيرانه في السكن والكثير من الصداقات الأخرى، فقد اتسعت دائرة علاقاته الاجتماعية. وفي مرحلة الشباب ذكر في موضع ما يدلّ على وسامته، ربما لأنه كان يهتم بهذا الجانب كونه أصبح فتى راشداً في مراحل قوته.

كما أنه اكتسب خبرات علمية وعملية أسهمت في تطوير مهاراته وقدراته، إذ إن السفر والرحلات عكست قدرته على التكيف والتعاون مع الثقافات المختلفة وتنمية مهارة التواصل وقدرته على تعلم لغات متنوعة إضافة إلى تمكنه من أداء المحاضرات.

○ ملامح أيام الكبر

مرحلة الشيخوخة "تتسم بالدينامية والتفاعل، وتمرّ بتحدّيات التكيف ومشكلات التوافق التي تحتاج إلى المعالجة حتى يمكن للمرء أن يستمر في حياته"¹.

يخضع الكائن الحيّ البشري لتغيرات متعددة في مراحل حياته، وهذه التغيرات مستمرة فليس في حالة سكون ثابت، بل ينمو خلال مراحل المتعاقبة التي يمر بها، بما يشمل جوانبه المادية والعقلية والعاطفية والاجتماعية.

وفي مرحلة الكهولة "تتغير طبيعة علاقة الفرد بوالديه إذ تصبح علاقته بهما فاترة واستجابتهما له بطيئة، ولا يصغي له والداه جيّدًا، ولا يكون جادًا في اكتساب خبرات جديدة منهما، ولا يكون حريصًا على التواصل معهما كما كان سابقًا، فالبعض ينزعج من طلبات والديه المتكررة. أمّا بالنسبة لعلاقات الكهل مع أصدقائه فيشعر أنّ أصدقاءه غير لطيفين في التعامل معه، فتطفو مشاعر المجاملة والنفاق وخشونة التعامل على طبيعة علاقاته مع أصدقائه، فيحاول أن يكتم مشاعره عمّن حوله. وفي علاقاته بالعمل تتسم علاقته بالتساهل وعدم المبالاة، كذلك لا يجد من صديقه في العمل تشجيعًا بل قد يتهرب منه حين يطلب منه المساعدة، فيشعر أنّه لا يهتم أمره ولا يعطيه وقتًا كافيًا للتعامل معه، فعلاقة المصلحة هي الغالبة. ومع صعوبات العيش يزداد عدم الشعور بالأمان عند الكهل ويفقد الرغبة في بناء علاقات جديدة، ويشعر بافتقاد قيمته داخل منزله، و يتدنّى أمله في مستقبل أفضل"².

1 صادق آمال، و أبو حطب فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، ص 343 .

2 العزام عبد الباسط عبد الله، و مهيدات ميس أكرم: تحولات مفهوم الذات عبر مسار الحياة في المجتمع الأردني: دراسة سوسيولوجية بين جيلية، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، 2021 م، ص 182.

- ملمح الاستقرار:

لم يتحدث نقولا زيادة عن مرحلة الكبر كثيراً، وأظنّ أنّ ذلك لكونه تكيّف مع حياته وأحفاده، فنقولاً زيادة اكتسب خبرة و حكمة من خلال تجاربه مع مرور الزمن فامتلك رؤية عميقة للحياة وقدرة كبيرة على اتخاذ القرارات المستنيرة بناء على تجاربه السابقة، و امتاز نقولا زيادة في هذه المرحلة بالاستقرار العاطفي و النفسي الناتج عن الخبرة و التجارب المتراكمة فهو يمتلك فهمًا عميقًا للعلاقات الإنسانية، كما أنه في هذه المرحلة لديه رغبة في الاستقلالية و في الحفاظ عليها.

ويتبين أن يحتاج كبار السن في هذه المرحلة إلى تفحص الحياة وتحقيق الشعور بالرضا، فيؤدي النجاح في هذه المرحلة إلى مشاعر الحكمة والاستقرار، بينما يؤدي الفشل إلى الأسف واليأس.

الفصل الرابع

(الرحلة امتداداتها ومشاهداتها)

- دوافع الرحلة.
- الامتداد المكاني للرحلة ومسارها الزمني.
- مشاهد الرحلات (العربية / الغربية)

ظهرت الرحلة منذ القدم، فقد اهتم العرب بوصف البلاد التي يقومون بفتحها ويدونون أخبارها وخاصة في العصر العباسي ينقلون ما عند الأجانب من معارف وعلوم ما عرفه الفرس والهنود والإغريق عن العالم القديم، وخاصة من الواجهة الجغرافية...¹.

واتبع الجغرافيون مسلكًا جغرافيًا عند التنقل من مكان إلى آخر وذلك يتمثل بأسلوب شائق يصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، إذ اهتموا بالحديث عن عادات الشعوب وطباعهم وما يوجد في ديارهم من آثارٍ وعجائبٍ وقد سردوا ما عندهم من أساطيرٍ وخرافاتٍ² حيث أصبحت كتبهم الجغرافية " كتبًا أدبية تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي تحت عينه وسمعه بأذنه، وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلاتٍ منها إلى أن تكون كتبًا جغرافية³ حيث شكل " السرد العربي صورةً جليةً لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نصٍ مكتوبٍ يوجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات"⁴.

واتفق الباحثون على أن الرحلة العربية مرت بمراحلٍ متعددة "بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وهو ازدهارٌ أدت إليه عواملٌ كثيرة، كان أهمها الازدهار الحضاري في القرن نفسه"⁵.

وقد أشار المؤرخون إلى أولى الرحلات التي قام بها قدماء المصريين عام 1493م قبل الميلاد لغرض التجارة ، ثم الرحلات الجاهلية في الجزيرة العربية، ومن ثم المرحلة الأولى وهي الممهدة لتجانس الرحلة والبادئة منذ عصر ما بعد الفتوحات الإسلامية، وأيضًا الرغبة في المعرفة وربط العلاقات والحج والسياحة، وفي العالم الإسلامي أساسًا. وقد امتدت هذه الفترة لأكثر من سبعة قرون: ما بين القرنين الثالث والعاشر الهجريين (9-9-

1 ضيف، شوقي: الرحلات، ط 4، دار المعارف، مصر - القاهرة، ص 11.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 11-12 .

3 المرجع نفسه، ص 11-12.

4 المرجع نفسه، ص 16 .

5 الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، جامعة القاهرة - كلية الآداب،

ط 1، دار النشر للجامعات العربية - مكتبة الوفاء، 1995م، ص 21 .

16 م)، حيث تداخلت العديد من الرحلات ضمن تأليف كتب التاريخ والجغرافيا إضافة إلى وجود نصوص أخرى في المرحلة اللاحقة والتي كانت تصب في الرحلات السفارية والحجبة¹.

أما المرحلة الثانية "فانطلقت مع بداية ملامح النهوض العربي في القرن التاسع عشر حين استمرت بعض الكتابات الرحلية الحجية بأساليب فقهية فاقدة لبريق الإبداع. ثم نوع آخر مهيم، وهو الرحلة المتجهة نحو الآخر الأجنبي المغاير بحثاً عن تفكيك مأزق الذات، ورؤية هذا الآخر في لحظات قوته وتطلعاته، فتشكلت هذه النصوص، المشاهدات، باعتبارها رؤية للفهم خلال تلك المرحلة " ².

ومع ظهور النهضة في العصر الحديث تغير اتجاه الرحلات من المشرق والمغرب العربي إلى الانتقال بلاد أوروبا حيث كانت الرحلة العربية تخطو الخطوة الأولى في مسارها وذلك باحتكاك الرحالة العرب بالثقافة الغربية إذ تشارك الرحالة العرب مع الغرب ونتج عنه تطور بلدان الغرب من تطوير وسائل العلم والعمل وإنشاء جامعات علمية ضخمة، فلم يعد المهتمون بذلك يذهبون إلى طلب العلم من دول المشرق والمغرب العربي بل أصبحوا يشدون رحالهم نحو البلدان الأوروبية لنيل العلم " فلم تكن الرحلة إلى هذه الأقطار لغرض التعلم فحسب بل خصت كذلك أغراضاً شتى سياسية واقتصادية وسياحية واستطلاعية فكانت رحلات العرب إلى الغرب من أهم الوسائل التي عرفت بمظاهر الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر " ³.

تنوعت الرحلات في الوطن العربي في القرن العشرين وتعددت اتجاهاتها حيث بدأت الرحلة مرحلة جديدة أدت إلى التطور التكنولوجي في وسائل النقل فاستفادت من المعلومات والتكنولوجيا الحديثة، فتوسعت مداركها في التعرف على الإنسان والعالم أجمع " وقد تعددت الآلات التي طرقها الرحالة المكتشفون في البر والبحر والجو، وعبر الغابات والصحاري وفي الجبال والوديان، وحتى في القطبين الشماليين، ولقد لعبت الطائرات والفوتوغرافيا بصفة خاصة دوراً جديداً ومثيراً في الكشف عن الأراضي والعمران " ⁴.

1 حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، مكتبة الأدب العربي، 2002، ص 30-31.

2 المرجع نفسه، ص 30-31

3 أنساعد، سميرة: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى -الجزائر، 2009، ص 4 .

4 فهم، حسين محمد: أدب الرحلات، عالم المعرفة- الكويت، 1978، ص 33.

وفي ظل التقدم التكنولوجي والتطور في وسائل النقل، وزيادة عدد المسافرين، شهدت الرحلة تحسُّناً ملحوظاً، وقد استفادت الرحلة من التنوع في المواضيع المؤدية لها واختلاف الأماكن والبلدان المزارّة، مما أدى إلى ازدياد التواصل بين الناس وتعزيز الروابط بينهم كما أدى ذلك إلى نضج العلوم والتفكير أكثر مما كان عليه، حيث زاد الوعي واليقظة لدى الناس، وقد كثر الرحالون من أمثال "محمد الخضر حسين، والورتلاني والباتوني، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، وحسين فوزي، وأمين الريحاني"¹ ورفاع طهطاوي وعلي مبارك كثيرون غيرهم..

أما في الزمن المعاصر فنجد العديد من الرحالين الذين ظهروا ومنهم نقولا زيادة (حول العالم في 67 عاماً رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992 م)، ومن خلال كل هذا يتبين لنا أن الرحلة العربية منذ القديم وحتى العصر الحالي لعبت دوراً كبيراً في بناء الوعي العربي، حيث ساهمت في تنامي هذا الفكر العربي بانفتاحه وإطلاعه على مختلف أقطار العالم وثقافتها.

وقد شهد تاريخ الرحلة في الأدب العربي على أطواراً متعددة أدّت إلى نشوء وتطور النصوص الأدبية للرحلة " التي جاءت في ملتقى حقول معرفية تبدأ بالتاريخ ولا تنتهي عند الاثنولوجيا، فنص الرحلة ومحكيها – بتعبير تودوروف – وجد قبل الرحلات ؛ بمعنى أن المتخيل الذي شكل النص الرحلي عنصراً أو نصاً كان هو المادة التي انفتحت على المعطيات الواقعية والاحتمالية " ² إذ يعتبر النص الرحلي مزيجاً من السرد والوصف عن التعبير عن المشاهدات الموجودة في الرحلة حيث "ينتسب النص الرحلي إلى التراث النثري بشكل عام باعتباره سرّاً ووصفاً يعمدان إلى صياغات مشاهد رؤيوية أو مروية أو حلمية تتحدر من ذاكرة في بعض الحالات ذات جذور في الواقع المادي " ³.

¹ فهميم، حسين محمد: أدب الرحلات، ص 47.

² حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 30 .

³ المرجع نفسه، ص 39 .

والرحال عندما يكتب نصوصه يتخذ شكلين أساسيين للكتابة: فهو إما أن يدون المشاهدة أثناء رحلته وإما أن يدون تلك المشاهد بعد الانتهاء من الرحلة وهو الأكثر شيوعاً في أغلب الرحلات إذ " تكتب النصوص الرحلية في وضعيتين: إما بشكل محايت للرحلة، وهو أمر قليل، ولايغطي كافة مراحلها، كما هو الأمر بالنسبة لرحلة العبدري، أو أنها تدوّن كتابة، بعد انتهاء الرحلة، وحكيها شفويًا مثال ذلك رحلة ابن بطوطة التي سردها بعد أزيد من ربع قرن من الارتحال. هذه الوضعية تجعل الإدراك الفني للوقائع موسومًا بآثار ومعطيات مترسبة في ذاكرة الرحالة / المؤلف، فينهض النص الرحلي على صورة واقع يضمّر بنايات متلونة، ومتصادية، وأصواتًا مشبعة بأسرار ذاتية وأخرى غيريّة"¹.

ونرى هذا بشكل واضح في رحلات نقولا زيادة التي أسهمت في إبراز مكنوناته الذاتية وتعبيراته التي تكشف الآخر، فكانت انتقالاته ورحلاته يتضمنها عنصر التشويق والغربة للمتلقي وذلك أثناء ذكره للمشاهد المتنوعة كون " الانتقال من مكان إلى آخر هو تحول من المعلوم إلى المجهول"².

وقد تجلّى عنصر الارتحال في مختلف المؤلفات إلا أنه " تجذّر في المؤلفات التاريخية عبر مستويين رئيسيين:

- ارتحال ذهني للمؤلف نحو أحداث ماضية يتم استقاؤها من الأسفار والتقييدات، أو مما هو شفوي، ويتجلّى في استعادة سرد بداية الخلق، وأخبار الأولين وحروبهم ورحلاتهم المتنوعة،
- ارتحال فعلي للمؤلف نحو فضاءات متعددة ومتنوعة بحثًا عن الأحداث من أفواه الرواة، أو عن أماكن بها آثار شاهدة بقصد توثيق الأخبار وتقييد المشاهدات "³.

وقد جمع نقولا زيادة بين الارتحال الذهني والآخر الفعلي، فالارتحال الذهني تمثل في استعادة أحداث الماضي التي حدثت له في أسفاره ذاكراً أخبار القدماء وأقوالهم عند ذهابه للمكان كذكره لابن جبّير، فقد قال: "... وقد أعجبت (بانياس) ابن جبّير إذ مرّ بها في طريقه من دمشق إلى عكا فقال فيها: هذه المدينة ثغر

1 حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 41 .

2 المرجع نفسه، ص 23 .

3 المرجع نفسه، ص 23 .

بلاد المسلمين - وهي صغيرة- ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها..ولها محرك واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين"¹، أما الارتحال الفعلي فاتضح من خلال كشفه عن الأماكن المختلفة التي زارها بقصد توثيق الأحداث والمشاهد في تلك البلدان المزاراة والاستماع إلى الآخر في سرد الأحداث المهمة الموجودة فيها، مثل ذكره لسرد الرعاة فقد قال في رحلاته: "... يأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالة من القداسة، فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدم أحدهم فيروي لك في كثير من الإيمان وكثير من اليقين أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصة لذلك، فإن الأوتاد تنبت شجراً كريماً...."².

ومن المعلوم أنّ أدب الرحلة هو " مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آنٍ واحدٍ"³.

وقد رأى د. إنجيل بطرس أن " أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحال إلى بلد من بلاد العالم، و يدون وصفاً لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب.. وهناك صفتان عامتان لابد من توافرها في أدب الرحلات، وهما:

1. أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالاً بطبعه محباً للرحلات،
2. أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص144 .

2 المرجع نفسه، ص143.

3 حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 38 .

ويمكن القول بأن طرفي هذا النوع من الأدب هما: الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى... ولعل خير أمثلة أدب الرحلات هو ما بكشف عن شخصية الرحال، بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل بينها، والناس الذي يلتقي بهم.. فإذا كان الوسط الذهبي هذا، ففي أحد طرفيه توجد الأمثلة التي تقع فيها شخصية الرحال في مركز الانتباه، وفي الطرف الآخر تقع الرحلة الجافة التي لا تحمل أثرًا لشخصية صاحبها، وتفقد الشخصية المميزة، بعد أن تصبح مجموعة من الحقائق العارية من السمة الإنسانية التي تميز العمل الأدبي¹.

تتميز الرحلة بعدة طوابع في المضمون فكل رحال يختار مضمونًا وشكلًا معينًا للرحلة التي يسجل أحداثها ويوثقها، ومن طوابع الرحلة:

- الطابع الفردي الذاتي: " لأن الكشف الخارجي الحقيقي لا يأتي إلا بعد الكشف الداخلي. إن رحالًا لن يصل إلى حقيقة يعتد بها إلا إذا عرف حقيقة نفسه أولاً"²، فحرية اختيار الوجهة التي سوف يتوجه إليها الرحال واعتماده على ذاته في توفير نفقات الرحلة، والسعي لمواجهة الصعاب والتخلص من العوائق وخوض المغامرات في التجريب والبحث كل هذا يساعد على اكتشاف الذات، " فالرحلة - كما يقول أحد الرحالين - إحدى صور تأكيد ذاته في مواجهة الناس"³، فالرحال عندما يبدأ رحلة ما عليه أن يتصرف على النحو نفسه الذي يتصرف به سكان البلد الذي يزوره وأن يختلط بهم ويتعرف عليهم فيمنحه ذلك فرصة للحكم الدقيق في اكتشاف الآخر الناتج من طابع ذاتي.
- الطابع الكشفي: وعندما ننظر إلى الرحلة من طابع كشفي نرى أن الكشف الذي يورثه الرحال يكون ناتجًا عن التأمل " والتأمل يتم أثناء الرحلة - خاصة في حالات التوقف الجبري - أو بعد انتهائها، في لحظات الاسترجاع والاستعراض العام لوقائعها"⁴ كون الرحال يقدم كشفه في صورة مباشرة تدرك بسهولة.

1 بطرس، إنجيل: الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، العدد 7، 1 يوليو 1975م، ص 52 .

2 الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 50 .

3 المرجع نفسه، ص 50 .

4 المرجع نفسه، ص 51 .

- **الطابع الإنساني** فالرحال بطبيعة الحال هو إنسان وفي رحلاته لا بد من أن يتعرض إلى وصف الناس وذكر ما يتعلق بهم، فالطابع الإنساني يظهر على نحو واضح في الرحلة، والذي يوضح ذلك " اقتناع الرحال بأنه فرد في مجموع، وجزء من كلٍّ، سيؤدي به إلى الالتفات إلى هذا المجموع محاولاً الكشف عنه في حال كونه كلاً. وهذا الالتفات إلى المجموع يؤكد على الطابع الإنساني للرحلة، فالرحال يصف الإنسان - هدفه الأول - من حيث الصفات العامة والخاصة، ومن حيث الاتفاق والاختلاف بين شتى أجناسه " ¹ فالرحال يصف الإنسان من ناحية خلقية وأخرى خلقية مبيناً العادات والتقاليد ووصفه لمشاهد الطعام والشراب وغيرها، فكل هذا يحتوي على طابع إنساني.

- **طابع شعبي:** كون الرحال يصف شعوباً، فالرحلة إذاً تمتاز بطابع شعبي.

- **طابع جمالي:** يكون طابع الجمال في الرحلة شيء نسبي يتذوق الرحال فيه الجمال بشكل عام حيث "ينجذب الرحالون إلى جمال الطبيعة خاصة، بأسر هذا الجمال لبهم، فيقفون أمامه طويلاً، محاولين إقامة جسور وعلاقات بينهم وبينه وصولاً إلى إجراء حوار - بلا كلمات- يُفضي كلٌّ فيه بمكنونات نفسه"².

- **طابع نقدي:** إن من أهم ما يتحلى به الرحال هو " امتلاك روح الناقد البصير المحايد، فالحكم الصادر عن الرحال ينتج من تفاعلٍ صحي بين خبرتين هما:

1. الخبرة السابقة متمثلة في كل ما اكتسبه الرحال قبل خروجه،

2. الخبرة المضافة وتتمثل في كل ما اكتسبه الرحال من لدن شروعه في الخروج.

إن ما يميز الرحال الحق عن المزيف أنه قادر أن ينقد ما يرى، فهو لا يكتفي بالمشاهدة والوصف، ولكنه يتعداهما إلى التفسير والنقد، وقد أدرك الرحالة القدماء هذا الطابع المزدوج ؛ لذا جاءت كتاباتهم - في الأغلب- سجلاً وافيًا وعميقًا عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التي زاروها، ومظاهر سلوكهم وعوائدهم وتقاليدهم، ونظمهم الاجتماعية والسياسية، وتقويمًا لإنجازاتهم في مختلف ميادين الثقافة، ولم تكن مجرد سرد وصفي لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التي مرت بهم أثناء ذلك " ³.

1 الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 52 .

2 المرجع نفسه، ص 55 .

3 المرجع نفسه، ص 56 .

نرى من كل هذا أن نقولاً زيادة تنطبق عليه صفات الرحالة المميز، نظرًا لكون رحلاته تشمل جميع هذه الخصائص، فقد كانت رحلاته تتحدث عن بعض عادات الآخر من خلال تمثله لعادات و تقاليد الشعوب واحترامها في البلدان المزاره كذكره لعادات الشعب الإنجليزي عندما قال: "... فنزلت إلى المطبخ فإذا بماري تعد فنان الشاي المبكر - وهي عادة إنجليزية يحافظ عليها محافظة تامة..."¹ كما ذكر بعض عاداتهم عند شراء بعض الاحتياجات، قائلاً: " كان علي أن أبتاع بعض الثياب.... وهنا فوجئت بشيء يختلف عما ألفت في أكثر الأماكن التي عرفتها لم تكن ثمة مساومة، فالسعر هو السعر..."² كما أن رحلاته كشفت عن طابع كسفي كونه كان متأملًا في طبيعة البلدان التي زارها، إضافة إلى امتلاكها طابع إنساني، فقد تناول هذا الجانب في رحلاته من خلال وصفه لأصدقائه وللشعوب هناك.. وقد اشتملت رحلاته أيضًا على الطابع الشعبي عن طريق وصفه لحياة الشعوب وعاداتهم ومبادئهم، كما احتوت على الطابع الجمالي عند وصفه للمشاهد الطبيعية للبلدان التي زارها ذاكرًا إياها بشكل مفصل، وأخيرًا نلاحظ أن رحلاته تشتمل على الطابع النقدي فنراه أنه كان ينقد الشعوب فكريًا وسلوكيًا وحضاريًا بشكل إيجابي تارة وبشكل سلبي تارة أخرى، وجميع هذه الأمور أسهمت في تشكيل ذاته واكتشافه للآخر.

أما من ناحية الشكل فإن " المضمون المتجدد في الرحلة في حاجة لأشكال جديدة تواكبه، لذا كان تجدد المضمون مقرونًا - دومًا - بتجديد في الشكل، حتى إنه يمكن القول بأن للرحلة أشكالًا بعدد نصوصها إذ يتحكم في شكل الرحلة طريقة التدوين، التي تؤدي بدورها إلى تكوين بنية، وطريقة التدوين والبنية يحكما الأسلوب أو اللغة"³ فمن الرحالين من يدون ما يصادفه أثناء الرحلة بشكل منتظم، ومنهم من يدون بصورة متقطعة، ومنهم من يعتمد على ذاكرته بعد عودته.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص189.

2 المرجع نفسه، ص190 .

3 الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 59 .

ونلاحظ أنَّ نقولاً زيادة دَوْن رحلاته معتمداً على ذاكرته بعد عودته، وذلك كان جلياً عند ذكره للأحداث التي حدثت له في رحلاته، فمثلاً قال: " زرت الجزائر للمرة الأولى سنة 1951 م وقضيت فيها نحو ثلاثة أسابيع...¹، فنراه أيضاً في لغته وأسلوبه يستخدم الفعل الماضي إذ إنه يتذكر أحداث زيارته التي حصلت في الماضي ومن ثم يدونها في مذكراته.

وكان الإنسان يصول ويجول في مختلف الأقطار ويسافر ويتنقل من مكان إلى آخر، فبطبيعة الحال فإن الإنسان خلق محباً للحركة والترحال و " تشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل، حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات. لقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينه إلى الآفاق البعيدة – ولا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من الكنوز والخبرات " ² ولكن هل كل من يسافر يكون رحّالاً ؟ بالطبع لا ليس كل مسافر تنطبق عليه صفات الرحالة، لكي يكون الإنسان رحالة لابد من أن ينقل التصورات والمشاهد التي رآها آنذاك أثناء رحلته، فيسجل الأحداث بشكل إخباري عن طريق " المزج بين التسجيل والشعور الخاص تجاه المسجّل " 3.

وقد شدّ الإنسان الرحال لأغراضٍ عديدة ومتنوعة أدت إلى ارتباطه بالآخر في شتى المجالات المختلفة فقد نتج عن ذلك اهتمام حضاريّ ناجم عن ثقافاتٍ مختلفة، و تعددت دوافع الفرد للرحلة واختلفت من شخصٍ لآخر ونجم عنه " بروز دوافع وقيام حاجاتٍ حيويةٍ تدعو إلى الرحلة أو تدعو إلى الاغتراب عن الحضارة الأصلية لاستجلاء حضارة الغير وجمع البيانات والوثائق عنها. الحاجة هي التي تدفع بحضارة الغير من ظلام النسيان والإهمال إلى دائرة الوعي. وقصة الاتصال بين الغرب والشرق هي قصة هذه الحاجات والدوافع⁴.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عاماً رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992، ص 435 .

2 قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب - القاهرة، 2002 م، ص 17 .

3 مودن، عبد الرحيم: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، ط 1، 2006، ص 28 .

4 نجيب، ناجي: الرحلة إلى الغرب و الرحلة إلى الشرق (رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا و رحلة ادوارد لين إلى مصر في مطلع القرن التاسع عشر) دار الكلمة، بيروت - لبنان، ط 2، ص 8 .

فالرحالة قد انتقلوا لأسبابٍ متنوعةٍ تفاوتت بين الاستكشاف والسياحة وحب التّطلّع، والمهام الموكلة إليهم، فينتقل بالأصدقاء بهويته الثقافية على اختلاف هوية الآخر، فالاختلاف ينتج عن معرفة الذات البشرية، فعندما يكون الرحالة عربياً ويجوب أقطار الغرب فتكون المواجهة بين هويتين مختلفتين، كون هذه المشاهد غير معهودة بالنسبة له. ومن المعلوم أن الإنسان ينتقل ويرتحل من مكان إلى آخر لأسبابٍ معيّنة أدّته إلى هذا التّنقل والتّرحال، فنتساءل هنا: لماذا يلجأ الإنسان للسفر ؟ وما الدوافع التي تؤدي إلى الرحلة؟

○ دوافع الرحلة

تتعدّد الدّوافع التي تحمّس الإنسان للرحلات، وتختلف من شخصٍ إلى آخر ومن قومٍ إلى قوم ومن عهدٍ إلى عهد إذ يحرك الرّحلة ويخرجها شيئان، وهما: "دوافع ذاتية و أخرى أسباب عامة، وتعدّ الدوافع الذاتية هي الأساس الذي تبنى عليه الرّحلة، ثم تأتي الأسباب الظاهرية والعامة لتكون مبرراً مقبولاً للقيام بهذه الرحلة¹."

وفي الحقيقة والأساس تعتبر الرحلة "غاية حيث إنّها ضرورة بمعنى أنها ليست في حال الرّحال الأصيل ترفاً ولا سبباً لنيل الشهرة. إن المقصود بالضرورة هنا: الضرورة الذاتية التي تدفع الإنسان للرحيل رغم أنّها قد تكون مضاداً لرغباته، أو منافية لتوجهاته العقلية، ومخالفة لاستحسان الآخرين.. وربما كان في نية الرّحال أن يعود عندما يرضي بعضاً من فضوله وحب استطلاع، وعندما يخمد حافزه لرؤية الأقطار الأخرى وسكانها، ولكن الرحلة من أجل الرحلة ذاتها كالإبحار الممتع أو مجرد طواف الأرض، ليست إلا المحركات الطبيعية للرحلة " ².

ونظراً للأهمية التي تحتلها الرّحلة في جميع مجالات الحياة المتنوعة، فهي تمثل عنصراً مهماً في الحياة الاجتماعية، فأوضاع الرحلة تنوعت من جهة الدوافع والأسباب، وأخرى من جهة الواقعية والخيال، إذ نجد أن هناك رحالة دونوا رحلاتهم التي قاموا بها، وهناك رحالة أخرى كانت رحلاتهم من وحي الخيال، فبالإمكان أن نقسم الرحلة إلى قسمين:

1. الرحلة الواقعية:

وهي رحلة حقيقية وبشكل مباشر أي أن الرحلة تمت فعلاً من قبل الرّحالة من خلال قيامه بفعل السفر إلى ذلك المكان الذي كتب عنه، وعاشه بتفاصيله، حاضره وماضيه. وهذه الرحلة الواقعية تختلف دوافعها، فنجد مثلاً:

1 الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 27.

2 المرجع نفسه، ص 27 .

- الدافع الديني:

وهو ما ارتبط بالجانب الروحي، فغالبًا ما كان القيام بهذا النوع من الرحلات لأداء مناسك الحج تقريبًا إلى الله تعالى أو "لزيرة قبر الرسول(ص) أو للمزارات الدينية الأخرى ؛ كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء" ¹ فهو يتخذ من هذه الرحلة ملجأً لتنقية الذنوب وتطهيرها، فالرحلة يرتحل إلى الحج تلبيةً لنداء الرحمن وتوبةً وتطهيرًا للنفس من دنس الذنوب والخطايا، حيث يحصل من خلالها التعرف على أخلاقيات الدين لنشر الإسلام في كل بقاع العالم والدعوة إليه.

- طلب العلم:

قد يرتحل الإنسان ويتنقل بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم، فإن طلب العلم من أقدم الأسباب التي دفعت بالإنسان إلى السفر والارتحال، فقد اهتم الرحالة بالبحث عن العلوم في شتى بقاع العالم، فزار البلاد التي اشتهرت بالتطور العلمي، والعمارة، والطب، والهندسة، والفقه "وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس والغزالي وابن منده والأحنف العكبري الشاعر، ولا نملك لمثل هؤلاء حصراً، فما أكثرهم..² وهذا يعود إلى إدراك الرحالين لدور العلم في التقدم والتطور والتحرر من الجهل، "فمن الرحلات العلمية ما كان الدافع إليه حضور الندوات والمؤتمرات والمهرجانات العلمية والأدبية والفنية المشاركة فيها"³ فقد كان الإنسان يتغرب ويقطع المسافات من أجل زيارة المكتبات وحضور الملتقيات والاستئناس بالمجالس العلمية التي تعدّ زادًا معرفيًا يستقي منه الرحالة العديد من العلوم من مناهل مختلفة مزود المتلقي بكم هائل من المعارف والمعلومات التي تضمن له بناء خلفية ثقافية دون التعرف لمشاق الرحلة ومتاعبها، كونها معلمًا ممتازًا على المستويين: النظري والعملي كما أنها وسيلة للإيمان، أو لتثبيته وتأكيد، وذلك من خلال ما يراه الرحال من عجائب وغرائب وبديع صنع.

1 بخيتي، عيسى: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ط1، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، 2017، ص 26 .

2 قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 10 .

3 نصّار، حسين: أدب الرحلة، ط 1، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة - مصر، 1991م، ص 35 .

- الدافع السياحي الثقافي:

يصدر عن رغبة الرحال الذاتية في التجول والسفر وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر وذلك لمعرفة كل ما هو جديدٌ واكتساب الخبرات، وتعرف العجيب والغريب كزيارة الآثار والكهوف، إذ إنه يشمل الدافع السياحي والثقافي الرحلات التي يقوم بها الإنسان بغرض الراحة والاستجمام والاستكشاف وارتداد الآفاق البعيدة، " ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالأثار... " ¹، فغالبًا ما كان الإنسان يقوم بمثل هذا النوع من الرحلات قصد زيارة المعالم الأثرية الشهيرة والأماكن التي تضمنت بعدًا تاريخيًا عريقًا، يعبر عن ثقافة أقوامٍ وحضاراتٍ لتحمل هذه الرحلات جانبين:

1. الإمتاع من خلال الاستجمام والترفيه.
2. أخذ خلفية معرفية عن ثقافة الشعوب وما تحمله الأماكن من مدلولٍ وبعدٍ تاريخي.

- دوافع سياسية:

يظهر الدافع السياسي " في الرحلات السفارية والدبلوماسية، إذ بعث الملوك مندوبيهم للبلدان الأخرى من أجل نقاش الشؤون السياسية، كالوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شئون الحرب والسلام أو تمهيدًا لفتحٍ أو غزوٍ ².

- دوافع اقتصادية:

ويظهر الدافع الاقتصادي في الرحلة من أجل التجارة والكسب المادي في السعي إلى التبادل التجاري، وفتح أسواقٍ جديدةٍ لمنتجاتٍ محليةٍ أو لجلب سلعٍ تتوافر في بلادٍ أخرى وتندر في بلد المسافرين، وقد تكون الرحلة هربًا من غلاء المعيشة للتجارة ³.

1 قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 20 .

2 المرجع نفسه، ص 20 .

3 ينظر: قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 20.

- دوافع صحية:

من أجل العلاج أو الاستشفاء، وإراحة النفس، والنقاهاة، وأيضًا قد يكون هربًا من الأوبئة كالطاعون، وغير ذلك من الدوافع¹.

- دوافع أخرى:

و" لا نعدم أن نجد أسبابًا أخرى للارتحال، كالسخط على الأحوال وضيق العيش، أو الهروب من عقوبة"² وربما تخرج الرحلة من أجل:

- الكشف عما يجمع ولا يفرق، عما هو أصيل غير عارض عن حقيقة الكون.
- الرغبة في العزلة والتأمل.
- البحث عن الجمال المفقود والسلام المنشود والفوضى الفطرية.
- الوحي والإلهام من أجل الإبداع، وقد كان بعض الشعراء العرب يرحلون إلى البادية إذا تعذر عليهم قول الشعر، فتعمل الصحراء الخالية على تصفية الذهن وتجويد القريحة.
- وقد يكون الملل الناجم عن الحياة الرتيبة التي يحياها الإنسان دافعًا للرحلة، والرغبة في التجديد والتغيير قد تلح على الرحال، فتتقشّ مضجعه وتقلق باله، فلا يستريح إلا إذا خطا الخطوات العملية التنفيذية من أجل الرحيل.
- وقد يخرج الرحال إرضاء لفضوله وحب استطلاع.
- وقد تكون الغيرة الشخصية أو طلب الشهرة من دوافع الرحلة.
- وقد تصبح الرحلة داء لا يمكن الخلاص منه، فيطلق على صاحبها اسم " الجوال".
- وباعتبار الرحلة مصدرًا حيًا من مصادر زيادة الخبرات، فإن كثيرين يلجؤون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية على مواجهة الحياة في مختلف الظروف.
- وقد توجد ظروف تاريخية معينة تدعو للرحلة.
- وقد تكون الرحلة من أجل الجهاد.
- وقد تكون الظروف التي تمر بها دولة ما سببًا في الرحلة خاصة إبان قوة تلك الدولة وازدهارها الحضاري، مما يحفز مواطنيها على رؤية البلاد الأخرى.

1 ينظر: قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 20.

2 المرجع نفسه، ص 19-21.

- وقد تكون الظروف المواتية والتسهيلات الممنوحة للرحلة وأصحابها دافعاً للقيام بها. ومن هنا كان التأكيد على وجوب معرفة أسباب الرحلة ودوافعها وفي حالة كَوْن السَّبب ظاهرياً لابدّ من التَّماس دافع ذاتي يكمن في داخل الرّجال ويحركه¹.

2. الرحلة الخيالية:

وهي الرحلات التي يدونها أصحابها من وحي خيالهم أي غير واقعية وغير حقيقية ولم يقوموا حقاً بفعل السفر، وفي أغلبها تكون ذات أمكنة لا توجد إطلاقاً في الواقع، " يقوم بها الباحثون عن المدن الفاضلة أمثال أفلاطون في الجمهورية، والفرايبي في المدينة الفاضلة...، وقريب منها الرحلة إلى الآخرة وفيها يقوم الفلاسفة والمفكرون و الأدباء برحلة خيالية خارج عالمنا، ليعبروا بصورة رمزية عما لا يستطيعون التعبير به صراحة على نحو ما فعل ابن شهيد الأندلسي.. في رسالة التوابع والزوابع، وأبو العلاء المعري في رسالة الغفران..²، فهذه الرحلات تكون بمثابة الأمنية التي لم تتحقق في الواقع، فيجنحون إلى الخيال ليحققوها في عالمهم الخاص والخيالي وقد تكون ذات أبعاد مختلفة فلسفية ودينية.. بأسلوبٍ شائقٍ يتخلّلها حس المغامرة حيث يتم من خلالها الهرب من الواقع إلى مكان أفضل ومثالي، أو محاولة للإجابة على بعض التساؤلات³.

فالإنسان عندما يرتحل تكون له أهدافه الخاصة وراء هذه الرحلة، وعندما تطلّعنا إلى رحلات نقولاً زيادة وجدنا أن رحلاته اتّسمت بالرحلات الواقعية الحقيقية ولم تكن رحلات خيالية بل كانت رحلاته وراءها دوافع علمية (تعليمية) كذهابه للندن للدراسة، وذهابه لمعظم الرّحلات العربية للمحاضرات والندوات أو للتدريس هناك، ولم تقتصر دوافعه على هذه فحسب بل أيضاً تمثلت دوافعه في دوافع سياحية للترويج عن نفسه واكتشاف الشعوب المختلفة أثناء زيارته محاولاً معرفة الآخر لتقريب المسافات البعيدة، وقد تكون دوافع الرحلة أيضاً بالنسبة له حاجة ذاتية متمثلة في إشباع رغبة النفس في حب الاطلاع، وكشف أستار المجهول، فكانت عبارة عن مزيج بين عدة أسباب أبرزها تتسم في الدوافع العلمية.

1 ينظر: الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 27-29 .

2 الطاهر، أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله و تطوّره ومناهجه، دار المعارف - مصر، ط1، 1987، ص 324 .

3 ينظر: مقنين، سفيان: صورة الأنا و الآخر في رحلة جزائري في الأندلس رحلة إلى الفردوس الموجود، رسالة ماجستير، جامعة محمد الصديق بن يحيى - الجزائر، 2018، ص 26 .

أسهمت الرحلة بشكل كبير ومهم في تطوير المجتمع العربي وتقدمه من جوانب عديدة، وخصوصاً في المجالات العلمية والأدبية. إذا تحققنا من آثار الرحلة العربية، نجد أنها تحمل قيمتين مميزتين وأساسيتين، الأولى هي القيمة العلمية والثانية هي القيمة الأدبية.

1. القيمة العلمية:

القيمة العلمية تكمن " في احتواء معظم هذه الرحلات على كثير من المعارف والمدونات التي تمت إلى الجغرافية والتاريخ بأوثق الصلات"¹ فعندما يجوب الرحالة المناطق المختلفة، يقوم بتدوين ما يشاهده وما يعاينه بدهشة أو إعجاب، نظراً لاختلاف ظروف الحياة البشرية من منطقة إلى أخرى ثم يقدم بعدها "صوراً وتقاريراً وافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية للعرب ومن جاورها من شعوب آسيا وأفريقيا وشطر من أمم أوروبا " 2 حيث يستفيد الرحالة من رحلاتهم بذكر التفاصيل المختلفة عن البلاد التي يزورونها إذ يقومون بجمع مادة أنثروبولوجية مهمة تستمر في أن تُعد إلى يومنا هذا مرجعاً أساسياً لدراسة وصف بعض البلدان في المجالات الجغرافية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية. بالإضافة إلى ذلك أنه لا يغفل عن الإشارة إلى المعالم الأثرية ووصف الممالك والمسالك والأصقاع والأقطار وتحليل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وما إلى ذلك. إذ إنه يسعى إلى توثيق المشاهد التي يراها وكتابتها عن طريق التفاعل المباشر مع الطبيعة والناس وحياتهم وتُعتبر ما ينقله الرحالة مادة علمية مهمة يستفيد منها الجغرافيون والمؤرخون وعلماء الاجتماع والاقتصاد والأدب، حيث يشتمل على أعمال تتجاوز بعضها الطابع الديني والبعض الآخر يركز على العلم والعلماء. إن أعمال الرحالة جميعاً أصبحت ضرورة للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع³.

1 أبو سعد، أحمد : أدب الرحلات، ط1، منشورات دار الشرق الجديد - بيروت، 1961 م، ص 5.

2 المرجع نفسه، ص 5 .

3 ينظر: المرجع نفسه، ص 5 .

2. القيمة الأدبية:

وأما القيمة الأدبية " فهي تتجلى في كون كثير مما أورده هؤلاء الرحالون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال ويمكن أن نعتبر ما دونه الرحالة مما شاهدوه أنموذجاً من أرقى النماذج وأروعها في الوصف الفني الحي المتميز"¹.

كما تكتب هذه الرحلات بأسلوب أدبي يتميز بجمال الكلمات وسلاسة التعبير، وتصف المشاهد بدقة شديدة، فإن الرحالة يلجأ - في بعض الأحيان - إلى استخدام أسلوب قصصي سهل، ويتم بذلك إدراج هذه الرحلات ضمن فنون الأدب العربي.

ويتبين من هذا أن للرحلات أهمية كبيرة عند الإنسان، فهي تساعد في تثقيف المتلقي، وتطوير فكره و تأملاته فيما يتعلق بالآخرين، ففي كتب الرحلات، يصور المؤلفون بعضاً من جوانب حضارة العصور التي قاموا برحلاتهم إليها وينقلون ثقافة البلدان التي زاروها وظروف الشعوب التي تعاملوا معها.، وبذلك تعد هذه الكتب من أكثر المدارس الأدبية التي تزود الإنسان بثقافات مختلفة تساعده على اكتشاف الآخر وتنمية الذات.

¹ أبو سعد، أحمد : أدب الرحلات، ص 6 .

○ الامتداد المكاني للرحلة ومسارها الزمني

إن الكشف الجغرافي الذي يؤدي إلى اكتساب معرفة الآخر كونها معرفة امتيازية بطبيعة الأمر في توصيف لغته وحياته وتقاليده، فيؤدي بالرحلة إلى تقديم مادة اثنوغرافية مهمة تقوم بالأساس على قاعدة المقارنة بين النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة¹. وهذا ينطبق على مصطلح التاريخانية الجديدة التي تهدف إلى فهم العمل الأدبي ضمن سياقه التاريخي مع التركيز على التاريخ الأدبي والثقافي والانفتاح على تاريخ الأفكار وقد بيّن ستيفن جرينبلات أن مفهوم التاريخانية الجديدة هو : " لا تقتصر العمليات التاريخية على أنها غير قابلة للتغيير وعديدة، ولكنها لا تميل إلى اكتشاف حدود أو قيود مفروضة على التدخل الفردي..² فهو مثّل الأدب في مفهوم التاريخانية الجديدة على أنها الحِقبة التاريخية التي يعيش فيها الكاتب ، فسيرة نقولا زيادة ورحلاته ساعدت على صنع التاريخانية الجديدة في تناسها مع السياقات الاجتماعية والثقافية من خلال الأماكن التي زارها وتعرف على مختلف شعوبها .

وعند الإمعان في الامتداد المكاني للرحلة وسيرها الزمني نرى أنها تتسم بتعدد الأماكن والأزمنة ولا تسير في مكانٍ واحدٍ وزمانٍ واحدٍ بل هناك أمكنةٌ معينةٌ في أزمنةٍ مختلفة، إذ إن المتتبع لخط سير رحلات نقولا زيادة منذ عام 1907 وحتى نهاية 1979 م ابتداء من رحلاته وزياراته في فلسطين وانتهاء بالشمال الأفريقي، فقد جاءت رحلاته على شكلين أولهما متمثلاً: بزيارة للعالم العربي، والآخر بزيارة للعالم الغربي على فتراتٍ متفاوتة.

ونلاحظ أنه بدأ رحلاته من موطن رأسه خلال زيارته لوالدته في فلسطين مروراً ببلبنان وسوريا انتقلاً إلى القاهرة بعدها إلى أوروبا (لندن – ألمانيا – بيزانسون) ثم زيارة إمارة شرقي الأردن وزيارة مرسيليا وأثينا والإسكندرية وقبرص وبرقة وليبيا ومالطة وإسطنبول وتدمر وزيارة العراق والخليج العربي وبلاد السند والهند وزيارة طهران وشيراز وأصفهان وطشقند، و سمرقند، وبخارى، وخيوه، والشمال الأفريقي، إذ نراه يذكر عند

1 ينظر: جوردا، بيير: الرحلة إلى الشرق، ترجمة: مي عبد الكريم و علي بدر، ط1، الأهالي للتوزيع – دمشق، 2000، ص 7.

2 ديفيد كارتر؛ النظرية الأدبية؛ ترجمة: د. باسل المسالمة، ط1، دار التكوين، دمشق، سوريا، 2010م، ص 148-149 .

زيارته لبعض الأماكن أنه زارها أكثر من مرة، كزيارته للبحرين بقوله: " قد زرت البحرين بعد ذلك عددًا من المرات ... " 1.

وقد وصف جميع هذه الأماكن بشكلٍ جغرافي ذاكراً تاريخ وقصص البلاد في هذا الشأن وذكره سبب التسمية لبعض الأماكن، حتى أنه ذكر قصة البحر الميت وقوم لوط عند زيارته للأردن واستحمامه بماء البحر الميت، ولم يقتصر وصفه على التاريخ وحسب بل إنه أيضاً وصف الطرق والمناظر الطبيعية من جبال وبحور وسهول وهضاب، إذ إنه حاول أن يذكر جميع الامتدادات الجغرافية التي توطر للمكان الذي ذهب إليه لزيارته، فيذكر انتقالاته بين المدن والحدود والعادات والتقاليد الذي يتسم بها أهل المكان وخصائصهم.

سجل نقولا زيادة رحلاته المختلفة استناداً إلى ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه، وفقاً لأسلوب المشاهدة والنقل والأخبار، مستعيناً بالتاريخ، فهذا أسهم في توفير مادة غنية عن الحضارة العربية والأخرى الغربية، حيث إنه استكشف الثقافات المختلفة ووثق المعالم البارزة منها كونه خاض غمار الآخر وصور مشاهدته وفقاً لما ارتسم في مخيلته من وقائع وأحداث فنقل لنا الأوصاف والمشاهدات ممزوجة بدقة التصوير والمراقبة في ملاحظة الآخر، فلآخر حضور دائم عند الذات في جميع محطات الحياة، فالذات في حالة بحث مستمر عن الآخر كونه يعيش معها، وتتغير ملامح الآخر وصوره بتغير الظروف والمواقع، فقد يكون الآخر قريباً من الذات ومعروفاً لها أي مشابهٍ لها، وقد يكون بعيداً عنها في أماكن مختلفة.

وبناء على هذا فإن صورة الآخر التي حملتها رحلات نقولا زيادة مرتبطة على نحو كبيرٍ بالمكان وأطره البيئية، فإن رحلاته لم تقتصر على اتجاهٍ واحد ولم يقتصر امتدادها على رقعةٍ معينة بل اتسعت من المحيط إلى الخليج وقدمت صورةً واضحةً عن طبائع الشعوب والأحداث التي مروا بها عند معاشتها لفترة من الزمن امتدت من عام 1916 حتى عام 1992 م، والجدير بالذكر أن نقولا زيادة لم تكن زيارته للأماكن المذكورة أعلاه بشكلٍ تدريجي وفقاً لمسارٍ خطيٍّ وإنما وثق رحلاته في كتابه المعنون بـ (حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا والشمال الأفريقي 1916-1992) بهذا الشكل ربما لاعتماده على ذاكرته في سرد أحداث الرحلات بعد مضي فترة طويلة من الزمن، أو ربما لغاية في نفسه نجهلها نحن الباحثون.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 319.

○ مشاهد الرحلات (العربية / الغربية)

تعتبر الرحلات صلة وصل بين الثقافات المختلفة والمتباينة، حيث تُعنى بتحديد الفروق بين الشعوب والمجتمعات فالرحلة عند فؤاد قنديل هي سلوك إنساني حضاري يؤتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها، فالرحلة هي اليد التي تمتد لتقرب شعوبًا تتأدت عن شعوب وأقوامٍ إلى أقوام تفصل بينهما البحار والقفار¹.

فالنَّصُّ الرَّحْلي وإن تعددت منطلقاته وأهدافه فهو يعد نسيجًا من العلامات والعوالم يتبادلها الذات والآخر، فهو نابع من التجارب الفردية الواقعية للرحالة، ويصوّر لنا الوقائع والأحداث ويترك لنا انطباعه، فالصورولوجيا بين الذات والآخر تفيد في تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر، فتُعري الذات والآخر معًا لكي تؤسس لعلاقات بعيدة عن الأوهام التي هي نتيجة للتشويه السلبي والإيجابي لصورة الآخر.

ومن خلال هذا يتّضح لنا بأنّ الرحالة يقومون بالرحلة بغية الكشف عن الآخر في وصف أسلوب وطريقة حياة الشعوب والمجتمعات وتقاليدهم، كالمأكل والمشرب والملابس وغيرها... فالانفتاح يتمثل في الاستعداد النفسي والعقلي للنظر فيما عند الآخر المختلف في الفكر من خلال الذاتية.

فقد تفاعل نقولاً زيادة مع عدد من الثقافات التي جاءت على خارطة وجهته المراد الذهاب إليها معتمداً على المشاهدة في توثيق الأخبار والمعلومات مفصلاً في وصف الأمكنة التي يزورها، فخصص لكل بيئة مكانية مساحة كبيرة من وصفه وتصويره جغرافياً للمجتمع وما يتبعه من ظروف تؤثر على الآخر، كون المكان هو المسرح التي تجري فيه الأحداث، وكما قال غاستون باشلار إن " وصف المكان غالبا يدل على أصحابه، ويكشف عن بيئة هذه الشخصيات، ومظهرها العقلي والنفسي والاجتماعي، ويحمل خصوصية قومية "2 إذ إن البيئة المكانية هي الأساس الذي يُسهم في معرفة الآخر، فالعلاقة بين نقولاً زيادة والمكان نتجت من صورة

1 ينظر: قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، ص21، ص22.

2 باشلار غاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هسا، ط 3، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ص 1987م، ص 7.

الآخر الساكنة لهذا المكان فقد اشتمل على بعدٍ جغرافيٍّ مدموجٍ بالتاريخ في اكتشاف الشعوب، ليكون التاريخ شاهداً على تلك الأحداث ومخلداً لها.

ومن المعلوم أنّ الرحلة أعطت طابعاً خاصاً للبعد الاجتماعي، فقد تنوّعت المشاهد في رحلات نقولا زيادة بين مشاهد الموتى متمثلة في مشاهد والده، والمشاهد التعليمية، ومشاهد الطعام، والمشاهد السياحية والطبيعية التي أخذت حيّزاً جغرافياً، فتعدد الأمكنة على اختلافها أدّى إلى تعدد المشاهد في رحلاته.

ركّز نقولا في العلاقة بين الإنسان والمكان وتناول هذه الرحلة من جوانب عدّة تحمل طابعاً وصفيّاً، فقد نقل الرحالة الأحداث التي عايشوها في تلك المشاهد المختلفة باختلاف المدن إن كان هذه الرحلات عريضة أم غريبة، فنراه يصوّر الآخر وفقاً لما رآه آنذاك في مشاهد الرحلات المتنوّعة، متمثلة بالآتي:

- مشهد الموتى:

إن من المشاهد الأولى التي ذكرها في رحلاته مشهد الموتى إذ بدأ به وبين ذلك المشهد عندما بحث عن والده فقد كان مريضاً ومحبوراً من قبل الآخر التركي للتجنيد، وذهب لزيارته في المستشفى فقيل له من قبل الآخر أن يفتش عنه في الموتى، فيا لبشاعة هذا الأسلوب ! تخيل أن يقال لك فتش عن أبيك وكأنه لباس تبحث عنه.

فمن هنا تبين لنا وحشية الآخر في القتل ورميه للجثث دون إكرام لأحقية الميت ومن المعلوم أن إكرام الميت دفنه، فوصف نقولا زيادة تلك المشاهد قائلاً: " كانت الجثث ملقاة على الأرض كما انفق، لا ضبط للأطراف، ولا تغطية إلا القليل جدّاً، وكانت المياه الباردة تدور كي تحفظها من التعفن..... صعقني المنظر والصوت والوضع.."¹.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 54 .

- المشهد الديني:

تمثلت المشاهد الدينية في ديانة الأقوام المختلفة، وتظهر هذه الديانات وفقًا للطقوس التي يعيشها الإنسان، فقد بين نقولا زيادة طقوسه في العبادة من خلال الطريق الذهاب إلى جنين بأنه حمل كتاب السواعي قائلاً: " فأنا كنت في صغري لا مؤمنا فحسب ولكن كنت أمارس قراءة الصلوات المطلوبة صباحًا ومساءً فحملت معي من الناصرة إلى جنين السواعي وهو كتاب الصلوات للكنيسة الأرثوذكسية وكنت أنهض مبكرًا بحيث أقرأ الصلاة الطويلة أما في المساء فكنت أكتفي بالصلاة الصغرى "1.

كما تحدث عن مشاهد تعليمه للمسيحية وكيف درس فيها إذ إنه كان يعطي المعلومات الدينية المسيحية للأولاد: " كنت أذهب لحضور مدرسة الأحد، ومدرسة الأحد كان المقصود منها إعطاء الأولاد صبيانًا وبنات المعلومات الدينية المسيحية الضرورية "2.

وقد وصف زيارة القبور عند قوله: " قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكانًا يعبر عن حياته "3 كما عبر عن زيارة الموتى (أهل القبور) في موضع آخر عند زيارته لمصر بقوله: " فنحن في الإمام الشافعي ونحن قريبون من سعد فلا بد إذن من زيارة له.. "4 كما أنه وصف مختلف الجوامع والكنائس في رحلاته العربية والغربية، فقد قال عندما وصف جامع الكتبية في مراكش: " بناء ضخمة.. "5.

فمن خلال هذه المشاهد الدينية المختلفة نريد أن نصل إلى حكمة مفادها أن الآخر قد يختلف مع الذات ولكن على كل منا احترام أديان الشعوب الأخرى والوصول إلى مبدأ التسامح والتعايش مع الأديان على اختلاف أطرافها ودياناتها ومذاهبها.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 62.

2 المرجع نفسه، ص 62.

3 المرجع نفسه، ص 125 .

4 المرجع نفسه، ص 171 .

5 المرجع نفسه، ص 349.

- المشاهد السياحية:

تنوعت مشاهد وصف الطبيعة السياحية عند نقولا زيادة، فنراه يصف أبسط التفاصيل بشكلٍ دقيقٍ كوصفه لملوحة البحر الميت عند زيارته للأردن، وأيضًا وصف العديد من التفاصيل للأماكن والصخور والتلال كوصفه لبانياس: " إن ساعة وبعض الساعة من المشي لتتقلنا إلى بانياس، فنجتاز في طريقنا أرضًا خصبة جميلة، مكسوة بالأشجار، ونعبر النهر على بقية صالحة من جسر روماني، فنصل إلى غار كبير . بعض أجزائه حمراء . ومن صدر الغار يخرج نهر كامل العذّة والصورة "1.

- المشاهد الثقافية:

رصد الحركة الثقافيّة وانتشار التّعليم في البلدان التي زارها فقد بيّن المفارقة بين بداية نشأة التّعليم في البحرين وبين نشأة التعليم في الكويت عند زيارته لدول الخليج العربي.

كما أنّه تنوّع في رحلاته بذكر طرف من حركة الثّقافة العربيّة كحديثه عن تأسيس مجلّة العربي الكويتية التي تمّ ترشيح أحد المعنيين من قبله لرئاسة تحريرها وهو العالم المصري أحمد زكي.

- المشاهد الاجتماعية:

وصف صورة الحكّام وهم يدافعون عن بلادهم ضدّ خصومهم فقد قيل: " بناها الحكام للدفاع عن البلاد ضدّ خصومهم من جيرانهم "2.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 143.

2 المرجع نفسه، ص 104.

وقد ذكر أنه عند زيارته للندن يرى أنها إنجليزية بحتة حيث لا يوجد فيها إلا القليل من الأجانب، كما أنه بين مشاهد الحرية: في كل من بريطانيا وفرنسا ومشاهد الاحتلال والاستعمار في الدول العربية من قبل الآخر.

- مشاهد العادات و التقاليد:

بين نقولا زيادة من خلال رحلاته عادات وتقاليد بعض الشعوب فنراه يذكر عند زيارته لأوروبا أنه تفاجأ من مشهد الانتظام والاصطفاف بالدور كون هذا الأمر نفتقر منه في بلداننا العربية.

ووصف أيضاً مشهد افتقار دورة المياه في البلدان الأوروبية للماء، وقد وضح بيع ألمانيا للمحارم الورقية للدخول لدورة المياه، مبيناً صورة الآخر هنا في الاستغلال.

- مشاهد الطعام و الشراب و اللباس:

وضح نقولا زيادة أنواع الأطعمة في رحلاته المختلفة وطرق تناولها وقد وجه مفارقة جميلة عندما وصف الطعام أنه في الرحلات العربية كان متمثلاً باللبن والزيتون، أما في رحلاته الغربية فتمثل بالفاكهة والبيض المقلي والنقانق واللحم المقدد وغيرها فقد قال: " عكا والناصره والقدس ووو كنا نجد على الطاولة لبنة أو جبنة ومع ذلك الزيتون أو الزعتر والزيت، ولكن في البنسيون الذي أقدمت فيه يومها كان الطبق الأول إما فاكهة وغالباً ما تكون موزة أو نوعاً من الحبوب المطحونة يتلوه بيض مقلي أو بيض مع النقانق والبيكون أو نقانق وحدها أو من قطعة سمك مسلوقة مع صوص خاص بها يرافق ذلك كله خبزاً وزبدة ومربى وشايًا"1.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 188.

فهنا يبين الرفاهية التي يعيشها الآخر متمثلة في الطعام، بالإضافة إلى أنه أوضح حرص الإنجليزي على استخدام السكينة والشوكة أثناء الطعام بقوله: " الإنجليزي حريص على أن تمسك السكين باليد اليمنى والشوكة باليد اليسر فيكون القطع والأكل عمليين متلازمين "1.

كما نراه وصف الطعام والشراب في مشهد آخر عند وصفه لطعام عشاء الشرطة عندما استضافوه بأنهم كانوا يأكلون مع كأس فقد قال: " فالجماعة كانوا يأكلون مع كأس "2. وقد قيل أيضًا في مشاهد الطعام: " وفي بعلبك تشم رائحة النقاء وفي الهواء وفي الماء وفي اللحم الذي تأكله وفي الخبز الذي تغمس به طعامك وفي الصفيحة البعلبكية"3.

ولم يقصر مشاهدته على هذا فحسب بل ذكر مشاهد متنوعة في وصف شراب القوم بقوله: " كان القوم يحتسون الأشربة الباردة – العرقسوس أو شراب الرمان أو الورد أو الكازوزة "4.

كما أنه نقل الأحداث التي عاشوها في تلك المشاهد المختلفة ومنها ما ذكره نقولاً في لبس الرجل واصفًا إياه: " يمارس وظيفته في مكتب رسمي وهو يلبس قبقابًا من الخشب "5.

وأيضاً وصف اللباس الذي كانوا يلبسونه في إنطاكية: " كنّا نلبس السروال أو البنطلون القصير "6 وهذا يدل على لبس الآخرين ذلك اللباس في تلك المنطقة، فهم يتمثلون ويحتذون عادات وتقاليد سكان تلك المنطقة.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 196.

2 المرجع نفسه، ص 82 .

3 المرجع نفسه، ص 135.

4 المرجع نفسه، ص 78.

5 المرجع نفسه، ص 79 .

6 المرجع نفسه، ص 116.

وهناك العديد من المشاهد التي أضافت لنقولا زيادة وللقارئ معرفة واسعة اكتشف من خلالها رؤية الآخر من وجهة نظر نقولا وتصوراتة عنها ولا يسعني أن أذكرها جميعاً في هذا المبحث فقد حاولت أن أذكر أبرز المشاهد التي تبين التأثير والتأثر، بوصفه للمشاهد بشكلٍ واقعي ينساب فيه عنصر التشويق مما يسهم في جعل القارئ وكأنه هناك يخوض في تلك المشاهد مع نقولا زيادة، وكما يتضح لنا من ذلك، فإنّ الذات تشكّل انطباعات أولية عن الآخر، وعند زيارتها للآخر ورؤية المشاهد المختلفة، فإنها تكتشف صورة الآخر بأكملها ومن ثم تكون تصوّراً شاملاً عن الآخر.

الفصل الخامس

(البنية السردية للسيرة والرحلة)

- السرد وعناصره

- التبئير

- الحدث

- المكان

- الزمان

- الشخص

- الوصف

- العنوان والعتبات النصية

- اللغة

إن هذا الفصل يتناول البنية السردية في السيرة الذاتية والرحلات لنقولا زيادة، فلا بد من أن نحدد المقصود بمصطلح السرد الذي يعبر عن البنية السردية التي هي موضوع الدراسة لهذا الفصل.

فالسرد له مفهومات مختلفة، فيقول ابن منظور " سرد الحديث ونحوه يسرده سردًا، إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردًا، إذا كان جيد السياق له. وفي صفة كلامه "ص": لم يكن يسرد الحديث سردًا أي يتابعه، ويستعجل فيه، وسرد القرآن: تابع قراءته في حذر منه فالسرد المتتابع" 1، فهذا يعبر عن سرد الحديث أي التتابع فيه.

يذكر سعيد يقطين: "أن السرد هو الفعل السردى المنتج" 2، وورد في معجم السرديات أن تناول جينيت (genette,1972) تناول السرد باعتباره النشاط السردى الذي يضطلع به الراوى وهو يروي الحكاية ويصوغ الخطاب الناقل لها. وهو ما سماه (جينيت) فعل السرد معتبرًا في ذاته. ويميز هذا المنظّر بين فعل الكتابة الذي ينشئه الكاتب وهو فعل حقيقي من فعل السرد الذي ينجزه الراوى وهو فعل متخيل. وينجم عن فعل السرد الخطاب القصصي والحكاية، وفي السرد لا يوجد الواحد منها دون الآخر، إذ لا يصور السرد منفصلاً عن الخطاب الذي يصوغه، وبهذا يندرج السرد والحكاية والخطاب أو الملفوظ 3.

وقد استعمل (تودوروف) مصطلح السرد" بمعنى الحكاية، ويستعمل مصطلح السرد أيضًا علاوة على كونه العمل التواصلى الذي به وفيه ينقل المرسل رسالة ذات مضمون قصصي إلى مرسل إليه رديفًا للكلام باعتباره وسيطًا يحمل الرسالة المذكورة. وهذا الكلام القصصي الموسوم بالسرد هو الذي به يتميز التخيل القصصي من سائر أشكال التخيل تكون في السينما أو في الرقص أو في التمثيل" 4.

1 ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994م، المجلد 3، الجزء 3، ص 211 .

2 يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائى (الزمن - السرد - التبئير)، ط 3، المركز العربى الثقافى العربى - بيروت، 1997م، ص 40 .

3 ينظر: القاضي، محمد، وآخرون: معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ص 243 .

4 المرجع نفسه، ص 246.

وقد تعددت استخدامات السرد (Narration) الاصطلاحية التي يدور أغلبها حول القص أو الحكى والطريقة التي يتبعها السارد في إيراد مضمون خطابه الإبداعى. " واتسع مجالها فأصبح يطلق على كل ما يتعلق بالقصص فعلاً سردياً أو خطابياً أو قصصياً أو حكايةً. ويبقى السياق الذي يستعمل فيه هو الخلق بضبط المعنى الدقيق الذي يعنيه فهناك سردٌ متزامنٌ، سردٌ محضٌ، سردٌ مدرجٌ، سردٌ مفصلٌ، سردنة"1.

وإذا نظرنا في السرد من ناحية تلفظية تخاطبية تبين لنا "أن السرد وجه من وجوه عمل تواصل بين الراوي والمروي له ومن ورائهما المؤلف والقارئ" 2 إذ " يتقاطع السرد بوصفه رصدًا للأفعال والحوادث مع عناصر البنية السردية (الشخصيات، الزمان، المكان، التبئير، الأحداث،...) انطلاقًا من العلاقة التفاعلية القائمة بين الطرفين، فمن خلال السرد الذي يصف تلك العناصر ويشكلها، يمكن كشف جوانب النص وأبعاده الدلالية، كما أنه يتشكل وفق تشكل الواقع، وعلى هذا الأساس يصبح المعنى في السرد هو وظيفة العلاقة بين عالمين عالم خيالي ابتكره المؤلف، وآخر حقيقي هو الكون المدرك، وعندما نفهم سردًا، فأنا نعني أننا وجدنا علاقة مرضية أو مجموعة من العلاقات بين هذين العالمين "3.

وإذا أردنا تعريف السرديات فنص محمد القاضي على أنها "علم يتناول قوانين الأدب القصصي" 4.

أما السردية ففي موسوعات السرد العربي الحديث تعنى "باستبطاق القواعد الداخلية للأجناس الأدبية، واستخراج النظم التي تحكمها وتوجه أبنيتها، وتحدد خصائصها وسماتها، فهي تبحث في مكونات البنية السردية للخطاب من راوٍ، ومروي له ولما كانت بنية الخطاب السردى نسيجاً قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكيد على أن السردية هي المبحث النقدي الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردى، أسلوباً، وبناءً، ودلالةً" 5 فهي عبارة عن " العلم الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردى أسلوباً وبناءً ودلالةً فيتم نقلها عبر نص مكتوب، وهو

1 القاضي، محمد، وآخرون: معجم السرديات، ص 246-249.

2 المرجع نفسه، ص 244.

3 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 6 .

4 القاضي، محمد وآخرون: معجم السرديات، ص 249.

5 إبراهيم، عبدالله: موسوعة السرد العربي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2008، ص 8 .

الأكثر شيوعاً وتداولاً في مجال الدراسات النقدية الحديثة، وهذا النص يجد عالمه في عناصر البنية السردية (الشخصيات، الحوار، الحدث....)"1.

وإزاء كل هذا فنحن في هذا الفصل سنقوم بالكشف عن البنية السردية، وتحليل أنظمتها، ومكوناتها والعلاقات الداخلية فيها، فغرضنا تبيان العناصر السردية ومعرفة ماهيتها فتحليل أي عنصر لا يمكن أن يتم بمعزل عن بقية العناصر الأخرى، فهذه العناصر المترابطة تشكّل البناء الفني للسيرة الذاتية والرحلات، فتعطي السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته قيمةً فنيةً كبيرةً.

ويمكن الكشف عن التقنيات الفنية للبنية السردية عند نقولا زيادة في سيرته الذاتية ورحلاته من خلال تناول العناصر الآتية (التبيين، بناء الأحداث، المكان، الزمان، الشخصيات...) التي سنعرضها في المبحث الآتي.

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 7 .

○ السرد وعناصره:

1. التنبير

يتمثل نسيج السرد في عدة عناصر وهي: التنبير - الشخص - الزمان - المكان - الأحداث..)، فهذه هي العناصر التي يتكون منها نسيج السرد، وينبغي أن تسهم كلّها في تجسيم الحدث وتحريكه، وصبغه بألوان حيّة، إذ إن السرد ينقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية فنيّة، يتسم بالحيوية.

وللسرد ثلاث طرق:

1- طريقة "يتحدث فيها الكاتب بضمير المتكلم على لسان البطل أو البطلة، أو تسند عملية السرد إلى الراوي أو على لسان شخصية ثانوية، وهي أبسط طريقة لعرض حوادث القصة وتطويرها"¹.

2- طريقة المذكرات، والرسائل: "ويجري السرد فيها أيضا بصيغة المتكلم وفي هذه الطريقة يعتمد على الرسائل المتبادل بين أبطال القصة، ومن خلال تلك الرسائل تعالج المشكلة التي تعاني منها شخص القصة، ويوضح لنا الشخص، ويرسم الجو العام للقصة"².

3- يستخدم الكاتب " ضمير الغائب في سرده للرواية، وعمله هنا كعمل المؤرخ، يسرد الراوي الأحداث في تتابع، ويقدم أشخاصه مفسراً تصرفاتهم، وجلّ أفعالهم. ويسير للأحداث والشخصيات سيراً طبيعياً حتى تبلغ الأحداث نهايتها، ونلّح من خلال هذا السرد أن الكاتب لا يتدخل فيه، فيرى أكثر مما ترى الشخصيات، ويعرف عنها أكثر مما تعرف عن ذواتها، ويروي الرواية من بعيد وفيه يعتمد على وصف الأحداث"³.

والطريقة الأولى والثانية هي التي تنطبق على سيرة نقولا زيادة ورحلاته، فنقولا زيادة يسرد الأحداث التي حصلت له وفقاً لما يتذكره في تتابع وتسلسل من ولادته وموت والده إلى تعلمه وابتعاثه وتقديمه في العلم

1 عمران علي، التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاسم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78،

2015م، ص 13

2 المرجع نفسه، ص 13

3 المرجع نفسه، ص 13

وزواجه....، مرورًا بالأحداث التي مرت بها حياة الراوي، وصولًا إلى نهاية سرد سيرته الذاتية وذكر مذكراته. وإن الحوار قد شغل مساحة ليست بالكثيرة لأن نقولاً زيادة كان هو الراوي والبطل في الوقت نفسه، وعلى العكس من هذا فإن الوصف شغل مساحة واسعة فَوَصَفَ الأحداث والأماكن ووصفه الشخصيات وحل بعضها.

ومن المعلوم أن الراوي يعتبر صوتًا يختبئ خلفه الكاتب، لذا " فهو في علاقته بما يروي، عنصرٌ مميزٌ للوظيفة، فهو الذي يمسك بكلّ لعبة السرد، وهو والكاتب من خلفه - يمارس هذه اللعبة ليقوم منطق البنية من حيث إنّ هذا المنطق هو في المنطق نفسه، منطق القول. وقد يكون الكاتب غائبًا عن النصّ السردى أو يكون حاضرًا كواحد من الشخصيات السردية وإذا كان الكاتب غائبًا بشخصه عن نصه السردى، فلا يعني ذلك أن غيابه المادي ينفي وجود أثر له هنا أو هناك في عالم السرد. و يمكن أن نسمي هذا الاختفاء سرّيًا لأن ثمة ملامح من شخص الكاتب تبقى موجودة في السرد ¹.

فلاحظ في هذه السيرة الذاتية أن الراوي هو نفسه الكاتب، فقد كان الكاتب حاضرًا فيها وهو شخصية البطل نفسه فنراه يستخدم ضمير المتكلم، فقد وضح نقولاً زيادة رؤيته حول الآخر في المجتمعات العربية والغربية، ومثال على ذلك: " كنا نزور القرى المختلفة في جنين. فقد كان بعض أصحابي لهم أقارب في تلك القرى. ولأنني كنت أحب المشي وأقدر عليه.... " ².

كما ذكر ضمير المتكلمين المنفصل (نحن) عندما قال: " فنحن الفقراء كان يبدو فقرنا في ثيابنا المتواضعة... " ³ مبيّنًا الذات الفقيرة والآخر الغني من خلال الملابس وطريقة الكي.

1 عمران علي، التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاسم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 14 .

2 زيادة، نقولاً، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 27 .

3 زيادة، نقولاً، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 41 .

فقد كثر ضمير المتكلم في هذه السيرة الذاتية ولعلّ ذلك يعود إلى أن الكاتب وهو يكتب سيرته الذاتية يريد أن يبيّن بحثه عن الآخر عن طريق التعرف على الهويات المختلفة التي تعكس رؤية الكاتب للمجتمع.

إن علاقة الراوي بالشخصية متمثلة في الرؤية السردية وهي تشمل التبئير ووظائف السارد، فالتبئير حسب علاقة الراوي والشخصيات يتمثل في:

- الرؤية من وراء، معرفة الراوي أكبر من معرفة الشخصيات، فيكون الراوي عالماً بكل شيء والشخصية لا تعلم شيئاً.
- الرؤية مع، معرفة الراوي تساوي معرفة الشخصيات، فيكون حال الراوي مساوياً لحال الشخصية.
- الرؤية من الخارج، معرفة الراوي أصغر من معرفة الشخصيات، يكون حال الراوي أصغر من حال الشخصية وأقل منها فقط يتطرق للقول ولا يصف الخفايا والنوايا¹.

حيث إن تودروف ينظر إلى الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية. أما توماشفسكي فينظر إلى أسلوب السرد الموضوعي وأسلوب السرد الذاتي.

وواضح من خلال قراءة السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته أن الحالة الأولى هي الحالة المسيطرة على هذا النص السردية، فروى الكاتب سيرته بأسلوب الراوي العليم المشرف على الأحداث؛ ما كان منها وما سيكون، وهذا أسلوب تقليدي في بناء السيرة الذاتية.

1 ينظر: عزّام، محمد: شعرية الخطاب السردية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م، ص 88- 90 .

2. الحدث

بناء "الأحداث" هي عبارة عن مجموعة من الأفعال والوقائع مرتبة ترتيباً سببياً، وهناك أربعة أنواع من الأحداث وهي: الحدث المتتابع والحدث المتداخل والحدث المتزامن والحدث المكرر¹، فالأحداث في السيرة الذاتية لنقولا زيادة تتمثل في رسم طريق البحث عن الذات من خلال اكتشاف الآخر، إذ تعد الأحداث من أهم العناصر في النص السردي، "فالحدث هو اقتران فعل بزمان وهو لازم في السرد لأنها لا تقوم إلا به، ويستطيع القاص أن يكتفي بعرض الحدث نفسه دون مقدماته أو نتائجه كما في القصة القصيرة أو قد يعرض هذا الحدث متطوراً مفصلاً مثلاً في القصة الطويلة أو الرواية² والأحداث في النص السردي "تتطور إلى أن تصل إلى ذروة التأزم وهذا التطور هو الذي يبعث الحركة والنشاط داخل النص السردي فهو العصا السحرية لتحريك الشخصيات في النص السردي وتسوق الحوادث واحدة تلو الأخرى حتى تؤدي إلى النتيجة المريحة والمقنعة..³

كما أن الحدث يعبر عن "فعل الشخصية وهو كل ما يؤدي إلى تغيير أمرٍ أو حلٍّ أو حركةٍ أو إنتاج شيء. ويمكن تحديد الحدث في النص السردي على أنه لعبة قوى متواجهة ومتحالفة، تتطوي على أجزاء تُشكّل بدورها حالات محالفة أو مواجهة بين شخصيات، فإن الأحداث تدل على حركة الشخصيات، وحركة الشخصيات تدل على حياتها فإن الناس في النص السردي مضطرون أن يفعلوا شيئاً ما، ونحن نفترض أن كثيراً من الأحداث ليست سوى وسيلة ممهدة من شأنها أن تتيح لنا التعرف على الشخصيات، أو تمنحنا تخیل الظروف والملابسات الزمانية والمكانية المصاحبة⁴.

1 الذنبيات، رانيا: بناء السرد في الرواية الأردنية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2002م، ص 81.

2 الصمادي، صهيب: تجربة صبحي فحماوي الروائية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2012م، ص 61.

3 الفواعة، نورة: القصة القصيرة عند هند أبو الشعر دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2009م، ص 107.

4 السرور، سهام: البناء الفني في روايات إدريس، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2010م، ص 70.

يتكون الحدث من بدايةٍ ووسطٍ ونهايةٍ، "فالبداية أو الموقف عند بعض النقاد ينشأ منها موقفٌ معيّن، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهي إلى النقطة الفاصلة، وهو سبب وجود الحدث في الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة وتمثل نهاية الحدث لحظة التنوير.."¹ فالكاتب يربط الحدث في إطار محدّد وفق ما رسم له ويجعل الحدث يرتبط بالشخصيات، فالكاتب قد يبدأ بسرد الأحداث من نهايتها وقد يبدأ من بدايتها وفق ترتيبٍ زمنيّ متسلسلٍ..

وعند النظر في السيرة الذاتية لنقولاً زيادةً ورحلاته نرى أن بداية السيرة تمثلت بظهور تاريخ زمني لوقت ولادته، وبعدها يواصل الحديث في ذكر عمره كون تاريخ ولادته مرتبطاً بتاريخ انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتتجلى نزوة الأحداث في رحلة نقولاً زيادةً لاكتشاف الذات واكتشاف الآخرين، ويبدأ الصراع في ذلك الوقت برؤية جديدة للكاتب يسعى من خلالها للبحث عن مكنونات الذات والتعرف على الهويات الأخرى.

أما وسط السيرة الذاتية لنقولاً زيادةً ورحلاته، فقد امتلأ بالأحداث الكثيرة التي أسهمت في بروز سيرته الذاتية وتنوع رحلاته حيث تسارعت الأحداث نوعاً ما في ذكر تفاصيل البلدان المختلفة..

أما نهاية السيرة الذاتية فكانت مغلقةً بانغلاق لا محدود إذ إنها اشتملت على حكمةٍ مفادها أن على الإنسان أن يكون عضواً فعالاً في الجماعة المحيطة به " ومنذ ذلك الوقت وأنا أعتبر أنني يجب أن أكون دائماً جزءاً عاملاً أو عضواً فعالاً في الجماعة التي تحيط بي، صغيرة كانت أو كبيرة"²، وجميع هذه الأحداث في السيرة الذاتية قد خدمت الذات فساعدت على ظهورها بهذا الشكل إضافة إلى مساعدتها في اكتشاف الآخر.

فالأحداث في السيرة الذاتية قد بدأت بنقولاً زيادةً وانتهت به، وافتتحها نقولاً زيادةً بتاريخ مولده واختتمها بأنه أصبح جزءاً من مجتمع فيه عناصر الثقافة المتكاملة.

1 الصمادي، صهيب: تجربة صبحي فحماوي الروائية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2012م، ص 61.

2 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج 2 ص 307.

3. المكان (مسرح الأحداث)

يعتبر المكان أحد مكونات السرد، فالمكان هو مرآة المتلقي وهو عبارة عن اللوحة الفنية، كما أن " المكان هو الأرض التي تحتضن الشخصيات وممتلكاتها وعالمها، وهو عنصر أساسي من عناصر بناء النص السردى لأنه يحوي جميع عناصر السرد من شخصيات وأحداث وزمان، حيث تتخذ الشخصيات من المكان مسرحاً لأحداثها، كما يأخذ المكان دلالاته من خلال السياق الذي وضع فيه " ¹ كما أن المكان يعتبر "عنصرًا جوهريًا في تشكيل فضاء النص السردى وهو من أبرز تقنيات السرد الدالة، وذلك من خلال الحضور والغياب، وقد يوجد الروائي متخيلًا لا يرتبط موضوعيًا بمكان بذاته وقد يكون الفضاء المكاني محددًا معلومًا" ².

المكان يؤثر على الشخصية كما يؤثر على الزمان في البناء السردى، فهو " سواء أكان واقعيًا أو خياليًا يرتبط بالشخصيات كارتباطه بالحدث وجريان الزمن " ³ وقد يُعبّر عن المكان بالفضاء، فالفضاء كالمعادل للمكان، " ويفهم الفضاء على أنه الحيز المكاني في الرواية أو الحكى عامة ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي " ⁴ كما أن المكان يعتبر إحدى الركائز الأساسية التي يتركز عليها النص السردى فهو " يحتاج إلى مكان تدور فيه الأحداث، وتحرك خلاله الشخصيات، ولا يهم إن كان المكان حقيقيًا أو خياليًا من نسج خيال الكاتب" ⁵.

ويرى غاستون باشلار أن المكان هو " المكان الأليف وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل في خيالنا، فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا

1 السرور، سهام: البناء الفني في روايات إدريس، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2010 م، ص 17 .

2 المحادين، عبد الحميد: التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999، ص 19.

3 دودين، رفقة: التقنيات السردية في الرواية النسوية المعاصرة وجمالياتها، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2004 م، ص 256.

4 الحمداني، حميد: بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، ط 3، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر، بيروت، 2000 م، ص 53.

5 شاهين، أسماء: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 2001 م، ص 15.

أو تبث فينا ذكريات بيت الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور¹ كما ذكر أن " العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"².

ويعد المكان عنصراً مهماً في "بنية الحكى، لما يحويه من عناصر السرد إذ إنه يوفر المناخ المطلوب لظهور عناصر الحكى ويخلق لها امتداداً في الاستمرارية، أو عدمها في بنية الحكى، فهو عنصر أصيل لا يمكن إقصاؤه ويشكل المكان أرضاً حقيقية للولوج في عالم النص السردى لما يدخلنا إلى بداية النص السردى إلى معرفة ماذا يحصل في هذه البقعة التي نهم بقراءتها على نحو تخيلي"³.

وقد اختلف في مسألة الفضاء والمكان، "فالبعض اعتبر المكان جزءاً من الفضاء المتعدد كما تناول غاستون باشلار في كتابه جماليات المكان، وهناك من جعل الحيز بدل المكان وقال عبد الملك مرتاض: إن مصطلح الفضاء من منظورنا على الأقل قاصر بالقياس إلى الحيز، لأن الفضاء بالضرورة أن يكون معناه جارياً في الخواء أو الفراغ، بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء، والوزن، والثقل، والحجم. وهذا التضارب في الآراء بسبب الترجمة، إذ إن الفضاء يحوي المكان، والمكان أحد مكونات الفضاء المتجسد في النص السردى"⁴، حيث يلعب المكان دوراً مهماً في بناء النص السردى، كونه عنصراً جوهرياً فاعلاً فيها، "فهو الموضوع التي تجري فيه الأحداث، وتتحرك خلاله الشخصيات، وقد يكون أحياناً هو الهدف من النص السردى، وهو العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل. ويمكن إدراك العلاقة بين المكان والعناصر البنائية الأخرى من خلال ربط المكان بكل عنصر على حدة، فالعلاقة بين المكان والزمان هي علاقة تكاملية لأن الزمان يعد من أبعاد المكان، ويربط المكان بالأحداث، ووجود أحدهما يستلزم بالضرورة وجود الآخر، فالأحداث لا بد لها من مكان تجري فيه، وعلاقة المكان باللغة عبارة عن علاقة لفظية بامتياز وتتمثل في الحوار وتتأثر بلغة الحوار بشكل واضح فالمدينة تختلف عن القرية.. وعلاقة المكان بالشخصيات هي علاقة تبادل وتلازم فكل شخصية روائية لا بد لها من مكان تتحرك فيه وتبادله التأثير والتأثر"⁵.

1 باشلار غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هسا، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1987م، ص5_6.

2 المرجع نفسه، ص5_6.

3 العرقان منال، البنية السردية في أعمال هاشم غرابية الروائية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2011م، ص 83.

4 المرجع نفسه، ص 84.

5 الحوامدة، ضحى: البناء الفني في روايات عبد السلام صالح، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2000م، ص 8 و9.

وعند النظر إلى عنصر المكان في السيرة الذاتية لنقولاً زيادة وفي رحلاته نرى أن الأمكنة قد تنوّعت، ونلاحظ أن الأحداث تدور في مدن مختلفة من بقاع الأرض، فإن المكان هو عنصر فعال في الأحداث وهو جزء من الشخصية المحورية، ولعل المكان المهيمن هنا هو البلدان المتنوعة التي زارها نقولاً زيادة لاكتشاف ذاته من خلال تجاربه مع الآخر في البقاع المختلفة. فتمثل المكان في أنه عبارة عن رحلة من الذات إلى الآخر ومن الآخر إلى الذات، فقد اكتشف العديد من الأمور من خلال تجاربه آنذاك كالتضحية والتعاون والنظام والغدر و... إلخ من الآخر وذلك من خلال ذكره لبعض الأحداث التي حصلت له هناك كانبهارة بالنظام الأوروبي أثناء الاصطفاف وغيرها... فبطبيعة الحال المجتمع الذي يفقد معنى السلام يتدهور، وقد وضع نقولاً زيادة إصبعه على السبب الحقيقي لهذا المرض الحضاري، عندما عبّر عن احتلال الآخر لبعض البلدان. فالبلدان المتنوعة من المشرق العربي إلى المغرب ليست مجرد إطار مكاني لحدث من الأحداث وإنما هي مثال على ذات نقولاً زيادة وبعد من أبعادها المعنوية في معرفة الآخر.

وقد بدأت الأحداث في الشام أي دمشق -مسقط رأسه- بالتحديد من خلال ذكره لمكان ولادته وانطلقت منها ولكنها سرعان ما انتقلت إلى أماكن أخرى كالناصرية وبعدها طولكوم ومن ثم جنين فإن الأحداث في البداية كانت تجري بين المدرسة من جهة والبيت من جهة أخرى مع الإشارة إلى بعض الأماكن التي يُحتذى بها هناك.

كل هذا يشير إلى أن المكان قد انحصر في المدن المختلفة وتمثل أولها في مدينتي دمشق والناصرية حيث احتوت على أماكن ترمز للماضي، وثانيها جنين وباقي المدن التي كانت عبارة عن مكان للبحث عن الذات عبر التفاعل مع الآخر.

فاشتملت دمشق على عدة أماكن أولها بيت نقولاً الشاوي الذي يعبر عن مكان السكن ومقر ولادته، وأيضاً هناك مكان آخر وهو المستشفى للبحث عن والده المفقود إلا أنه سرعان ما تغير المكان وتمثل في مدينة جنين وهو المكان الذي مكث فيه نقولاً ودرس في مدارسه، كما أن هناك أمكنة كثيرة تنوّعت في بلاد الشام...، فقد تعددت فيها الأماكن فظهرت مدرسة جنين الذي كانت عبارة عن مكان للتعلم، كما كان هناك ظهور لشوارع المدينة التي كانت عبارة عن مكان للبحث عن الذات من خلال علاقته بالآخر، وأيضاً المقهى، وأخيراً المستشفى، ولا ننسى الأماكن الأخرى في البلدان المختلفة التي تمثلت في زيارته بهدف التعلم والدراسة والنهل من الثقافات الأخرى كذهابه عن طريق الابتعاث إلى لندن وإلخ..

فالسيرة الذاتية والرحلة لها مساح عديدة، بعضها رئيسي والآخر ثانوي. ويأتي المسرح الأول المتمثل في مدينة دمشق التي كانت بمثابة الألم لشخصية البطل - نقولا زيادة - فهي كانت عبارة عن الدار التي فقد فيها والده، فاشتملت هذه المدينة على الكثير من الأماكن مثل بيت نقولا الشاوي، ويليها المستشفى الذي كان يمثل رحلة البحث عن والده، وتليها الطرقات والأماكن المختلفة في البلدان المتنوعة التي كانت عبارة عن مصدر ثقافي وتعليمي يتزود به نقولا زيادة في معرفة ماهية الآخر، فهذه الأماكن كلها نتجت للبحث عن الذات من خلال الآخر، وكان هذا داخل المدن وخارجها..

فتأتي جنين وهي تمثل أملاً لنقولا زيادة حيث تسهم في البحث عن حياة كريمة لتوفير سبل العيش بنقيض دمشق التي تمثلت في الماضي وتحمل ذكريات مؤلمة من بفقدان والده، وخلال مدينة جنين تتعدد الأماكن فيظهر مكانان متناقضان فالأول وهو البيت الذي يمثل الأمل والبحث والقراءة و الاطلاع، حيث عزز ذلك من ثقافته الذاتية وذلك خلال مكوثه قرابة عامين من غير الذهاب إلى المدرسة. أما المكان الآخر، فهو المدرسة، حيث تعلم نقولا زيادة واكتسب منها المعارف ومختلف الثقافة وقد طوّر من نفسه عن طريقها. فكلًا المكانين كانا ملاذًا وأملاً يساعدانه على التعامل مع صعوبات الحياة حيث يبدو أن التعلم غير المباشر خلال البيت والتعلم المباشر في المدرسة قد كانا أشبه بنقيضين في توسيع مدارك العلوم والمعارف عند نقولا زيادة.

كما وجد أماكن أخرى كثيرة مثل شوارع جنين وقراها المختلفة بين الأزقة والحارات التي كانت مكانًا للعب والاستمتاع مع أولاد القرية، كما أنّ هذه المساحات عبارة عن أراضٍ خصبة للزراعة والاهتمام بالمحاصيل الزراعية، ويتم فيها تجميع الخضراوات المختلفة وتناولها في القوت اليومي على الموائد المتنوعة " وعندما يتسع وقتي أنا - فقد كنت مشغولاً باللعب في الأزقة والحارات - كنت أقوم أيضًا بخدمة هذه الجنية... " ¹، وأيضا هناك العديد من الأماكن التي كان يذهب إليها في الناصرة وطولكرم والمدن الأخرى، كما كثرت الأمكنة في المكان الواحد فمثلاً في بلاد الشام تعددت الأمكنة فهناك مدينة دمشق، الناصرة، طولكرم، وغيرها من البلدان التي زارها أثناء رحلاته من قارة آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكل بلدٍ من البلدان قد زار العديد من مدنه وكل مدينة هناك اشتملت على العديد من الأمكنة وكل مكان اشتمل على العديد من الأحداث والمواقف التي كشفت عن ذات نقولا زيادة في استنباطه لهوية الآخر.

فجميع هذه الأماكن على اختلافها من ناحية تصنيفها إلى مكان مغلق ومفتوح تمثلت في تسليط الأضواء على الذات والآخر، فالتناقض بين المدن له دلالاته الخاصة في حركة الأحداث وتطورها وبروز الصراع فيها وتغير الذات وتطورها، فكل من هذه المدن كانت تمثل شيئاً لدى الذات، فدمشق تعبر عن مكان ولادته كما أنها تعبر عن الألم بسبب فقدانه لوالده فكان هذا المكان يدل على الماضي أثناء بحثه عن والده بين الموتى والجرحى، أما الناصرة فكانت عبارة عن موطن الأهل والأحباب وصلة الرحم تمثلت في منزل جد الأم ورؤية مختلف المظاهر هناك فكانت تدل على تأقلم عائلة نقولا زيادة مع الأوضاع الجديدة إذ إنها أيضاً كانت بمثابة مكان لتفرقة العائلة، فكل فرد من أفراد الأسرة كان لدى أحد من أفراد العائلة للاعتناء به، أما طولكرم فتمثلت في بدء الحياة الجديدة له حيث إنه عاش مع خاله فهي تمثلت في الأمل له ولكن من خلالها يرجع إلى الماضي ويتكرر ألم الفقد مرة أخرى له بعد وفاة خالته هناك، وهناك رمزية تدل على عدم وجود الاستقرار، فنقولا زيادة واجه صراعاً داخلياً بسبب مرارة الفقد، فقد كان يهرب من الماضي إلى الحاضر إلا أنه سرعان ما يرى الماضي قد أتى إليه في حاضره مرة أخرى.

4. الزمان

الاسترجاع " هو مصطلح من المصطلحات التي تستخدم غالباً في السرد السينمائي "¹ فيعتمد الكاتب على استرجاع الأحداث من النقطة التي انتهت عندها من خلال الذكريات والعودة إلى الماضي.

ظهر الاسترجاع "Flash Back" في سيرة نقولا زيادة من خلاله سرده للذكريات والرجوع إلى الوراء أثناء كتابة سيرته ورحلاته، فمنها:

عندما تذكر دمشق في طفولته بعد أن عاد إليها وهو شاب، فهنا قد استخدم الكاتب هذه التقنية في عودة الأحداث إلى الوراء وبدأ نقولا زيادة باسترجاع الذكريات بقوله: " عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة.. "² وجرت الذكريات والأحداث، فكانت جميع الأحداث المدونة عبارة عن ذكريات استخدم في نقولا زيادة زمن الاسترجاع في كتابة سيرته الذاتية ورحلاته.

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78،

2015م، ص 16 .

2 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص25.

كما أن هناك موقفًا آخر يشتمل على زمن التذكر، فيقول نقولاً زيادة: " في الأيام التي قضيتها في بيت نقولاً الشاوي من طفولتي كان، فيما أذكر، أطفال تقرب أعمارهم من عمري...¹ فهذا لفظ صريح لزمن التذكر عندما قال (فيما أذكر).

فتعدد مواضع التذكر في سيرة نقولاً زيادة ورحلاته كونه كتبها بعد مدة من الزمن ولم تكن في الوقت نفسه، لذلك غلب عليها زمن الاسترجاع والتذكر... فهذا العنصر قد خدم الأحداث ولعب دورًا بارزًا في السيرة الذاتية والرحلات لنقولاً زيادة.

ومن المعلوم أن الزمن له أنواع كثيرة فهناك الزمن المتواصل، المتعاقب، المنقطع، الغائب، النفسي، وزمان السرد يكون زمنًا صاعدًا خطيًا في النص السردى، فهو ينظر إلى رؤية التدرج الزمني في السيرة الذاتية ويشتمل على زمن الحكاية وزمن الكتابة وزمن القراءة، فالسيرة الذاتية والرحلات كانت تسير بشكل زمني خطي، فكانت الأحداث متسلسلة زمنيًا، واشتمل الزمن على تقنية العودة إلى الوراء للتذكر في كتابة هذه الأحداث، إذ إن الزمن يرتبط بزمن الكتابة، والزمن الخارجي، والزمن الداخلي..

زمن الكتابة: يشير إلى الزمن الذي كتب فيه النص السردى من قبل الكاتب فهو "عبارة عن الزمن الذي خلق فيه الكاتب عمله ومعرفته ضرورية لتنزيل هذا العمل في سياقه التاريخي والاجتماعي لأنه لا يوجد عمل فني قائم في الهواء مهما كان خياليًا"²، فنلاحظ هيمنت الذات في تناول مختلف المجالات التاريخية والاجتماعية بارتباطها مع الآخر في الذكريات والأحداث.

والزمن الخارجي: هو الزمن الذي يشير إلى الفترة الزمنية التي تغطيها المعلومات المذكورة في السيرة الذاتية، فهو يشير إلى الزمن الذي يمر في الواقع أثناء تطور الأحداث في النص السردى "فيبقى عند طرفي النص السردى أي البداية والنهاية، وبالتالي فهو موضوعي مرتبط بالزمن التاريخي وما يحويه من موضوعات اجتماعية، حيث إنه يعتمد على التواريخ والأحداث التي تحدث في العالم الحقيقي خارج النص السردى، إنّه التوقيت القياسي للأحداث التي تجري في الآن، لذلك فإنها تروى بصيغة الحاضر ويكون هذا الزمن إطارًا خارجيًا لكامل النص السردى"³. فالتاريخ الزمني في البداية تجلى في الزمن الخارجي في الحديث الذي كان

1 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 24.

2 التواتي، مصطفى: دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية اللص والكلاب والطريق والشحاذ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 107.

3 التواتي، مصطفى: دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية اللص والكلاب والطريق والشحاذ، ص 109.

يجري في القرن التاسع عشر عن ولادة نقولا زيادة وعن موعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فنرى أن الزمن الخارجي قد استند إلى ذلك الحدث الحقيقي كونه قد ارتبط في السيرة الذاتية لنقولا زيادة عندما قال بداية سرده لسيرته الذاتية: "في 2 كانون الأول ديسمبر سنة 1918 بلغت الحادية عشرة من عمري.... التاريخ الذي يعود إلى سنة 1918 له أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ العالمي وحكاية هذا الشاب الحائر خاصة. فالحرب العالمية الأولى كانت قد انتهت قبل ذلك بثلاثة أسابيع....."¹.

والزمن الداخلي: هو الزمن الذي يشير إلى تنظيم الأحداث وتواليها داخل النص السردي، فيعبر عن تداخل الأحداث وتتابعها الزمني بما في ذلك التوقيت وترتيب الأحداث والتأثيرات الزمنية "المرتبطة بالشخصية المحورية في السيرة الذاتية والرحلات لنقولا زيادة، وإذا كان الزمن الموضوعي الخارجي هو زمن الحاضر فإن الزمن الداخلي هو زمن الماضي المستحضر بواسطة الذاكرة"².

وهناك إشارات واضحة للزمن تمثلت في ذكره للسنوات المختلفة وأوقات زمنية كالسابعة صباحاً وغيرها... كما أن هناك ظاهرة شروق الشمس أثناء جولاته، وذكره لأعمارهم المختلفة في عدة مواضع، إضافة إلى ذكره للفصول الأربعة، فقد ذكر فصل الصيف عندما قال: في صيف سنة 1912 في منتصف السنة الخامسة من عمري..."³.

ويتبين من كل هذا بأن السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته ظهرت في ثلاثة أزمنة، زمن الخلق الذي تمثل في تدوين الأحداث، والزمن الخارجي الذي كثر فيها من خلال الأحداث والذكريات المتنوعة، والزمن الداخلي..

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 11 .

2 التواتي، مصطفى: دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية اللص والكلاب والطريق والشحاذ، ص 119

3 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 11 .

5. الشخصيات:

الشخصية عنصر فعال ومتفاعل في السرد، فيعطيها الكاتب أفعالاً وأقوالاً لتبرز أهميتها الواضحة والجلية في السيرة الذاتية عبر الأحداث " فتعد الشخصية أهم عنصر في البناء السردى، فهي تمتد عبر الفضاء السردى، في ترابط مقنع ومؤثر، وتأتي عظمة الراوي من براعته في رسم الشخصيات، ويقرن نجاح النص السردى بقدرة السارد على رسم الشخصيات في النص السردى، وعلى العلاقة الحميمة بينهما وبين الفضاءات الأخرى كالزمان والمكان والأحداث، كما ينبغي أن تكون الشخصيات مقنعة لها قسماها، ومتنامية، ومتحركة، وقد تكون متفككة أو مشتتية، أو متشذمة، ومتحولة" 1 والشخصية هي " كلّ مشارك في أحداث الحكاية سلباً أو إيجاباً، أما من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات بل يكون جزءاً من الوصف، والشخصية عنصر مصنوع، ومخترع، ككلّ عناصر الحكاية، فهي تتكوّن من مجموع الكلام الذي يصفها، ويصوّر أفعالها، وينقل أفكارها وأقوالها" 2.

ولكي نفهم الشخصية يجب التعرف عليها وعلى نفسيّتها، وهناك أنواع للشخصية منها شخصيات ثابتة مسطحة فهي لا تأخذ أو تعطي في النص السردى فالأحداث لا تؤثر فيها ولا تتأثر بالزمان والمكان، والأخرى شخصيات متغيرة نامية وهي التي تأخذ حقيقتها من ذاتها فتتحرك وفق الأحداث، ولا بد للسارد من الارتكاز على عدّة أبعادٍ للشخصية ومنها البعد الجسمي والبعد الاجتماعي والثقافي والبعد النفسي من خلال انفعالاته داخل الأحداث في النص السردى 3.

فالشخصية تعد هي المحور الرئيسي في النص السردى فهي التي تساعد على تحريك العناصر الأخرى، وهي التي ترسم معالم الفضاء المكاني وتحدّد الحيز الزماني، كما أنها "الأداة التي يختفي وراءها الكاتب ليتمرر أفكاره، فكلّ الدلالات التي تحكمها الشخصية تكشف لنا المعاني المسكوت عنها، كما أنّ لكل

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 9 .

2 السرور، سهام: البناء الفني في روايات إدريس، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2010م، ص 54.

3 ينظر: الذنبيات رانيا، بناء السرد في الرواية الأردنية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2002م، ص 152 – 154.

شخصية في النص السردى ضرورةً تحتم وجودها فالكاتب يختار عدد الشخصيات، ونوعها لتؤدي أدوارًا تناط بها لخدمة موضوع النص السردى، ورؤية المؤلف لهذا الموضوع، فهو يختار شخصيات رئيسية تؤدي أدوارًا رئيسية، ويختار شخصيات ثانوية تؤدي أدوارًا متكاملة.¹ وقد تكون هذه الشخصيات شخصيات حقيقية واقعية سردها المؤلف وفقًا لما تعاش معه وعاصره من خلال الأحداث المختلفة كما هو موجود في سيرة نقولا زيادة ورحلاته.

إن الشخصيات الرئيسية في السيرة الذاتية والرحلات تمثلت في:

1. نقولا زيادة:

نقولا زيادة هو بطل السيرة الذاتية والرحلات، وهو شخصية محورية ويظهر هذا من خلال السرد والأحداث التي تتلاعب في السيرة الذاتية والرحلات فهو العنصر المساعد على وجود الشخصيات الأخرى والتعرف على الآخر من خلالها، فهو يتمثل في البطل التراجيدي وبطل المواجهات والصراع، ويتبين بأنه شخص وسيم من خلال سيرته الذاتية، وقد عاش حياة صعبة و تحمل هذه الحياة بمشقاتها ولاسيما بعد وفاة والده، وتبدأ المواجهة مع هذا البطل بعد وفاة أبيه في البحث عن سبل العيش براحة وطمأنينة مع والدته، فبدأت رحلة التنقل لديه فكان حياته عبارة عن محطات في كل محطة يكتشف فيها نفسه ويسعى إلى تطويرها من خلال الآخر، فكان نقولا زيادة شخصية نامية متطورة، بدأ حياته في دمشق، وبعدها فجأة تغيرت حياته وتنقل إلى الناصرة للبحث عن الحياة الكريمة ومنذ تلك اللحظة أصبح التنقل مسار حياته.

ونقولا زيادة شخصية أنموذجية ذات أبعاد عميقة نفسية يتخللها الصراع في معرفة ماهية ذاته عن طريق اكتشافه للآخر فامتازت شخصيته بالشجاعة في مواجهة التحديات والمخاطر أثناء تنقله، فقد كان يغلب عليه طابع الإصرار في التغلب على الصعوبات والوصول إلى أهدافه، فلم يكن يعرف للاستسلام طريقًا.

وقد تمتع نقولا زيادة بذكاء استراتيجي وقدرة على تكيف نفسه مع تغير الظروف، فقد استخدم ذكاءه في اتخاذ القرارات الصائبة للتغلب على التحديات وهذا ما اتضح لنا بشكل واضح أثناء قراءتنا لسيرته الذاتية ورحلاته، كما أنه كان له القدرة على التعاطف والتفاعل مع الآخرين وبناء علاقات قوية معهم إلا أننا نراه أنه

1 عمران علي، التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 9 .

قد خضع إلى تحولات وتغيرات في شخصيته أثناء رحلاته وقد أكسبه ذلك الخبرة والنضوج وقد سعى إلى تطوير شخصيته على مدى تقدمه في الرحلة.

2. عبده بن عبدالله بن زيادة:

وهو الأب المتوفى حيث فقدته نقولاً وهو صغير السن ولم يستطع أن يشبع من حنانه إلا أنه في المدة التي قضاها معه ساعده على فهم الحياة بصورة صحيحة، فهو المعلم الأول له، ويمثل الماضي له على الرغم من عدم الاكتفاء منه.

3. ليا بنت عبدالله ربحاني:

هي والدة نقولاً زيادة وهي الأم التي تحملت مصاعب الحياة من أجل العيش، فكان لها دورٌ فعّالٌ في توجيه الابن وتشجيعه على النمو والتطور في الدراسة، فقد تجلت شخصيتها من خلال العناية والدعم التي تقدمه لأبنائها بما فيهم نقولاً زيادة، فكان لها تأثيرٌ عاطفيٌّ على نقولاً زيادة فهي مصدر السلام والاستقرار في حياته، حيث إن نقولاً زيادة نراه قد تأثر بشكل كبير عند وفاتها وكأن ألم الفقد ومرارته يتجدد له بين الفينة والأخرى، وكأن الاستقرار انهدمت أركانه مجدداً ولا بد عليه من جمعه مرة أخرى.

وهناك شخصيات أخرى في السيرة الذاتية والرحلات قد تم ذكرها، مثلاً: جده، خاله، خالاته، وإخوته، وزوجته، وأبنائه، فكل من هذه الشخصيات تمثلت في عائلته فكانت عبارة عن ملجأ له احتضنته فترةً من الزمن، كما أنه ذكر العديد من الشخصيات مثل أصدقائه في الدراسة والتنقل والعمل مثل درويش المقدادي صديق الرحلات، وصديقه عيسى الذي كان يرأسه مراراً ليخبره عن أخباره، وذكر العديد من الرجال في البلدان التي زارها، والنساء أيضاً اللاتي كن بمثابة شخصيات مساعدة في السيرة الذاتية والرحلات وغيرهم الكثير، فجميع هذه الشخصيات هي في الواقع وجوه ممكنة لشخص واحد هو الشخصية المحورية فهي شخصيةٌ واحدةٌ تنقسم وتتعدد...

العلاقة بين الشخصيات:

العلاقات بين الشخصيات في السيرة الذاتية والرحلات تكون عبر حوافز، وهناك سته حوافز رئيسية

إيجابية:

- 1- **التعاون:** ويتمثل في نقولا زيادة أسرته وأصدقائه في تجاوز التحديات والمواجهة معًا وصولاً إلى الاستقرار والتكيف مع صعوبة الحياة.
- 2- **التبادل الثقافي:** وذلك مرتبط في تفاعل نقولا زيادة مع الثقافة المختلفة والشعوب المختلفة والتعلم منها عن طريق تبادل الخبرات والمعرفة الثقافية.
- 3- **الارتباط العاطفي:** الذي ساعد على تكوين روابط قوية بين نقولا وأصدقائه عن طرق السفر واكتشاف الأماكن الجديدة معًا فقد أدى ذلك إلى تكوين صداقات متينة مبنية على مشاعر حقيقية.
- 4- **الحب والرعاية:** المرتبطان بالأب والأم في تقديم الحنان ورعاية الأبناء وتوفير سبل العيش لهم.
- 5- **النضحية والتعاطف:** المرتبطان بنضحية نقولا زيادة من أجل إخوته وذلك عند عدم ذهابه لإكمال دراسته في الفرصة الأولى نتيجة تحمله لمسؤولية إخوته.
- 6- **التوجيه والإرشاد:** المرتبطان بالنصائح الحكيمة لنقولا زيادة من قبل الأصدقاء والتجارب المستفادة التي ساعدت نقولا زيادة على اتخاذ القرارات الصحيحة.

وهناك ثلاثة حوافز سلبية (ضدية) نشطة:

- 1- **الاختلاف،** تشكل في اختلاف الشخصيات كون الأفراد يحملون اهتمامات وثقافات وقيمًا مختلفة.
- 2- **الصراع والتوتر،** ويتمثل بمواجهة صراعٍ وتوترٍ في بعض المواقف بين نقولا زيادة والشخصيات الأخرى وذلك بسبب اختلاف الآراء.
- 3- **عدم التواصل،** عدم القدرة على التواصل بشكل فعال مع الآخرين نتيجة للاختلاف الحاصل بين الذات والآخر.

تتمثل الحوافز الإيجابية النشطة بأشكالها الستة من إحراز مستقبل واعد لنقولا زيادة من خلال تحقيق أحلامه وطموحاته، وذلك نتيجة التعاون ومواجهة صعاب الحياة والرعاية والاهتمام من قبل الأم والاستماع إلى النصائح والإرشادات من الآخرين، فهو في النهاية قد وصل لما يريد في مسار حياته. أما العلاقات ذات

الحوافز السكونية الإيجابية التي تعد نشطة تتمثل في علاقة عموم الناس في المجتمع بعضهم مع بعض في البلدة الواحدة.

وهناك علاقة سلبية واضحة في السيرة الذاتية والرحلات تمثلت في مسألة الاختلاف بين نقولا زيادة والآخرين في الشعوب المختلفة إضافة إلى الآخر الغربي العدو مع الآخر العربي الخاضع للاحتلال.

"كما يمكن أن تكون العلاقات عبر محاور، وكلّ محور يشتمل على عدد من الشخصيات، وتحدث العلاقات بين هذه المحاور عبر التقاطع أو التوازي أو التبعية "1، فمثلا يكون نقولا زيادة محورا يتقاطع مع محاور مختلفة مع الآخر في الشعوب المتنوعة.

أما علاقة التوازي بين المحاور تتطور بنفس السرعة والاتجاه، فتتوازي العلاقات الاجتماعية عند نقولا زيادة باعتبارها محورا، مع محور آخر متمثل في العلاقات الثقافية.

أما التبعية يكون فيها تأثير واحد من المحور على المحور الآخر بشكل أقوى وبشكل مباشر فإنّها تمثلت في خضوع نقولا زيادة للمحور لثقافي في تنقيف ذاته وتطويرها.

1 عمران علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 13 .

○ الوصف

يتداخل الوصف السرد دائماً، والوصف ظاهرة بارزة في بنية النص السردى، وهو "وقوف عند ملامح خارجية للموصوف. والموضوع الوصفى الواحد ينشأ عند عدد غير محدود من الموضوعات القابلة للوصف، لذلك نجد كاتب السيرة الذاتية أحياناً يتوقف عند بعض الملامح، ليتابع السرد سيرته، ثم يعود مرة أخرى إلى ملامح الموصوف، وهكذا دواليك، حتى تكتمل صورة الموضوع الموصوف في مخيلة القارئ " 1 فيتبين أن الوصف والسرد متناقضان فالسرد هو عبارة عن القص الحكائي المتمثل بالأساليب السردية أما الوصف هو الذي يحتوي على وظيفة تفسيرية دلالية ووظيفة إبهامية وغيرها من الأساليب.

ويظهر الوصف في مواقع متعددة في السيرة الذاتية والرحلات، فيصف الكاتب نفسه من خلال تقديم صورة مفصلة وشاملة عنه، فقد كان يغلب على سيرته ورحلاته وصف الذات والآخرين حيث إنه يصف شيئاً معيناً أو شخصية معينة ذاكراً ملامحها ثم يتابع السرد بعدها، فالكاتب في هذه السيرة الذاتية والرحلات جعل الوصف يخدم الأحداث والمواقف ويطورها ولكي يزيد القارئ من تخيل صورة الحدث ويبعث عنصر التشويق فيه وذلك عندما وصف الأماكن والتجارب التي اكتشفها نقولاً زيادة خلال رحلته وأسفاره المتعددة ساعد ذلك إلى نقل القارئ إلى المكان المذكور وتوفير تفاصيل وصور حقيقية للتجارب والمشاهد الحية، فالأوصاف في السيرة الذاتية لنقولاً زيادة ورحلاته كثيرة نسبياً، فقد تعدد وصف المكان في سيرته الذاتية ورحلاته، وتضمن وصف الموقع الجغرافي للمكان مثل المناظر الطبيعية والتضاريس والمناخ، كما تضمن وصف الثقافة وحضارة البلدان المختلفة بما في ذلك العادات والتقاليد واللغة والمعالم الثقافية كما شمل الوصف أيضاً على التجارب والأنشطة التي مارسها نقولاً زيادة كالتسلق والتجول في الطبيعة وزيارة الأماكن التاريخية أثناء زيارته للبلدان المختلفة إضافة إلى هذا وصف المأكولات والأطعمة، فكل هذا جعله يتعرف على الآخر ويجري مقارنات بينه وبين الذات، فنراه يقدم وصفاً دقيقاً لمشاهداته خلال وصفه لطريقة سيره للرحلات كوصفه للشوارع والمناظر المظلة على الطريق، والوقت التي استغرقتها الرحلة، ومن الأوصاف التي ذكرها في سيرته الذاتية ورحلاته هو أنه قال: " كانت لنا زيارة لدير قرنطل أو جبل الأربعين. جبل الأربعين يبدأ الصعود إليه من عين سلطان. طريق

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 18 .

جبلي للمشاة أو على الأصح للماعز. بعد صعود صعب، إلى حد أن البعض منا تعب وعاد إلى عين السلطان أو إلى الفندق، وصلنا حول الساعة العاشرة إلى منتصف الجبل...¹، فكان الوصف في المكان يدل على إشارات معينة وأهمية للمكان في الحدث حيث أن الوصف كان له دور كبير في بناء الأحداث فمثلاً عند وصف طريقة العبور والذهاب من بلد إلى آخر يدل على إصراره وعدم اليأس في تطوير ذاته والوصول لأهدافه عن طريق ثقافات الآخر، وثمة طريقة أخرى لعرض الموضوع الوصفي، وذلك بواسطة تجزئته أجزاء عدة متتابعة ليؤلف في النهاية رسماً معيناً لذات نقولاً زيادة في التعرف على نفسها وعلى صورة الآخر.

وهكذا فثمة أوصاف كثيرة لشخصية نقولاً زيادة وذلك تمثل في وصفه لملامحه الخلقية كوصفه لوسامته من خلال ذكره للعبارات التي يستنتجها القارئ على أنه شخص وسيم، فقد وصف أيضاً معلومات شخصية أخرى والتي اشتملت على ذكر تاريخ ولادته ومكان ميلاده بشكل مفصل، إضافة إلى وصفه للتعليم الذي حصل عليه عن طريق توضيحه للمهارات التي يمتلكها والإنجازات التي جذبت انتباه الآخرين نحوه لما يتمتع به من تنوير ثقافي وقرائني ساعده على اتخاذ القرارات الصائبة في حياته.

ولم يقتصر على هذا فقد امتد وصفه إلى وصف العديد من ملامح الشخصيات الأخرى الخلقية والخلقية كوصفه لعائلته وأصدقائه وزملائه في العمل عندما قال: "كانت صوفيا أصغر من أمي ببضع سنوات، وكانت تختلف عن أمي. أمي كانت قصيرة بدينة بيضاء البشرة كستائية لون الشعر عسليه لون العينين. خالتي صوفيا كانت طويلة سمراء سوداء الشعر دعاء العينين، ناهدة الصدر والمشي..."²، حتى أنه تعمق في الوصف، فقد وصف الحال التي يكون عليها الشخص عند شربه للخمر، عند قوله: "إن أبا وديع كان يتعاطى شرب العرق، فكان يذهب إلى صديق له فيتناول هناك كأساً من العرق، وعندما يعود إلى البيت يكون قد بلغ حدًا من السكر بحيث يغضب من أي شيء مهما كان صغيراً وعندها كان يغش خلقه في أم وديع..."³.

1 زيادة، نقولاً: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 67-68.

2 زيادة، نقولاً: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 15-16 .

3 المرجع نفسه، ج1، ص 39 .

كما أنه استعان بالوصف على نحو كبير في وصف أغلب المشاهد وقد وصفها وصفًا دقيقًا كوصفه لمكان السكن الذي كان يقطنه، فقد قال: " وكان آخر بيت سكنا فيه بيت عرب. كان البيت كبيرًا واسعًا ساحته.. كانت مبلطة ببلاط أحمر.... ¹، وذلك من خلال وصفه لجثث الموتى عندما ذهب يفتش عن جثة والده: " كانت الجثث ملقاة على الأرض كما اتفق، لا ضبط للأطراف ولا تغطية إلا القليل جدًا، وكانت المياه الباردة تدور بها كي تحفظها من التعفن.... ² وهلم ما جرى...

فجميع ذلك عبارة عن وصف يساعد القارئ على تصور حياة نقولا زيادة على الرغم من أن وصفه للمشاهد بشكل دقيق يعطي مساحة واسعة للتخيل.. والأوصاف في السيرة الذاتية والرحلات لا تصاغ لمجرد الوصف، بل لأنها تساعد الحدث على التطوير فالواقع جزء من الحدث، ويأتي الوصف عنصرًا مؤثرًا في سيرته الذاتية وفي رحلاته.

وقد يكون الوصف تقديرًا مباشرًا عندما اتخذ نقولا زيادة قرارات مستتيرة في الرحلات وحساب المدة الزمنية المستغرقة فيها، وقد يكون رمزيًا عندما يعمد نقولا لوصف مغامراته في الرحلة مثل استخدامه للأماكن الجغرافية الصعبة التي ترمز إلى المغامرة التي عاشها آنذاك، كما يعمد نقولا لوصف الناس وحديثهم المعتاد عن الحرب، فهذا يدل على أن هناك واقعًا مختلفًا عما يعيشه نقولا زيادة في باطنه كونه كان يسعى إلى تحقيق هدفه وتطوير ذاته من خلال تعليمه... ويكون هذا الوصف تصويريًا يعتمد على الصورة في وصف الكلام الذي يدير هناك على الرغم من أن أحاديثهم ثابتة لا تتغير، فهنا تصوير حسي وكأن العالم بأكمله يموج مع بعضه البعض في القضاء على العدو، كما أن الوصف التصويري اعتمد على وصفه للمظاهر الطبيعية كوصفه للشروق والغروب أثناء تجوله.

وهناك من الوصف ما كان تقريرًا، كما ظهر في وصف نقولا زيادة لتفاصيل الرحلة كوجهة الرحلة وتواريخ الرحلة والأشخاص الذين شاركوا نقولا زيادة في الذهاب إلى الرحلة، والتطرق إلى تفاصيل الرحلة وتجاربها من خلال ذكر الأعمال التي مارسها هناك كوصفه لمكان الإقامة.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص24 .

2 المرجع نفسه، ص27 .

والوصف متنوع في السيرة الذاتية والرحلات فقد يكون لأشخاص، وقد يكون لأماكن كما رأينا، وقد ذكرنا أمثلة على كل نوع من ذلك.. وقد يتعدد الوصف لوصف شيء معين أو وصف حالة معينة أو وصف جو وهكذا.. حيث لاحظنا أن الوصف في السيرة الذاتية والرحلات لنقولاً زيادة من خلال سرده لمذكراته والمواقف المختلفة كان من خلال عيني الكاتب ونظرتها للنوات الأخرى.

○ العنوان والعتبات النصية

العتبات النصية هي عبارة عن " عناصر داخل العمل الفني تتجاذب بين عناصر داخلية محايثة وعناصر خارجية مجاورة لها، و تعتبر العتبات جزءًا أساسيًا من النص الفني، حيث تحمل خصائص شكلية ودلالية تؤهلها للانخراط في مساءلة ومحاورة بنيات دالة لها نفس درجة التعقيد مثل بنية النص وأفق التوقع"¹

وجيرار جنيت هو أحد النقاد الذين أثروا في مفهوم العتبات النصية، حيث "حاول تطوير آلياته النقدية الإجرائية من خلال الانتقال من مجال النص المغلق إلى مفهوم النص الشامل " ² حيث تعتبر العتبات النصية " ظواهر نصية معقدة، حيث لا تبوح بكل مدلولاتها ولا تجلي ما هي حاملة له، ولذلك يجب النظر إلى العتبات من خلال موقعها في فضاء النص وعلاقتها بالنص المركزي " ³.

إن العتبات النصية تسهم في فهم الأعمال الفنية وتحليلها بشكلٍ أعمق وأشمل، حيث " تنقسم العتبات المحيطة بالنص إلى قسمين رئيسيين، وهما: العتبات والنصوص المحيطة الخارجية والعتبات والنصوص المحيطة الداخلية. العتبات والنصوص المحيطة الخارجية تشمل العناصر التي تؤثت فضاء صفحة الغلاف الخارجية مثل: العنوان واسم المؤلف وصورة الغلاف. أما العتبات والنصوص المحيطة الداخلية فتتضمن معطيات داخلية محايثة مثل الإهداء والخطاب التقديمي والنصوص التوجيهية والعناوين الداخلية والحواشي والتذييلات"⁴.

1 فوكو، ميشيل: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، ط1، الدار البيضاء، 1986م، ص 23 .

2 إسماعيلي، عبد المجيد: عتبات النص مقارنة نظرية، جريدة أخبار الجنوب، العدد 27، 2012 م، ص1-2.

3 اشهبون، عبد المالك: عتبات الكتابة الروائية، ط 1، دار الحوار للنشر و التوزيع - سوريا، 2009، ص 10 .

4 إسماعيلي، عبد المجيد: عتبات النص مقارنة نظرية، جريدة أخبار الجنوب، العدد 27، 2012 م، ص 1-2.

- العتبات النصية الخارجية:

1. العنوان:

عند النظر إلى العتبات النصية الخارجية فنرى أن **للعنوان** أبعادًا دلالية مهمة فقد ذكر نقولاً زيادة عنوان (أيامي) في سيرته الذاتية إذ إن عنوانه تكوّن من كلمة واحدة خالية من (ال) التعريف، وهي تُعبّر عن الأيام التي عاشها، فتوحي للقارئ أنها تتكلم عن مجمل أيامه مفصلاً إياها في سيرته الذاتية.

وعند النظر إلى عنوان كتاب (حول العالم في 76 عاما) يبين أن هذا الكتاب اشتمل على رحلات نقولاً زيادة التي تمثلت في 76 عاما، وهذه الفترة الزمنية ليست بالشيء السهل، إذ إنّه صال وجال في أنحاء العالم، وأخذ مما أخذه من العلم والمعرفة، فهو عالم جليل ومؤرخ عظيم قد دلّ على عظّمته في تصويره للآخر، وتصوّر الآخر عنه، وقد أبدع نقولاً زيادة في طرحه لتاريخ البلدان العربية، وسرده لقصص التاريخ المختلفة، وذكره لمعظم الأحداث التاريخية التي تساعد القارئ على فهم الأماكن وتصورها بشكل أيسر، فقد كان بمثابة شاهد عيان في سرد الأحداث الحقيقية التاريخية التي عاشها، بوصفه قد عاصر الحربين العالميتين وماتلهما، وحرص على دمج التاريخ وتوثيقه بشكلٍ دقيق في سرد الأحداث ليكون ملجأً يلتجئ إليه القارئ عندما يصيبه لبس، فالتاريخ ساعد نقولاً زيادة على فهم الآخر، وتنوع صورة الآخر في المشاهد المختلفة أدى إلى إكساب نقولاً زيادة معارف مختلفة.

ونلاحظ أن هناك تشابه في عنوان سيرة نقولاً زيادة ورحلاته مع عناوين أخرى كعنوان سيرة طه حسين.

2. اسم المؤلف:

اشتمل كتاب السيرة الذاتية والرحلات على اسم نقولاً زيادة، ونرى أنه قد تم ذكر اسمه في كتاب السيرة الذاتية في الأعلى قبل التطرق إلى عنوان الكتاب وهذا ربما دل على فخره بنفسه وكأنه يريد أن يبين للمتلقي بأن اسم هذا الشخص يدل على سيرة شخص لن ينسى على مرّ الزمن.

3. صورة الغلاف:

إن صورة الغلاف الموجودة في كتاب السيرة الذاتية المعلنون بعنوان (أيامي) ظهر على شكل زخرفات هندسية ممتدة على هيئة طرق بحيث إن كل زخرفة هندسية تبدو مستقلة عن الأخرى، وربما هذا كان يدل على قدم هذه السيرة إضافة إلى أن هذه الرسومات تمثل كل مجموعة منها منفردة لوحدها البقاع التي زارها نقولا زيادة في سيرته الذاتية.

أما في كتاب الرحلات المعلنون (حول العالم في 76 عامًا) فكانت صورة الغلاف تشتمل على صورة رجل يحمل حقيبة ويتجول في الشارع، ويظهر في الشارع تفاصيل المكان إذ اشتملت الصورة على مبانٍ شاهقة وحافلة سيارة قديمة ومجموعة من الناس، وكأن هذا يعطي القارئ انطباعاً عن الرحلات الموجودة في هذا الكتاب بأنه تعرف على العديد من الأشخاص في بلدان متنوعة وأزمنة مختلفة.

- العتبات النصية الداخلية:

1. الإهداء والمقدمة:

يتمثل الإهداء في سيرته الذاتية على عبارة بسيطة تدل على أنه يهديها إلى أحفاده مع وضع صورة تجمعهم بأحفاده ومعبراً عن اسم كل فرد من الأحفاد مع كتابة التاريخ الذي يعود لتلك السنة " نقولا زيادة يتوسط الأحفاد من اليسار - كندة، مرياما الخلف، مروان غيدا ندى ونائلة في حضن الجد 1989"1، وهذا إن دلّ يدل على حبه لعائلته وقوة الروابط العائلية وأهمية التاريخ بالنسبة له، ولم يكن هناك مقدمة في سيرته الذاتية.

أما في كتاب الرحلات فلم أجد إهداء داخل الكتاب إثمًا كانت هناك إشارة إلى أنه عمل هذا الكتاب نزولاً لرغبة صديقه نوري الجراح " عملت على جمع هذه الأجزاء والأوراق الخاصة برحلاتي نزولاً عند طلب صديقي ناهض الهممة الشاعر نوري الجراح....¹ " وقد وجدت مقدمة في كتاب الرحلات كتبها نوري الجراح ليعرّف بنقولا زيادة ويذكر نشأة فكرة هذا الكتاب، وقبلها وجدت استهلاً كتبته محمد السويدي حيث إنه ينص على أهمية الرحلات والرحالة الذين يقدمون هذا النوع من الأدب.

2. العناوين الداخلية:

قسم نقولا زيادة كتاب سيرته الذاتية إلى جزأين حيث اشتمل الجزء الأول على ثلاثة أقسام فقد احتوى القسم الأول المعنون بفتى حائر على ستة فصول ولكن لم تحتوِ الفصول على عناوين خاصة، فكلها اندرجت تحت عنوان القسم، وهذا ما نراه في باقي الفصول، فالقسم الثاني كان معنوناً بعنوان في عكا واشتمل على خمسة فصول من الفصل السابع إلى الفصل الحادي عشر، أما القسم الثالث فعنونه بـ أوروبا 1935-1939 (1) واشتمل على فصلين هما الفصل الثاني عشر والفصل الثالث عشر.

أما الجزء الثاني لسيرته الذاتية فقد احتوى على أربعة أقسام، فبدأ بالقسم الثالث المعنون بعنوان في أوروبا 1935-1939 (2)، وقد كان تابعاً للقسم الثالث الموجود في الجزء الأول واشتمل هذا القسم على ثلاثة فصول من الفصل الرابع عشر إلى الفصل السادس عشر. والقسم الرابع عنونه بعنوان ثماني سنوات في القدس واشتمل على خمسة فصول من الفصل السابع عشر إلى الفصل الحادي والعشرين. والقسم الخامس كان عنوانه من لندن إلى بنغازي واحتوى على فصلين هما: الفصل الثاني والعشرون والفصل الثالث والعشرون، أما القسم السادس والأخير فكان عنوانه في بيروت واحتوى على سبعة فصول من الفصل الرابع والعشرين إلى الفصل الثلاثين، ونلاحظ أن الفصل الأخير كان له عنوان خاص فقد عنون بمناسبات ثلاث وذلك ليكون ختاماً لسيرته الذاتية.

1 زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاما رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، ص 19 .

ونلاحظ أن كتاب رحلاته لم يشتمل على فصول واضحة موجودة في بداية الكتاب ولكنه ذكر رحلاته بين أوراقه الكتاب مبتدئاً من أيامه المبكرة في الشام 1907 حتى رحلاته الأخيرة إلى الخليج العربي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، فكان كتابه عبارة عن سجل شخصي للقرن العشرين.

كما نلاحظ أن كلا الكتابين لا يوجد فيهما حواشي، ولكننا نرى أن السيرة الذاتية قد دُعمت بالصور المختلفة له كصورة زوجته وصوره مع أصدقائه¹ في المحافل المختلفة.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، صور مختلفة بين ص 155 و ص 156 .

اللّغة تتمثل في الصياغة الأسلوبية في لغة السرد والوصف والحوار، إضافة إلى ثنائية اللغة وهي العامية والفصحى، فقد جاءت لغة السرد بالفصحى، أمّا لغة الحوار والوصف فإنّها تراوحت بين الفصحى والعامية. و" اللغة هي الدليل المحسوس على أن ثم نصّاً سرديّاً ما، يمكن قراءته. وبدون اللّغة لا يوجد نص سردي أصلاً، كما لا يوجد فنّ أدبي بدونها- على الإطلاق- والبنية السردية إذا ما اعتنى الروائي الكاتب بأسلوب لغتها المكثفة، البلاغية، والإيجابية فإنّها تقترب كثيراً مما يسمى اليوم الرواية الشعرية "1.

وعند النظر إلى لغة الكاتب في هذه السيرة الذاتية والرحلات نرى أنها لغة عميقة ورصينة فقد كان يتمتع بأسلوب سلس ومشوق، ويتخلل هذه اللغة القصائد العربية، والتاريخ العربي، وذكر بعض الأساطير، كما أنه استشهد بالقرآن الكريم. وقد فهمت السيرة الذاتية من بدايتها من الوهلة الأولى على أنها سيرة تعبر عن حياة نقولا زيادة، كما أنها ربما تكون هذه السيرة الذاتية لا تصلح لجميع الأعمار وذلك بسبب ضخامة المدونة لاحتوائها على العديد من المشاهد إضافة إلى وجود مشاهد وكلمات غير لائقة لا تصلح للأطفال.

إنّ لغة السيرة الذاتية الفصحى اتسمت بتعابير تقليدية وقوالب تعبيرية جاهزة، وتصويرات مألوفة، إضافة إلى وجود تعابير غير لائقة، فكان هناك معجم لفظي يدل على الألفاظ الفاحشة وآخر يدل على الصراع وآخر عن الحب وآخر عن العلم والدراسة وآخر يعبر عن الآخرين وآخر يعبر عن ذاته، وهكذا، فكل هذا يعكس الصورة النفسية لنقولا زيادة.

كما امتزجت اللّغة بالتصوير، والوصف للمشاهد ممّا أضفى طابعاً تجسديّاً على ذلك الواقع بكل متناقضاته، وقد تأثرت التعابير اللّغوية بالإنشاد وذكر التاريخ... وإلخ، وقد غلبت على لغة الكاتب اللغة الفصيحة ولكنه استعان باللّغة العامية في بعض المواضع.

1 يوسف، آمنة: تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، ط1، دار الحوار للنشر و التوزيع - اللاذقية 1997، ص26.

يعد الحوار من الجوانب اللغوية المهمة في البنية السردية، وقد تطرقنا إلى جوانب لغوية أخرى عديدة أثناء دراسة السرد، والوصف. فعند التحدث عن لغة الحوار الموجودة في السيرة الذاتية والرحلات لنقولاً زيادة، فقد عرف جيرالد برنس (Gerald Prince) الحوار في قاموسه بأنه: "عرض درامي الطابع للتبادل الشفاهي يتضمن شخصيتين أو أكثر وفي الحوار تقدّم أقوال الشخصيات بالطريقة التي يفترض نطقهم لها، ويمكن أن تكون هذه الأقوال مصحوبة لكلمات الراوي " 1.

السيرة الذاتية (أيامي) ورحلات نقولاً زيادة قد اتسمت بالسرد ولكن كان يتخللها الحوار حيث إنّ الحوار نوعان: النوع الأول هو حوار الديالوج وهي لغة الحوار العامي أو الفصيح والثاني حوار المونولوج وهو الحوار الداخلي أي الحوار بين الشخص ونفسه، وقد حضر هذا الحوار عند نقولاً زيادة حيث إنه دلّ على رمزية في هذا الحوار واضطراب شخصيته والصراع الداخلي الذي يكمن داخل ذاته..

والحوار بشكل عام يساعد في الكشف عن الأحداث وتحريكها كما يكشف عن الشخصيات ويحدد ملامحها ومكانتها داخل البنية السردية، ومن خلال الحوار تتصل الشخصيات بعضها ببعض، وتتضح نوعية علاقتها من حيث السلب والإيجاب والقوة والضعف كما قد يتراوح الحوار بين الفصحى والعامية..

وثمة عدة نماذج للحوار في السيرة الذاتية والرحلات لنقولاً زيادة (الديالوج/ الحوار الخارجي) نقف عند بعضها:

1. النموذج الأول (حوار نقولاً زيادة مع والدته)

-أثناء حديث نقولاً زيادة مع والدته عن مكان دفن أبيه بعد أن أخبرته: "يا نقولاً أبوك مات" ²وبعد سؤاله في اليوم التالي عن مكان دفن والده فرّوت له حوارها مع كاتب أحد المستشفيات الرسمية، وهو الذي أخبرها أنه يوجد عنده اسم عبده عبد الله زيادة وأنه مات، وقالت: أين دفن ؟
أجاب: هذا عبده خرستيان ؟

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم لبحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص22 .

2 زيادة، نقولاً:أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 28 .

قالت: نعم خرستيان

فكان جوابه: يمكن في تربة مارجريس ¹.

- أثناء قرار والدته الزواج مرة أخرى من عجوز يوناني "وكل ما قلته لها بعد أن وصفت لي الرجل وعمله وما إلى ذلك يا أمي أنت بتعرفي شو المناسب فاعملية"².

2. النموذج الثاني: (حوار نقولا زياد مع صديقه أنيس وزوجته سامية)

"التفتُ أنا إلى أنيس وقلت له: نحن في نابلس يا أنيس، لذلك عندما نصل إلى المدرسة، وهي مدرسة بنات نظل نحن في الخارج وتدخل هي للزيارة. فالتفتت إليّ سامية وقالت: أنت الدنيا تغيرت يا أبا رائد"³ ومن هذا الحديث المقتضب تريد أن توضح سامية لنقولا زيادة اختلاف ثقافة الآخر على مر الأزمان.

وكان هناك العديد من الحوارات الأخرى في سيرته الذاتية ورحلاته....

فمن كل هذا يتبين بأن الحوار الديالوجي قد لعب دورًا بارزًا في السيرة الذاتية، فهو ساعد على كشف الشخصيات وظاهره بالإضافة إلى كشفه للأحداث، فقد اتسمت جملة الحوار في سيرته الذاتية ورحلاته بالقصر والإيجاز نوعًا ما، وقد ظهر الحوار فيها تارة بالسؤال مثل: (أين دفن ؟) وأخرى قد يبدأ بفعل (قلت له)، وهكذا....

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 28-29.

2 المرجع نفسه، ص 80

3 المرجع نفسه، ص 78

والجملة الممهدة للحوار "هي الجملة التي..... تتضمن فعلاً من أفعال القول أو أفعالاً أخرى مثل: أجاب، تمت، هتف وسأل وغيرها...، وقد لا تسبق الحوار جملة ممهدة له. "1 ونرى في هذه السيرة الذاتية قد تنوعت الأفعال، فتارة تبدأ بأفعال القول وتارة أخرى بسؤال وهكذا...

كما أن الحوار كان في توافق لغوي بين الشخصيات، وهذا ربما يعود على وجودهم في منطقة واحدة وقد يحملون نفس اللهجة المحلية، فكان حواراً فصيحاً يتخلله العامي إذ إن أطرافه يتبين بأنهم يمتلكون قدرًا من الثقافة الحضارية العظيمة.

وهناك حوار آخر كما أسلفنا سابقاً وهو حوار باطني حوار مع النفس يسمى المونولوج أو الحوار الداخلي، وهذه تقنية كان لها حضورٌ في سيرة نقولا زيادة ورحلاته، وقد تبين عن طريقها البحث عن ذاته من خلال الآخر..

- المونولوج (الحوار الداخلي):

"إنّ المونولوج الداخلي، ككلّ مونولوج، هو حديث شخصية معينة، الغرض منه ينقلنا مباشرة إلى الحياة الداخلية لتلك الشخصية، دون تدخل المؤلف إما بالشرح أو التعليق. حيث لا يستمع له، لأنه حديث غير منطوق."2

"والمونولوج يختصر أحداثاً أو يساعد على إبراز حقائق نفسية دفينية من شأنها أن تدفع حركة العمل القصصي إلى الأمام، والمونولوج يقدم حياة الشخصية الداخلية مباشرة.."3.

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م، ص 23 .

2 المرجع نفسه، ص 25 .

3 المرجع نفسه، ص 25 .

ورد المونولوج في سيرته الذاتية والرحلات في موارد عدة معبرًا عن النفس، ومتوغلًا في جوانبها، كاشفًا عن حقائق مدفونة في عمقها. ومن أمثلة المونولوج في سيرته الذاتية ورحلاته:

- " وكنت أنا قد نسيت به إلى أن ذكرتني أمي به فيما بعد "1.
- "دخل عنصر جديد على العناصر التي حيرتني إلى الآن وكان السؤال لماذا تموت أمي وتترك تربية إخوتي على عاتقي..... ؟ نعم تساءلت أكثر من مرة عن الأمور أو الأشياء التي قوتني.... وفي أكثر الأحيان كان الجواب الذي انتزعته من نفسي له شقان: الأول هو الإيمان...."2.

- ".... لعل آثارها في نفسي كانت أكبر بكثير من المادة المدرسية"3، وغيرها الكثير كون سيرته الذاتية اتسمت بطابع التذكر. فنستشف من هذه الحوارات الداخلية التي كمنت في شخصية نقولا زيادة على أنها تبين شخصية تعبر عن واقعها من خلال نفسها فهو يعبر عما يشعر من خلال حوار مع نفسه، وهذا يتضح عندما خاطب نفسه، ووصفه للمشاهد أثناء كتابة سيرته ورحلاته.

ونلاحظ أن شخصية نقولا زيادة كان كانت شخصية تشعر بالقلق ولكنها حكيمة، ولم يشر إلى ذلك صراحة عبر كلام ملفوظ بل بقي مدفونًا في ذاته، والذي كشف عنه المونولوج كخوفه من الفقد...

ونرى أن الكاتب استخدم الحوار بينه وبين الشخصيات ليكشف عن مكنوناتها وثقافتها وحكمتها أو تهوورها، فالحوار وسيلة للكشف، ولتطوير الحدث، وإيصال رسائل الكاتب الخفية في معرفة الآخر عن طريق الذات.

1 زيادة، نقولا: أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص19.

2 المرجع نفسه، ج1، ص 92

3 المرجع نفسه، ص 101

وعند النظر إلى الخطاب اللغوي الموجود في سيرته الذاتية ورحلاته تمثل من خلال " مخاطبة شخص
لآخر من جانب واحد دون استجابة لفظية من الطرف الآخر لعدم تطلب الموقف تلك الاستجابة اللفظية "1.
وهذا الخطاب يتخذ أشكالاً مختلفة في سيرته الذاتية وفي رحلاته، منها:

(أ) التاريخ:

- " وقعت في يدي وثيقة تعود إلى أواسط الثلاثينيات...."2
- " فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد قامت، ودخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط أي ألمانية
وحليفاتها..3"
- "أمر عبد الحميد بشق طريق للعربات... خط حديد القدس يافا بني سنة 1892 م..4"

(ب) التفويض (التسليم):

- تفويض نقولا زيادة للقدر بعد وفاة والده.

(د) الموعظة:

- " خير المنافسة هي المنافسة مع النفس.كن في الغد خيرًا منك اليوم "5 وهي حكمة مفادها أن يستمر الإنسان
في تطوير ذاته ليكون غده أفضل من يومه وأمسه.

1 عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78،
2015م، ص25 .

2 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج2، ص142 .

3 المرجع نفسه، ج1، ص20

4 المرجع نفسه، ج2، ص31

5 المرجع نفسه، ج2، ص87

(هـ) الإنشاد:

يتمثل قول شوقي في دمشق:

وذكرى عن خواطرها لقلبي إليك تَلَفْتُ أَبَدًا وَخَفُّ¹

أثناء حديثه عن دمشق عند زيارته لها بعد سنين من العمر، فقد كان يرى فيها مراحل طفولته ويعشقها.

كما يستذكر في موضع من سيرته مطلع نشيد دار المعلمين.

دار المعلمين لا زلت مقراً للعلا

فإن داء الجهلا يشفيه مَن تخرجين²

ومن هذا كله نرى أن اللغة لعبت دوراً حاسماً في سيرته الذاتية و الرحلات في إيصال حياة نقولا زيادة وخلق تأثير عاطفي على القارئ، فإن استخدام الألفاظ المناسبة و الأساليب الأدبية الفعالة عزز جودة السرد في سيرته الذاتية و في رحلاته.

1 زيادة، نقولا، أيامي سيرة ذاتية، ج1، ص 25

2 المرجع نفسه، ج1، ص 70.

الخاتمة:

ختامًا، فمن هذا البحث ومحاولة الكشف عن صورة الذات والآخر لهذه السيرة الذاتية والرحلات الرائعة ومعرفة حقائقها أثناء تحليلها والدخول في عالمها الخاص، يتبين بأنّ هناك نتائج مهمة توصلنا إليها، وهي على النحو الآتي:

1. إن السيرة الذاتية تعد أداة مهمة للكشف عن صورة الذات في تشكيل تفاعلاتها مع الآخرين.
2. تفاعل نقولا زيادة مع الآخر بشكلٍ بارز ، ملتمسًا الأفكار والقيم التي تشكلت لديه من صورة الآخر.
3. لم تقتصر صورة الآخر عند نقولا زيادة وفقًا لصورة الشخص وإنما هو يرمي إلى أبعاد أخرى تنص على المكان و الثقافة.
4. كشف نقولا زيادة عن ثنائية الذات والآخر والعلاقة بينهما في وصفه للآخر بأنواعه المختلفة، إذ اتضحت ذات نقولا زيادة من خلال تصويره لهذا الآخر فنراه يعطي الآخر حقه كما يعطي لذاته.
5. شكل اللقاء بين الذات والآخر في طيّات سيرة نقولا زيادة ورحلاته قيمة معرفية وثقافية يستنتجها القارئ وتدور في مخيلته و يتأثر بها.
6. تكونت ذات نقولا زيادة نتيجة تأثره بالآخر من خلال تنقله بين البلدان .
7. كشفت السيرة الذاتية لنقولا زيادة عن الهويات القومية و ثقافة المجتمعات الأخرى ومدى تأثيرها على الذات .
8. يعد نقولا زيادة استثنائيًا وذلك من خلال المدة الزمنية الطويلة التي عاشها في تعرفه على مختلف الثقافات التي أدت إلى تكوين حصيلة متماسكة لديه عن الآخر.

9. عاش نقولا زيادة حياة مليئة بالمغامرات والصعاب وهذا أدى إلى تشكل شخصيته كما نراها ليومنا هذا، فالإبداع لا يُولد إلا من رحم المعاناة، فقد تحمل نقولا زيادة المسؤولية من صغره بسبب وفاة والده.

10. تعلّم نقولا زيادة العديد من اللّغات نتيجة تفاعله مع الآخر الغربي.

11. كَشَفَ نقولا زيادة عن الثقافة التي ينتمي إليها موضعًا أثر ذلك على تفاعلاته وتواصله مع الآخرين.

12. ينظر معظم الآخرين إلى نقولا زيادة نظرة إيجابية تشوبها المحبة والتقدير نتيجة لما يتمتع به من علم وثقافة.

13. تنوعت الذات في شخصية نقولا زيادة (الذات المتنقلة – المثقفة – المغتربة).

14. لم تخلُ سيرة نقولا زيادة من البوح والاعتراف بالأمور التي ينبغي عدم الإفصاح عنها بشكل واسع كمسألة الجنس ورأيه في الخمرة.

15. ظهرت صور عديدة للآخر تمثلت في الآخر المحتل (الإنجليزي – الفرنسي – الإيطالي – التركي) التي بينتها الظروف التاريخية والحضارية في السيرة الذاتية لنقولا زيادة ورحلاته متمثلة في تحديد علاقة الذات بالآخر.

16. ثمة علاقة بين الأنا والآخر لا يمكن تجاهلها، على اعتبار أننا لا يمكن أن نتعرف على أنفسنا إلا عن طريق معرفة الآخر.

17. لفت نقولا زيادة الأنظار إلى العديد من السلوكيات الحضارية في الآخر الغربي كنظرته الانبهارية لأسلوب النظام في المجتمعات الغربية ومقارنتها بالمجتمعات العربية إضافة إلى وصفه

للطبيعة وأسلوب الحياة لجميع الدول التي زارها كاستخدام الآخر الغربي كالألمان أسلوب التقنين في الشراء .

18. ثمة ملامح فارقة في حياة نقولا زيادة؛ ففي مرحلة الطفولة أدّى الفقد إلى ترعزع ارتباط الأسرة وأصبح الفراق هاجساً يطارده طوال مراحل مختلفة.

19. ساعدت مرحلة الشباب نقولا زيادة على الانخراط مع المجتمع أكثر فأكثر، ومكنته من تكوين علاقات اجتماعية كثيرة ومتنوعة.

20. اتسمت مرحلة الكهولة عند نقولا زيادة بالاستقرار الداخلي وذلك نتيجة ارتباطه بأحفاده.

21. يُلاحظ بأن نقولا زيادة قد تناول عدة أماكن في رحلاته وتعمق في وصف هذه الأماكن واكتسب خبرات جديدة أضافت إليه، فتفاصيل الأحداث تشهد أن الكاتب يغرس أفكاراً قيمة عن الأماكن التي ذهب إليها واصفاً إياها وصفاً دقيقاً.

22. كشف نقولا زيادة عن الآخر بصورة مباشرة من خلال تعامله معه في المواقف المختلفة في شتى البلدان التي ذهب إليها مبينا قيمة ذاته تجاه الآخرين.

23. بدت الأحداث في سيرته ورحلاته بوصف المشاهد وسردها بصورة ينتابها التذكر والتوثيق والنقل كما رآها نقولا زيادة منذ زمن.

24. السيرة الذاتية لنقولا زيادة سيرة تفصيلية إذ إنه مهتم بأبسط الأمور وهي أشبه بالسيرّ الفسيفسائية.

25. أرى بأن الكاتب سرد سيرته الذاتية بضمير المتكلم الذي غلب على السيرة، فقد كان على دراية ما سيجري من أحداث، وقد كانت هذه الأحداث نابعة من التذكر.

26. تدخل الوصف بالسرد في سيرته ورحلاته، وقد وقف الكاتب على إبراز الملامح الخارجية للموصوف لتعطي انطباعاً في مخيلة القارئ لإبراز عنصر التخيل لدى القارئ. ثم يتابع السرد ليكون النص متماسكاً بين الوصف والسرد لإبراز الأحداث في السيرة والرحلات بشكل بناء ومتسلسل.

27. استخدم الكاتب المونولوج الداخلي معتمداً على إبراز أحاسيسه الداخلية - النفسية - تجاه المشاهد المختلفة.

28. يشير عنوان كتاب سيرته الذاتية إلى الأيام التي عاشها، أما عنوان كتاب رحلاته يشير إلى المدة الزمنية المتمثلة في رحلاته وهي قرابة 76 عاماً إشارة على الحقبة الزمنية التي انخرط فيها آنذاك معاصراً التاريخ والحروب المختلفة.

29. كشف الحوار في سيرة نقولا زيادة عن ذاته ونظرته للآخر.

30. إن كتابة الذات وصورة الآخر في سيرة نقولا زيادة ورحلاته تعكس تفاعلاً دقيقاً بين تجاربه الشخصية وتأثير العوامل الاجتماعية والثقافية.

31. استخدم نقولا زيادة في كتابة سيرته الذاتية ورحلاته اللغة الفصيحة، كما أنه استعان باللغة العامية في بعض المواضع.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. القرآن الكريم.

ثانياً: مدونة الدراسة:

1. زيادة، نقولا: أيامي، سيرة ذاتية، 1- 2، هزار بابشلنغ لمتد- لندن، ط 1، 1992.
2. زيادة، نقولا: حول العالم في 76 عاماً؛ رحلات مثقف شامي في أوروبا و الشمال الأفريقي 1916-1992، دار السويدي للنشر والتوزيع - الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2007 م.

ثالثاً: الكتب العربية:

1. إبراهيم، عبدالله: السرد و الاعتراف و الهوية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، 2011م.
2. إبراهيم، عبدالله: موسوعة السرد العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ط1، 2008.
3. إسماعيل، محمد عماد الدين: كيف تعمل الجماعات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976
4. اشهبون، عبد المالك: عتبات الكتابة الروائية، دار الحوار للنشر و التوزيع - سوريا، ط 1، 2009.
5. أنساع، سميرة: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى -الجزائر، 2009.
6. البازغي، سعد: استقبال الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2004.
7. البخيت، محمد عدنان: نقولا زيادة في ميزان التأريخ، مؤسسة عبد الحميد شومان - عمان الأردن، والمؤسسة العربية - بيروت، ط 1، 2008.
8. بخيتي، عيسى: أدب الرحلة الجزائري الحديث، دار السويدي للنشر و أبو ظبي، ط1، 2017.
9. بكار يوسف، والشيخ خليل: الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة لمتسويق والتوريدات، القاهرة، مصر، 2008.
10. البهي، فؤاد السيد: الأسس النفسية للنمو، دار الفكر العربي، ط1، 1956.
11. البهي، فؤاد السيد: علم النفس الاجتماعي، دار الكتاب الحديث - مصر، ط 3، 1980.
12. التلاوي، محمد نجيب: الذات والمهماز، دراسة التقاطي في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

13. التواتي، مصطفى: دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية اللص والكلاب والطريق والشحاذ، تونس، دار التونسية للنشر، 1986.
14. الجابري، محمد العابد: الإسلام والغرب الآن والآخر، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009.
15. جبريل، ثريا: الخدمة الاجتماعية في مجال الأسرة والطفولة، القاهرة، دار السعد، 1993. حامد، عبدالله بن أحمد: نقد الذات ونقد الآخر في أدب الرحلة العربي الحديث، من إصدارات نادي الأحساء الأدبي، دار الكفاح للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية - الأحساء، 2015م.
16. حسن، محمد عبد الغني: التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1980 م.
17. حفناوي، رشيد بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، دار اليازوري العلمية، 2013.
18. حمادي، عبد الله: أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، قسنطينة، 2001.
19. الحمداني، حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر، بيروت، ط 3، 2000 م.
20. حمود، ماجدة: مقارنة تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000.
21. حمود، ماجدة: إشكالية الآن والآخر، نماذج روائية عربية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 398، الكويت، مارس 2013.
22. حنا، نبيل صبحي: المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1984.
23. حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، مكتبة الأدب العربي، 2002.
24. الذويخ، سعد: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي إلى حتى نهاية العصر العباسي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2009.
25. زهران، حامد عبد السلام: علم نفس النمو، دار المعارف، 1986.
26. زهران، حامد: علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب - القاهرة، ط2، 2005.
27. أبو سعد، أحمد: أدب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديد - بيروت، ط1، 1961 م.
28. السليمان، أحمد ياسين: التجليات الفنية لعلاقة الآن بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2009.
29. شاهين، أسماء: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط 1، 2001م.
30. شتا: السيد علي، نظرية الدور والمنظور الظاهري لعلم الاجتماع، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2003.
31. شرف، عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1992.
32. الشعار، فواز: الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1999.
33. شوقي، طريف: توكيد الذات مدخل لتنمية الكفاءة الشخصية، القاهرة - دار غريب، 1998.

34. صادق، آمال، و أبو حطب، فؤاد: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة السنين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1999م.
35. ضيف، شوقي: الرحلات، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط 4.
36. الطاهر، أحمد مكي: الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف - مصر، ط1، 1987.
37. الطاهر، قحطان أحمد: مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، دار وائل، الأردن، ط 1، 2004.
38. الطويل، عزت: معالم علم النفس المعاصرة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1995.
39. فوغالي، باديس: دراسات في القصة والرواية، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، 2011.
40. عبدالعظيم، طه: مهارات تأكيد الذات، الإسكندرية - دار الوفاء، 2006.
41. عبيد، محمد صابر: السيرة الذاتية الشعرية قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1، 2008.
42. عثمان، فايز صلاح: السرد في رواية السيرة الذاتية العربية، مؤسسة الوراق، ط 1، عمان، الأردن، 2014.
43. عزّام، محمد: شعرية الخطاب السردية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
44. الغامدي، صالح معيض: كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2013م.
45. فهم، حسين محمد: أدب الرحلات، عالم المعرفة - الكويت، 1978.
46. القعود، فاضل أحمد: جدلية الذات والآخر في الشعر الأموي، دراسة نصية، دار غيدا، عمان، ط1، 2012.
47. قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002.
48. كاظم، نجم عبد الله: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، بيروت، لبنان، ط1، 2013.
49. لبيب، الطاهر: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1999 م.
50. ليلة، علي: البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة عين شمس، القاهرة، 2008.
51. المحادين، عبد الحميد: التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999.
52. مصطفى، فاروق أحمد وإبراهيم، محمد عباس: الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2011.
53. ملحم، إبراهيم أحمد: قراءة الآخر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 2008.
54. المليجي، حلمي: علم النفس المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط 2، 1972.
55. الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، جامعة القاهرة - كلية الآداب، دار النشر للجامعات العربية - مكتبة الوفاء، ط 1، 1995م.
56. مودن، عبد الرحيم: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبوظبي، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، ط 1، 2006.

57. نجيب، ناجي: الرحلة إلى الغرب و الرحلة إلى الشرق (رحلة رفاة الطهطاوي إلى فرنسا و رحلة ادوارد لين إلى مصر في مطلع القرن التاسع عشر) دار الكلمة، بيروت - لبنان، ط 2.
58. نصّار، حسين: أدب الرحلة، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة - مصر، ط 1، 1991م.
59. أبو النيل، محمود السيد: علم النفس الاجتماعي، دراسات عربية وعالمية، ج 1، دار النهضة العربية، 1990.
60. يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبئير)، المركز العربي الثقافي العربي - بيروت، ط 3، 1997م.
61. يوسف، آمنة: تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر و التوزيع - سوريا، ط 1، 1997.

ثالثا: الكتب المترجمة:

1. أرنولد، ماثيو: مقالات في النقد، ترجمة: علي جمال عزت، مراجعة د. لويس مرقص، الدار المصرية - القاهرة، 1966م.
2. أيغوركون: البحث عن الذات "دراسة في شخصية ودواعي الذات"، ترجمة: غسان نصر، دمشق، سوريا.
3. باجو، دانييل هنري: الأدب العام المقارن، ترجمة: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - سوريا، ط 1.
4. بارث، رولان: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 1993.
5. باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة: غالب هسا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت، ط 3، ص 1987م.
6. جوردا، بيير: الرحلة إلى الشرق، ترجمة: مي عبد الكريم و علي بدر، الأهالي للتوزيع - دمشق، ط 1، 2000.
7. ديفيد كارتر: النظرية الأدبية؛ ترجمة: د. باسل المسالمة، ط 1، دار التكوين، دمشق، سوريا، 2010م.
8. ريكور، بول: الذات عينها كآخر، ترجمة: جورج زيناتي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، نوفمبر 2005.
9. ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ والنسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2009.
10. فوكو، ميشيل: حقايق المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، الدار البيضاء، ط 1، 1986م.
11. فونك، راينر: أنا والنحن التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة ترجمة وتقديم: حميد لشهب، جداول للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 2016م.
12. لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 2001.
13. لوجون، فيليب: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي ط 1، 1994م.
14. ماي، جورج: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي، عبدالله صولة، رؤية للنشر و التوزيع، 2017.

15. موريسون، طوني: صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات جامعة محمد بن عبد الله فاس، 2009.

رابعًا: المعاجم

1. البستاني بطرس: محيط المحيط، ج1، مكتبة لبنان ناشرون.
2. الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيحة - القاهرة، 2004.
3. الزيات، إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية): معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 2008 م.
4. زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر.
5. الطاهر، قائد: اصطلاحات فلسفية، عربي فرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1993.
6. عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، دار الملايين، بيروت - لبنان، ط2، 1984.
7. علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985 م.
8. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1987 م،، 1987 م.
9. القاضي، محمد: معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين.
10. ابن منظور جمال الدين، محمد بن مكرم: معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994 م.
11. ياسين، عطوف محمود: قاموس مصطلحات علم النفس، مؤسسة نوفل، لبنان، ط 1، 1981.

خامسًا: الرسائل الجامعية:

1. جبريل، فاروق: المناخ الأسري والجامعي المدرك والمأمول وعلاقتها بالذكاء الروحي لدى طلاب الجامعة، رسالة ماجستير، جامعة المنصورة، 2014.
2. الحوامدة، ضحى: البناء الفني في روايات عبد السلام صالح، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2000 م.
3. دودين، رفقة: التقنيات السردية في الرواية النسوية المعاصرة وجمالياتها، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2004 م.
4. الذنبيات، رانيا: بناء السرد في الرواية الأردنية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2002 م.

5. زروقي، عالية: صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى 2010، رسالة دكتوراه، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، 2017.
6. السرور، سهام: البناء الفني في روايات إدريس، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2010 م.
7. السيد، سحر: المناخ الأسري وعلاقته ببعض أشكال السلوك الاجتماعي الإيجابي لدى الأطفال، رسالة ماجستير، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، 2007.
8. الصمادي، صهيب: تجربة صبحي فحماوي الروائية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2012 م.
9. عبد العال، فايزة: المناخ الأسري للأطفال المعاقين عقلياً القابلين للتعليم وعلاقته بالسلوك التكيفي لديهم، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المنصورة، 2012.
10. عبد العزيز، سعاد محمد: عادات دورة الحياة دراسة فلكلورية لقبيلة المحس النوبية، رسالة دكتوراه، كلية البنات، جامعة عين شمس، 1992.
11. عبد العلي، مهند: مفهوم الذات وأثر بعض المتغيرات الديموجرافية وعلاقته بظاهرة الاحتراق النفسي لدى معلمي المرحلة الثانوية الحكومية في محافظتي حنين ونابلس، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، 2003.
12. العرقان منال: البنية السردية في أعمال هاشم غرايبة الروائية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2011 م.
13. العزام، عبد الباسط عبد الله، ومهيدات، ميس أكرم: تحولات مفهوم الذات عبر مسار الحياة في المجتمع الأردني دراسة سوسيولوجية بين جيلية، رسالة ماجستير، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، 2021 م.
14. الفواعرة، نورة: القصة القصيرة عند هند أبو الشعر دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2009 م.
15. محمد، علي: أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بتقدير الشخصية وتوكيد الذات لدى الأطفال المصابين باضطراب القراءة، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، 2008.
16. مقنين، سفيان: صورة الأنا و الآخر في رحلة جزائري في الأندلس رحلة إلى الفردوس الموجود، رسالة ماجستير، جامعة محمد الصديق بن يحيى - الجزائر، 2018.
17. الناعمة، عمار: العلاقة بين المناخ الأسري والأفكار اللا عقلانية، دراسة على طلاب المرحلة الإعدادية، رسالة ماجستير، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، 2004.
18. وشان، حمزة: صورة الآخر في أدب البير كامو وجون بول سارت، رسالة ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، 2014-2015.
19. ياسين، مي عودة أحمد: الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2006.

سادسًا: (الدوريات والحواليات):

1. أحمد، نيرفانا فريد وآخرون: التغيرات في نسق القيم وعادات دورة الحياة، دراسة أنثروبولوجية على قبيلة السواركة بشمال سيناء، مجلة العلوم البيئية، المجلد 49، العدد 2، ج5، 2020.
2. إسماعيلي، عبد المجيد: عتبات النص مقارنة نظرية، جريدة أخبار الجنوب، العدد 27، 2012 م.
3. اصطفى عبد النبي: دراسات الصورة بين الدرس المقارن للأدب والعلوم الإنسانية، جريدة الأسبوع الأدبي، العدد 1052، 21 أبريل 2007 م.
4. بدر، أحمد وزميلتيه: أمل شمس، ريم إبراهيم، مفهوم الذات وصورة الآخر لدى عينة من الأحداث المودعين بمؤسسات الأحداث بالقاهرة الكبرى، مجلة العلوم البيئية، معهد الدراسات والبحوث البيئية - جامعة عين شمس.
5. بطرس، إنجيل: الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، العدد 7، 1 يوليو 1975 م.
6. جبريل، فاروق: البناء الاجتماعي للأسرة وعلاقته بأساليب المعاملة الوالدية والسلوك العدواني للأبناء، ع 12، ج 2، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، 1989.
7. جحيش، يامنة: مسار تطور رواية الأتوبيوغرافية في العالم العربي، ندوة علمية الوطنية الثانية الرواية الجزائرية و الكتابة السير ذاتية جامعة محمد بوضياف المسيلة، 11 مارس 2019.
8. حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس آليات الكتابة، خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، عدد 121، 2002 م.
9. حنا، حسني، نقولا زيادة مؤرخ العصر الحديث
<http://www.voiceofbeladynews.com/articles/1207356.html>
10. حيزم، أحمد: في مسألة الذات وأحوالها في ديوان البحري، مجلة كلية الآداب قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة الملك سعود - السعودية العدد 9، 2004.
11. الرمادي، أبو المعاطي خيري: "صورولوجيا الآخر في الرحلة اليابانية"، مجلة آداب البصرة، العدد 88، 2019 م.
12. زادة، فاطمة كاظم: صورة الآخر في رواية قبل الرحيل ليوسف جاد الحق، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، جامعة دمشق، العدد 20، 2013.
13. ضاهر، مسعود: الموسوعة العربية، سوريا، 1981 م.
14. الطهراوي، عيسى، و مشعالة، محمد: صورة الآخر في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 17، كلية اللغة و الأدب العربي، جامعة باتنة، ط1.
15. عاشور، مصطفى: نقولا زيادة مؤرخ عاش قرناً.

/ <https://islamonline.net/archive/%D9%86%D9%82%D9%88%D9%84%D8%A7->

16. عبد الرحمن، خير الدين: الإبداع ما بين نقد الذات ونقد الآخر، آفاق المعرفة، العدد 563، 1 أغسطس 2010.
17. العساف، أحمد عبد المحسن، نقولا زيادة ومئة عام من أياامي، قراءات ومقالات، 15 أكتوبر 2018.
18. عمران، علي: التقنيات السردية في قصة قنديل أم هاسم ليحيى حقي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 78، 2015م.
19. الكعبي، ضياء عبد الله: نقولا زيادة في "أياامي" السيرة الذاتية الفسيفسائية، صحيفة أخبار الخليج، البحرين، العدد 13518، 28 مارس 2015.
20. متولي، محمد: أدب الاعتراف في الثقافة العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مكتبة العربي، العدد 736.
21. الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية،
<https://www.palquest.org/ar/biography/16105/%D9%86%D9%82%D9%88%D9%84%D8%A7-%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AF%D8%A9>
22. مقابلة نقولا زيادة مع محمد رضا نصر الله في برنامج "ما بين أيديهم"،
<https://www.youtube.com/watch?v=58G2G8dd9T4&t=145s>

Abstract:

This study focuses on Nicolas Ziadeh's experiences within the context of his biography and travels. It examines Nicolas Ziadeh's self-image and how his experiences and travels influenced the way he portrayed others and captured their essence in his biography. Nicolas Ziadeh's biography and travels are regarded as significant sources for understanding his life, personal experiences, and cultural background. This highlights the profound impact these factors had on his interactions with others. This study emphasizes that autobiography serves as a means for Nicolas Ziadeh to express his true self, documenting personal experiences and forming connections with others and society in general. It clarifies his identity and position within society. Furthermore, the portrayal of others in this biography is influenced by how Nicolas Ziadeh interacts with and depicts them. Where his biography and travels offer a comprehensive perspective on how his personal and social experiences have shaped the way others perceive him.

This study analyzed Nicolas Ziadeh's biography and his travels, explore the influence of cultural and social factors on his perception of others and how he depicted them in his biography. It delved into the concept of self-representation and examined the portrayal of the other in Nicolas Ziadeh's biography and travels, highlighting the impact of his experiences on his writing style and the portrayal of others. The study consisted of an introduction, a preface, five chapters, and a conclusion, which are outlined as follows:

In the introduction, I discussed the key concepts related to the self, the other, biography, and the journey.

In the first chapter, I focused on presenting Nicolas Ziadeh as a prominent public figure, highlighting his life and various experiences as documented in his biography. This chapter aimed to provide a comprehensive understanding of his life, both during his lifetime and posthumously.

In the second chapter, I explored the representation of self and the depiction of others in Nicolas Ziadeh's biography. This included his personal discoveries and encounters with different individuals, as well as his exploration of social, cultural, religious, and gender-related issues. The chapter examined how these experiences influenced the construction of his identity and his portrayal of others. It also sheds light on how Nicolas Ziadeh shaped his personal identity in his autobiography and critically assessed himself and others in various situations, emphasizing the relationship between the self and the other.

In the third chapter, I discussed the features that revealed the essence of Nicolas Ziyadeh and influenced his personality and relationships with others through the experiences he had in his childhood, youth, adulthood, and old age, through travel and exploration, highlighting the significant life transformations he went through.

Moving on to the fourth chapter, I focused on Nicolas Ziadeh's journeys and the interpersonal and societal connections he formed during his travels. Also, this chapter delved into the depiction of various characters encountered by Nicolas Ziadeh. Furthermore, I explored the geographical dimensions present in Nicolas Ziadeh's biography, examining the extent to which different regions he encountered influenced his perception of self and the portrayal of others. By delving into natural landscapes, spatial relationships, and the influence of specific locations on Nicolas Ziadeh and others, I aimed to uncover their impact on personal and cultural identities. Ultimately, the places and scenes Nicolas Ziadeh witnessed played a vital role in shaping his identity, cultural perspective, and self-discovery.

In the fifth chapter, I explored the narrative techniques utilized by Nicolas Ziadeh in his autobiography to elucidate the transformations he underwent and their impact on his self-perception and interactions with others. Additionally, I discussed the language and writing style employed by Nicolas Ziadeh in his autobiography and the effects of his linguistic choices on self-representation and the portrayal of others. This chapter sheds light on the unconscious motives, desires, and conflicts that may underlie the act of self-writing and the depiction of others. The significant findings I obtained regarding the aspects of self and the portrayal of others in Nicolas Ziadeh's biography and travels are as follows:

1. The biography serves as a vital tool for revealing one's self-image and shaping interactions with others.
2. The writing of the self and the depiction of others in Nicolas Ziadeh's biography and travels reflect a nuanced interplay between personal experiences and the influence of social and cultural factors.
3. Nicolas Ziadeh's life was replete with experiences that aided in his self-discovery and his understanding of others.
4. Nicolas Ziadeh unveiled the impact of his cultural background on his interactions and communication with others, offering insights into the culture to which he belongs..

University of Bahrain

college of Art

Department of Arabic Language and Islamic Studies



Writing the self and the features of the image of the other

In the biography of Nicholas Ziadeh and his travels

A dissertation prepared to complete the requirements for obtaining a Master's
degree in Arabic Language and Literature

Submitted by:

Hawra Ghazi Abdullah AlAwainati

University number: 20133402

Supervised by:

Prof. Dr.Ahmad Mohamad Wais

Professor of Literary Theory and Stylistics

University of Bahrain

Kingdom of Bahrain

2024-2023